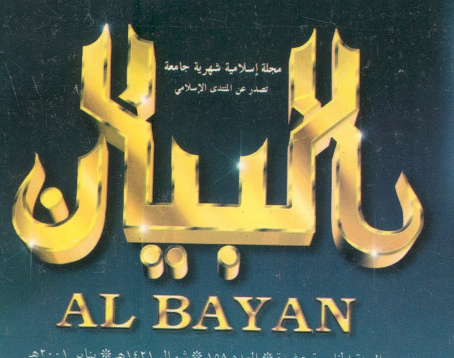


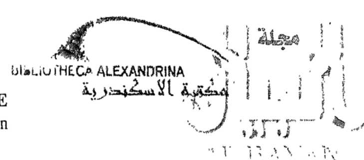
السنة الخامسة عشرة * العدد ١٥٨ * شوال ١٤٢١هـ * يناير ٢٠٠١م

الولايات غير المتحدة الأمريكية

نظرات في التربية الحديثة

السياسات الإصلاحية في الدول والمجتمعات

الإزدواجية اللغوية والمرض الثقافي



المركز الرئيس:
AL BAYAN MAGAZINE
7 Bridges Place, Parsons Green
London SW6 4HW, U.K.
Tel : 0171 - 736 9060
Fax : 0171 - 736 4255

مجلة إسلامية شهرية جامعة
تصدر عن المنتدى الإسلامي

سعر العدد
الأردن ٥٠ قرشاً، الإمارات العربية ٨ دراهم، أوروبا وأمريكا ١,٥ جنيه إسترليني أو ما يعادلها، البحرين ٦٠٠ فلس، اليمن ٦٠ ريالاً، مصر جنيهان، السعودية ٨ ريالات، الكويت ٦٠٠ فلس، المغرب ١٠ دراهم، قطر ٨ ريالات، السودان ١٠٠ دينار، سلطنة عمان ٦٠٠ بيزة.

EUROPE & AMERICA 1.5 (STERLING OR EQUIVALENT)

كلمة صغيرة

المقاطعة أضعف الإيمان

العلاقة الاستراتيجية بين العدو الصهيوني وأمريكا هي علاقة لا نقول تاريخية إنما هي علاقة مصلحية استغلها اليهود بأموالهم وإعلامهم ووصولهم لمراكز القرار؛ مما أنتج تلك العاطفة المعروفة بين الطرفين، وأكدها ورسَّخها الصهيونيون النصارى، أو النصارى الصهاينة الذين جعلوا من خزعبلاتهم وأساطيرهم الدينية ما يربط بين قيام دولة يهود ونزول المسيح ـ عليه السلام ـ وأن بناء الهيكل المزعوم على أنقاض المسجد الأقصى هو ذروة المجد النصراني الموهوم.

لذا وجدنا التعاون الكبير بينهم ووقوف الغرب بعامة والأمريكان بصفة خاصة في صفهم، وتأييد العدو الصهيوني في عداوته المستمرة منذ قيام دولتهم عام ١٩٤٨م وإلى الآن، وما قامت به من مجازر ومذابح وحشية للشعب الفلسطيني مؤخراً لم يحرك ساكناً في الجسد الغربي المتصهين بدعوى أن نصرة الصهاينة (قدر إلهي)! ولذلك فهم لا يفرقون بين الرجم بالحجارة من الأطفال والشباب الفلسطيني وبين راجمات الصواريخ والقصف المدفعي والطائرات، وهدم مقدرات الشعب الفلسطيني؛ بدعوى أن كلاً من ذلك عنف يجب أن يتوقف!!

هذه التصرفات الرعناء المعادية لأمتنا أثارت حفيظتنا وكراهيتنا للعدو الصهيوني والمتعاطفين معه، وأن ما طرحه من أسلوب السلام ما هو إلا أكاذيب ولعب على الذقون، وتحدث الإعلام العربي بكل صراحة في كل الدول العربية بدون استثناء عن: لماذا تكره (أمريكا)؟ وأرجعوا ذلك لمعاداتها لنا وتأييدها للصهاينة؛ بدون مراعاة حتى لمصالحها مع دولنا وشعوبنا.

ونحن نقول: إن كل ذلك الانحياز يجعلنا نكره الغرب، والعدو الصهيوني، والمتواطئين معه، والمكبلين باتفاقيات الاستسلام، ونعتقد أن واجب الولاء والبراء يجعلنا نطالب بمقاطعة العدو وكل الشعوب المنحازة له؛ حتى يعلم أولئك قيمة أمتنا، وقدرتها على تطويعهم بهذا الأسلوب البسيط، ولو قاطعنا أولئك مقاطعة تامة في كل ما يُصدِّرونه لنا ـ وبخاصة أن هناك بدائل عنه ـ لأذعنوا لنا؛ ولكن هل نفعل؟ هذا ما يجب أن تفكر فيه الدول والشعوب بكل أطرها وفعالياتها. ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

مكاتب المنتدى الإسلامي ومجلة البيان

م	الدولة	المدينة	ص. ب.	الهاتف	الفاكس
١	بريطانيا	لندن	ـــ	٧٣١٨١٤٥	٧٣٦٤٢٥٥
٢	السعودية	الرياض	٢٦٩٧٠	٤٦٤١٢٢٢	٤٦٤١٤٤٦
٣	البحرين	المحرّق	٥٠١٦٣	٣٣٥٣٠٠	٣٣٦٣٠٠
٤	قطر	الدوحة	١٦٤٦٤	٤٤٤١٠٤٤	٤٣٢٧١٦٧
٥	كينيا	نيروبي	٧٧٨٠٢	٣٥٠٥٢٦	٥٠٠٠١٥
٦	غانا	أكرا	٢٠	٢٣٥٧٦٦	٢٣٥٧٦٧
٧	بنغلاديش	دكا	١٢٠٧	٩٨٠٢٠١٥	٩٨٠٣٠٠٥
٨	السودان	بورتسودان	٦٩٥	٢٢٥٣٣	٢٢٥٣٣
٩	مالي	باماكو	E٢٠٣	٢٢٣٢٠٣٩٠٩	٢٢٣٢٠٣٩٠٩
١٠	جيبوتي/ الصومال	جيبوتي	٣٢٨٠	٣٤١١١٣	٣٤١١١٣
١١	تشاد	أنجمينا	١٧٨٩	٥١٨٥٩١	٥١٨٥٩٠
١٢	توجو	لومي	١٠٧٤	٢٦١٦١١	٢٦١٦١١
١٣	نيجيريا	كانو	٢٦٣٥	٦٣٧١٩٠	٦٣٧١٨٠
١٤	بنين	كوتونو	٤١٩٣-٠٣	٣٠٣٩١٩	٣٠٣٩١٩

المراسلات والإعلانات

الدول العربية:

السعودية : مكتب مجلة البيان - ص.ب ٢٦٩٧٠-الرياض : ١١٤٩٦-هاتف ٤٦٤١٢٢٢ - فاكس ٤٦٤١٤٤٦ .

قطر: الدوحة، ص.ب : ١٦٤٦٤ ، هاتف : ٤٤٤١٠٤٤ ، فاكس: ٤٣٢٧١٦٧ .

البحرين: المحرّق مكتب دار البيان ، ص.ب ٥٠١٦٣ -هاتف٣٣٥٣٠٠ -فاكس ٣٣٦٣٠٠ .

البريد الإلكتروني: **bayan@naseej.com.sa**

أوروبا وأمريكا :

AL BAYAN MAGAZINE 7 Bridges Place, Parsons Green London SW6 4HW, U.K. Tel : 071 - 736 9060
Fax : 071 - 736 4255

■ الاشتراكات ■

بريطانيا وإيرلندا	١٨ جنيهاً استرلينياً
أوروبا	٢٠ جنيهاً استرلينياً
البلاد العربية وإفريقيا	٢٥ جنيهاً استرلينياً
أمريكا وبقية دول العالم	٣٠ جنيهاً استرلينياً
المؤسسات الرسمية	٤٠ جنيهاً استرلينياً

الحسابات

■ **السعودية**: شركة الراجحي المصرفية للاستثمار فرع الربوة - شارع الأربعين - حساب مجلة البيان رقم ٢١٠٠ / ٧ .
- مصرف فيصل الإسلامي - حساب رقم: ٠٠٢ - ٤٥١٤ - ٤٢ - ١٠٩ .
- الشركة الإسلامية للاستثمار الخليجي - حساب رقم ٦٣٤٩٢٤ .

■ **الإمارات**: بنك دبي الإسلامي - (فرع دبي) رقم الحساب ٥٥٤٦٥٢٤ .

■ **قطر**: مصرف قطر الإسلامي - حساب رقم:٨٧٨٨٥٥ زكاة ٨٧٨٣٨٣ صدقات
حساب مجلة البيان : بنك قطر الدولي الإسلامي رقم: ٢٤٢٠٧٠٠٧١ .

AL MUNTADA AL ISLAMI EDUCATIONAL TRUST
National WestMinister Bank PLC Fulham Branch
45 Fulham Broadway London SW6 IAG
Sorting Code No. 60-22-16
A/C NO: 44348452

الموزعون

■ **السعودية** : مؤسسة المؤتمن للتوزيع ص.ب ٦٩٧٨٦ ، الرياض ١١٥٥٧ ، هاتف ٤٦٤٦٦٨٨ ـ فاكس: ٤٦٤٢٩١٩ .
ـ الشركة الوطنية للتوزيع : هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠ .

■ **المغرب** : سوشبرس للتوزيع ، الدار البيضاء ، ش جمال بن أحمد ص.ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩ .

■ **اليمن** : مكتبة دار القدس ، صنعاء : ص.ب ٣٦٠٠ الطريق الدائري العربي أمام الجامعة القديمة ، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ .

■ **السودان** : شركة النحوي للتجارة والتوزيع ، الخرطوم: ص.ب ١٠٣٧١ ـ هاتف. ٧٧٤٣٣٦ ـ ٧٧١٥٤٧ .

■ **مصر** : القاهرة ـ ش الجلاء ـ مؤسسة الأهرام ـ قسم الاشتراكات ، هاتف وفاكس : ٥٧٤٧٠٢٣ .

■ **الأردن** : الشركة الأردنية للتوزيع ، عمان ص.ب ٣٧٥ هاتف : ٦٣٠١٩١ ، ٦٣٥١٥٣ ، فاكس: ٦٣٥١٥٢ .

■ **الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان** : شركة الإمارات للطباعة والنشر ، دبي ص.ب ٦٠٤٩٩ ، هاتف ٦٢٣٩٢٠ ، فاكس ٦٦٣٧٦٨ .

■ **قطر** : دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ، الدوحة هاتف ٦٦٢٤٤٤ ، فاكس: ٦٦٢٤٥٠ .

■ **الكويت** : شركة الخليج لتوزيع الصحف والمطبوعات: ص.ب: ٤٢٠٥٧ الشورفح ٧٠٦٥١ ـ هاتف: ٤٨١٦٨٨٥ ـ فاكس: ٤٨٣٦٦٨ .

■ **البحرين** : مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ المنامة: ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١ ، فاكس ٥٣١٢٨١ .



الافتتاحية

صورتان متناقضتان تحيِّران

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلقد نال علماء الإسلام في المجتمع الإسلامي مكانة كبرى، وحسبهم ثناء الله عليهم في آيات قرآنية كثيرة، منها ما دلَّ على رفيع قدرهم، وفي ذلك يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [**المجادلة** : ١١] .

وأنهم أقرب الناس له ـ جل وعلا ـ معرفة به وخشية له . يقول الباري ـ عز وجل ـ : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [**فاطر** : ٢٨] .

وأثنى عليهم الرسول ﷺ في كثير من الأحاديث، ومنها قوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »[١] ولا شك أن قيامهم برسالة الأنبياء في الدعوة والبلاغ هو مؤهلهم لهذه المكانة؛ فقد كان ذلك السمةَ العامةَ لكل من انتمى لهذه المهمة الجليلة في كل زمان ومكان.

فقد أدوا رسالتهم في الحياة؛ فكانوا نماذج مشرفة للعلم والفضل، والسمو على زخارف الحياة، وبَذَل الكثير منهم النفس والنفيس في سبيل الجهر بكلمة الحق ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا** ﴾ [**آل عمران** : ١٤٦] .

وسجل التاريخ لهم صوراً مشرفة كُتبت بأحرف من نور، مثل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وعلماء التابعين وتابعيهم بإحسان، ومثل الأئمة الأربعة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام النووي، والعز بن عبد السلام، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، وغيرهم رحمهم الله جميعاً.

وفي العصر الحديث عُرف كثير من العلماء بهذا الفضل أمثال (الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ) ، و (الشيخ عبد العزيز بن باز) ، و (الشيخ ناصر الدين الألباني) ، و (الشيخ محمد الأمين الشنقيطي) ، و (الشيخ محمد رشيد رضا) ، و (الشيخ عبد الحميد بن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند : (٥/١٩٦).

باديس)، و (الشيخ أحمد شاكر)، و (الشيخ محمد حامد الفقي)، وغيرهم كثير ممن لا يتسع المقام لذكر أسمائهم فضلاً عن ذكر مواقفهم الجليلة.

وهذه المكانة لهم لم تأت من فراغ، وإنما كانت نتيجة لأدائهم ما كلفهم الله به من رسالة البلاغ والنصح والإرشاد والتوجيه للأمة؛ فقد عملوا ما وسعهم الوقت والجهد في التحذير من الأخطار المحدقة بالأمة، والتنبيه على ما يحتوشها من تيارات إلحادية وتغريبية، والتحذير من كل ما يبعدها عن سواء السبيل.

ومما يؤسف له أننا في هذا العصر وإن لم نفقد أمثلة مشرفة لهؤلاء العلماء إلا أن التيار الإلحادي والتغريبي والنهج العلماني السائد في كثير من البلدان الإسلامية كان بالمرصاد للاتجاهات الإسلامية، فعمل جاهداً على تهميش العلماء وإضعاف أدوارهم في الحياة، وسلطوا وسائل الإعلام للإساءة لهم وإظهارهم بصور مزرية، وما ذاك إلا للكيد لهم، ومحاولة إضعاف رسالتهم، بل وصل إيذاء المنتمين للاتجاهات الإسلامية إلى حد بعيد؛ بحيث يعاقب كل من ينتمي لأسرهم حتى الدرجة الثالثة ظلماً وعدواناً، وللحيلولة دون وصولهم إلى مراكز التوجيه في تلك المجتمعات؛ ووضع العراقيل في طريقهم بشكل مكشوف؛ تارة باتهامات معدة سلفاً، وتارة بادعاء العمالة للخارج، وتارة بدعوى أنهم تيارات إرهابية متطرفة؛ وهم نخبة متميزة في تلك المجتمعات بل من صفوة أبنائها المتخصصين في شتى الفروع العلمية والتقنية، وكل ذلك مرفوض في شرع العلمانية والتغريب ما دام الأخيار منتمين للتيار الإسلامي.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: لمصلحة من يُنحَّى الدعاة والعلماء والمنتمون للاتجاهات الإسلامية عن الساحة؛ وبخاصة أنهم مشهود لهم بالعلم والفضل والإبداع في تخصصاتهم العلمية؟

والجواب واضح حيث تتمثل تلك المصلحة التي لا يُبغى بها وجه الله في أمور كثيرة منها:

- حرمان الأمة من هذا التيار الذي عادة ما يكون أحرص الناس على هداية الأمة والعمل المخلص لما فيه تقدمها ونهضتها.
- محاولة تحجيم أثر الإيمان في المجتمعات الإسلامية، والعمل على فصل الدين عن الحياة، وهذا أسلوب معروفة آثاره السلبية منذ ابتليت أمتنا الإسلامية بتلك الحكومات العلمانية المتطرفة؛ فما حصلت أمتنا في عهودهم إلا على الهزائم المنكرة، والتبعية المطلقة، والإخفاق الذريع في شتى مناحي الحياة.
- إثارة النزاع والخلاف بين فئات المجتمع بتصنيف أفراده إلى فئات مهمشة، وفئات مقربة، وفئات مرضي عنها، وفئات ممقوتة؛ مما يجعل الحياة في نزاع وشقاق دائم لا تتسنى معه نهضة حقيقية ولا تنمية مستديمة.
- ظهور ردود أفعال خطيرة من اتجاهات

الغلو والانحراف العقدي حينما يهمش الحاكمون بأمرهم الفئات الإسلامية وينحُّونها عن خدمة مجتمعاتها؛ فهم يعملون من حيث يشعرون أو لا يشعرون في خدمة التيارات الإلحادية والمنحرفة لتؤدي دورها في تغريب المجتمعات وتضليل أفرادها، والعمل على انحرافها عن صراط الله المستقيم؛ بحيث لا ينجو من نتائج هذا الانحراف السيئة لا الراعي ولا الرعية.

والغريب حقاً أننا نرى أصحاب الأديان الأخرى من يهودية ونصرانية وهندوسية وغيرها أكثر ما يكونون تقديراً لعلمائهم والمنتمين للتيارات الدينية فيهم؛ من حيث فتح المجال لهم للعمل في كل فعاليات الحياة دون أدنى مضايقة. فدُور أديانهم مفتوحة تؤدي رسالتها التوجيهية بغض النظر عن مدى صحتها، ورجال الدين عندهم في مكانة سامية، ولهم تأثيرهم الملموس مما مكنهم من الوصول لشتى المناصب الاجتماعية بل السياسية؛ حتى وصل نفر من رجال الدين عندهم إلى سدة الحكم، وحكمت أحزاب دينية تلك الديار بأساليب ديمقراطية نزيهة تنأى عما هو معروف في كثير من ديار الإسلام من تلاعب بالانتخابات لمصلحة الحزب الحاكم أو المنتفعين في المجتمع.

ولا شك أن ذلك لم يأت من فراغ وإنما كان نتيجة طبيعية للمكانة المتاحة لهذه الفئة من الناس؛ حيث لم ينلهم اضطهاد أو تهميش أو مضايقات، ولم يُستخدم (القضاء) لتمرير الاتهامات ضدهم كما هو معروف في كثير من ديارنا، والله المستعان.

ولعب الأدب والإعلام عندهم دوراً كبيراً ومؤثراً في إظهار رجال الدين بصور مشرفة؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد رجل دين معروفاً هو (مارتن لوثر) قد كُتب عن حياته وإنسانيته وإصلاحاته ما لا يقل عن ثلاثين رواية، ومثله (كالفن)، و (توماس الأكويني)، وقد مُثِّلت سيَرهم وأدوارهم الحياتية بصورة مؤثرة يظهر فيها التبجيل والاحترام لكل من يشاهدها. ولذلك لا نستغرب أن يكون لرجال الدين هناك أثرهم الإيجابي الملموس.

ومما يؤكد تلك المكانة لرجال الدين عندهم ما قرأناه في الأخبار مؤخراً من صور توضح هذا التأثير في مجتمعاتهم، ومن ذلك على سبيل المثال:

- قيام الكنيسة الكاثوليكية في الفلبين بتأييد المعارضة ضد رئيس الدولة (جوزيف أسترادا) لما أخذ عليه من مخالفات مالية معروفة، ولم يجد هذا التأييد أي نكير من القوى الغربية.

- احتجاج الكنيسة الأرثوذكسية على الحكومة اليونانية حول رغبتها في شطب اسم (الديانة) من بطاقة الهوية؛ لا سيما أن الكنيسة والدولة في اليونان لا تزالان غير منفصلتين، وهذا منصوص عليه في الدستور اليوناني[1].

(١) جريدة الحياة، العدد: (١٣٦٢٩) في ١٤٢١/٤/٣هـ الموافق ٢٠٠٠/٦/٥م.

- وما أخبار رجال الدين الموارنة في لبنان عنا ببعيدة؛ فمنذ إعلان (البطريرك صفير) دعوته لإخراج القوات السورية من لبنان لأنه يرى أنها تشكل وصاية على لبنان أسهمت في أزماته الاقتصادية غير المسبوقة. ونقلت الصحف ذهاب بعض الوزراء لطمأنة البطريرك وتهدئة خاطره، وأن رغبته محل الاعتبار؛ مما جعل البلدين يناقشان الموضوع، ونتج عن ذلك إعادة انتشار القوات السورية كما هو معروف.

فهذه الأدوار لرجال الدين النصارى في العالم، وتدخلهم في شؤون دولهم لم يعد خافياً على الجميع وهم المعروف عنهم جملتهم المشهورة: (دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، لم يعد ذلك مجهولاً، وأصبح لهم كلمتهم في مجتمعاتهم؛ بينما علماء الدين المسلمون في كثير من بلداننا مُهمَّشون. ومن بركات الحكومات العلمانية في بلداننا نقل ذلك المقول النصراني المأثور إلى بلاد الإسلام ليعمل به بالحديد والنار مع مخالفته للمنطلقات الشرعية الإسلامية ومنافاته للعقيدة ومناقضته للإسلام، وهذا ما قرره كثير من العلماء عند بحثهم لهذه المسألة؛ حيث أوضحوا مناقضة الإسلام لكثير من أعمالهم المعروفة ومنها:

١ - الاستهزاء بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه؛ فذلك مناقض للإسلام.

٢ - من اعتقد أن بعض الناس يسعهم الخروج على شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج على شريعة موسى فهو أيضاً يناقض الإسلام.

فماذا يسمى تهميش الدين وتنحيته عن الحياة إن لم يسمَّ استهزاءاً به؟ وماذا يسمى ترك الشريعة ونبذها والحكم بغير ما أنزل الله سوى الاستهتار بهذا الدين ورميه في عرض الحائط؟ تلك صورتان للعلماء: عند المسلمين في عصورهم الحديثة، وعند غير المسلمين أيضاً بين تبجيل وتخذيل وتقدير وتزوير.. فإلى الله المشتكى.

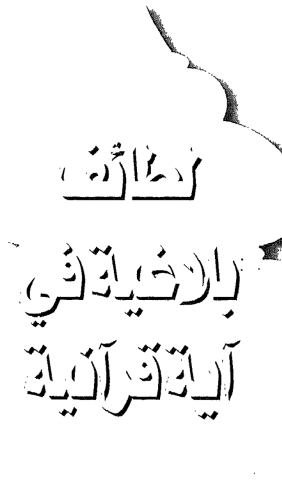
كلمة أخيرة:

لكثير من أدبائنا وصحفيينا الذين دأبوا على الهمز واللمز بحق علماء الإسلام ودعاته وإظهارهم بصور منكرة والافتراء عليهم بمناسبة وبغير مناسبة: نذكِّرهم بأن أساتذتهم الذين يدعوننا دائماً للاقتداء بهم - ونعني الغربيين - هم بعكسهم تماماً في مواقفهم من علماء مللهم؛ فلماذا لا يأخذون عنهم تقديرهم لعلمائهم وإشادتهم بهم؟ أم أن النقل لا يكون إلا فيما لا يفيد، وفيما لا يصلح؟!

هذه هي الحقيقة، والشيء من معدنه لا يستغرب.

واللهَ نسأل للجميع الهداية والتوفيق لما يحبه ويرضاه.





لطائف بلاغية في آية قرآنية

محمد بن عبد العزيز الخضيري

ما من مسلم في الأرض يشهد لله بالوحدانية إلا وهو يقر إقراراً جازماً لا مراء فيه بأن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه قد بلغ الذروة من الفصاحة والبلاغة التي يتقاصر البلغاء - فضلاً عمن سواهم - عن سبر غورها وإدراك أعماقها؛ وهذا الإقرار من كثير منهم قد جاء بناءاً على خبر الصادق - كما نطقت به آي الكتاب وكلمات الرسول ﷺ - خلافاً لما كان عليه الناس في القرون الأُوَل حين كانوا يتذوقون تلك البلاغة ويدركون حقيقة الإعجاز الذي أُخبِروا عنه.

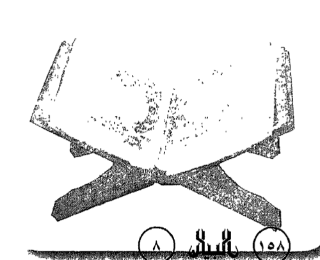
ولكي أطلعك - أخي - على لون من ألوان بلاغة القرآن جارٍ مجرى التمثيل والتدليل لتنتقل بإيمانك من العلم إلى اليقين إلى عين اليقين؛ فإني أستعرض لك في هذه المقالة بعض ما دوَّنه أئمتنا في بلاغة آية نرددها الدهر كله؛ لكنْ لفساد تذوقنا اللغوي، وضعف تدبرنا وقلة زادنا؛ فإن ما أُودع في هذه الآية من بديع الحكمة، وعمق البلاغة لا يخطر لنا على بال فضلاً عن استرواحنا له واستلذاذنا به.

وإذا كان هذا الشأن في آية؛ فكيف يكون القول في بقية الآي؟

إنها قوله - تعالى - : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فإليك لطائف من بلاغتها لترى بأم عينك ما انعقد عليه قلبك.

المسألة الأولى: حكمة تقديم المعمول (إياك):

إن تقديم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على عاملها ﴿نَعْبُدُ﴾ نموذج رائع على بلاغة القرآن وبلوغه الذروة العليا من الفصاحة والبيان، فلا يشق له في ميدان البلاغة غبار؛ وحُق له أن يكون كذلك؛ وكيف لا، وهو كلام رب العالمين؟



ولعلّي أطلعك على صدق مقالي في هذا المبحث اللطيف لترى كيف تجول أقلام أحبار الأمة في بيان بلاغة تقديم ﴿ إِيَّاكَ ﴾ على عاملها فتبصر العجبَ، وإنما هو عجب في الأذهان، وليس بمستبعد ولا غريب على القرآن.

وقد بين العلماء - رحمهم الله تعالى - وجوهاً كثيرة في سر التقديم أسوق موضحاً باقة منها يتضح من خلالها ما تضمنته الآية من آيات الصدق الشاهدة على أن هذا كلام من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الوجه الأول:

في التقديم إيذان بالحصر أو الاختصاص؛ فهو في قوة (لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك)، والحاكم في ذلك كما قال ابن القيم - رحمه الله -: «ذوق العربية واستقراء موارد استعمال ذلك مقدماً»[1].

والحصر في الأول حقيقي؛ لأن المؤمنين الملقَّنين لهذا الحمد لا يعبدون إلا الله، وأما في الثاني فهو حصر ادعائي إضافي كما ذكر ذلك الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - ومعناه هنا: لا نستعين في عظائم الأمور التي لا يستعان فيها بالناس إلا بالله تعالى[2].

وقد زعم قوم أن التقديم هنا لا يفيد الاختصاص بل الاهتمام؛ والصحيح خلاف ما قالوه. وسيبويه - رحمه الله - ذكر الاهتمام ولم ينف غيره[3]، ولأنه يقبح من قائل قد أعتق عشرة من الأعبد ثم قال لأحدهم: إياك أعتقتُ؛ فإن من يسمعه ينكر ذلك عليه ويقول: وغيره أيضاً أعتقتَ. ولولا فهم الاختصاص لما قَبُحَ هذا الكلام، ولا حسن إنكاره[4]. قال ابن القيم: «ولا عبرة بجدل من قلّ فهمه وفتح عليه باب الشك والتشكيك؛ فهؤلاء هم آفة العلوم وبليَّة الأذهان والفهوم»[5] ا. هـ. قال الشوكاني: «وتقديمه على الفعل: لقصد الاختصاص، وقيل: للاهتمام. والصواب أنه لهما؛ ولا تزاحم بين المقتضيات»[6].

الوجه الثاني:

إفادة الاهتمام؛ فإن عادة العرب جارية على تقديم ما القصد الأول إليه، والاهتمام متوجه نحوه من الفاعل والمفعول؛ وإن كان في ذكر الجملة القصدان جميعاً فإنك تقول: بالأمير استخف الجند. إذا كان القصد الأول ذكر من وقع به الاستخفاف، وتقول: الأمير استخف بالجند. إذا كان مقصودك الأول هو التنبيه على من أقدم على الاستخفاف بهم.

ولما كان القصد الأول في الآية ذكر المعبود دون الإخبار عن إيجاد عبادتهم كان تقديم ذكره أوْلى؛ وعلى هذا قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤][7].

ومنه أيضاً ما حكي أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب، فقال الساب: إياك أعني. فقال

---

(١) التفسير القيم، ص (٦٨) نقلاً عن مدارج السالكين، البرهان، للزركشي (٣/٢٣٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/١٨٣ - ١٨٥).

(٣) التفسير القيم، ص (٦٨).

(٤) التفسير القيم من مدارج السالكين، ص (٦٨)، انظر: الكشاف (١/٦١)، والرازي (١/٢٤٧).

(٥) المصدر السابق.

(٦) فتح القدير، تفسير الفاتحة.

(٧) التفسير الكبير، للرازي (١/٢٤٦).

الآخر: وعنك أعرض. فانظر كيف قدم كل منهما ما قصده إليه أول[١].

الوجه الثالث:

فيه أدبهم مع ربهم - جل وعلا - حيث قدموا ذكره على ذكر عبادتهم؛ ومنه يؤخذ تعليمهم الأدب مع المتفضل المنعم عليهم فيقدموا ذكره في كل شأن من شؤونهم[٢].

الوجه الرابع:

أن الله - تعالى - قدم ذكر نفسه ليتنبه العابد من أول وهلة على أن المعبود هو الله؛ فلا يتكاسل في التعظيم، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً[٣].

الوجه الخامس:

وفيه التنبيه للعبد بأنه إن ثقلت عليك الطاعات وصعبت عليك العبادات من قيام وركوع وسجود فاذكر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] لتذكرني، وتحضر في قلبك معرفتي؛ فإذا ذكرت ذلك سهلت عليك عبادتي[٤].

الوجه السادس:

من كان نظره في وقت النعمة إلى المنعم لا إلى النعمة؛ كان نظره في وقت الابتلاء إلى المبتلي لا إلى البلاء فيكون في كل أحواله متعلقاً بالله، بخلاف من يخالف ذلك، ولذا قال الله - تعالى - لأمة موسى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال لأمة محمد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢][٥].

الوجه السابع:

وليلفت نظر العبد إلى أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات، ثم إلى العبادة من حيث إنها وَصْلَةٌ إليه، وراحلةٌ تفد عليه[٦].

الوجه الثامن:

إن الله هو الأول؛ فوجب أن يقدم ذكره ليوافق الوضعُ الطبعَ.

الوجه التاسع:

وليعرِّض بالمشركين الذين يعبدون مع الله غيره، ويستعينون بغيره؛ فقد كانوا فريقين:

- فريقاً عبد غير الله على قصد التشريك؛ إلا أن ولعه بغير الله أنساه عبادة الله كما عبدت الفرس النور.
- وفريقاً أشرك مع الله غيره؛ وهذا حال معظم العرب؛ فقد جعلوا الآلهة بزعمهم وسيلة يتقربون بها إلى الله، فجمعوا بين العبادة لهم والاستعانة بهم.

قال الطاهر ابن عاشور: «وإنما قلنا: إن استفادة الرد على المشركين بطريق التعريض؛ لأن القصر الحقيقي لا يصلح أن يكون لرد الاعتقاد إلا تعريضاً؛ لأن معناه حاصل على الحقيقة كما أشار السلكوتي في حاشية التفسير»[٧].

وإلى هنا أوقف سباحة الفكر في أوجه تقديم المعمول على العامل في الآية؛ ففي ما ذكر ذكرى لمن ادَّكر.

---

(١) البحر المحيط (١/٢٤).

(٢) التفسير القيم، ص (٦٨).

(٣، ٤) تفسير الكبير، للرازي (١/٢٤٧)، انظر: روح المعاني، للآلوسي (١/٨٧).

(٥) تفسير الكبير، للرازي (١/٢٤٧)، انظر: روح المعاني، للآلوسي (١/٨٧).

(٦) روح المعاني (١/٨٧).

(٧) التحرير والتنوير (١/١٨٥).

ويحسن بي أن أورد إشكالاً ذكره الرازي في تفسيره بقوله: «إن قال قائل: جميع ما ذكرتم قائم في قوله: ﴿الحمد لله﴾ وقد قدم فيه ذكر (الحمد) على ذكر (الله).

فالجواب: إن قوله: ﴿الحمد﴾ يحتمل أن يكون لله ولغيره (أي يجوز إطلاق الحمد لغير الله)، فإذا قلت: (لله) تفيد بأن يكون لله، أما لو قدم (نعبد) احتمل أن يكون لله، واحتمل أن يكون لغير الله وذلك كفر؛ والنكتة أن الحمد لما جاز لغير الله في ظاهر الأمر كما جاز لله؛ لا جرم حسن تقدم الحمد، أما ها هنا فالعبادة لما لم تجز لغير الله قدم قوله: (إياك) على (نعبد)»[1].

المسألة الثانية: حكمة تكرار (إياك):

كررت ﴿إِيَّاكَ﴾ في الآية مرتين وأعيدت مع العاملَيْن (نعبد، نستعين)، وكان يمكن أن يقال: لو لم تكرر لكان أخصر، ولكنا حين نعلم اللطائف في تكرارها نقضي عجباً من فصاحة القرآن، ولا يكون عندنا ريب في أن ورودها مكررة مع عامليها هو الحق الذي لا يكون غيره مكانه، مع أنه قد ورد في القرآن الاقتصار على ذكر أحد المفعولين في آيات كثيرة منها قوله - تعالى -: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]: أي ما قلاك، وكذلك الآيات التي بعدها في معناها[2] (فآواك، فهداك، فأغناك)، ولكن هذه الآية العظيمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] لها شأن غير شأن سواها من الآيات. ونبين حكمة ذلك فيما يلي:

أولاً: أنه لو حذفت ﴿إِيَّاكَ﴾ في الثاني لفاتت فائدة التقديم، وهي قطع الاشتراك بين العاملين؛ إذ لو قال: (إياك نعبد ونستعين) لم يظهر أن التقدير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ بل قد يحتمل غيره من التقدير كـ (إياك نعبد ونستعينك) مثلاً[3].

ثانياً: وكرر للتنصيص على تخصيص: (الله تعالى) بكل واحدة من العبادة والاستعانة[4].

ثالثاً: ولأنه لو لم يكرر لصح أن يعتقد أن الاستعانة تكون بغير الله عز وجل[5].

رابعاً: وللتنصيص على طلب العون منه بخلاف ما لو جاءت هكذا: (إياك نعبد ونستعين)؛ فإنه يحتمل أن يكون إخباراً بطلب العون أي: وليطلب العون، من غير أن يعيّن ممن يطلب[6].

خامساً: ولأنه ربما توهم أنه لا يتقرب إلى الله - تعالى - إلا بالجمع بينهما، والواقع خلافه[7].

سادساً: وليكون في التكرار تعليماً للعباد بأن يجددوا ذكر الله - تعالى - عند كل حاجة[8].

سابعاً: وليكون في التكرار إبراز الاستلذاذ بمناجاة الله وخطابه[9].

ثامناً: وليشعر أن حيثية تعلق العبادة به - تعالى - غير حيثية تعلق الاستعانة منه، ولو قال: (إياك نعبد ونستعين) لتوهم أن الحيثية واحدة،

---

(١) التفسير الكبير (١/٢٤٧).

(٢) البرهان في توجيه متشابه القرآن، للكرماني، ص ٢٠.

(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص ٢٠، وفتح الرحمن، لزكريا الأنصاري، ص ١٠.

(٤) أبو السعود (١/٢٧).

(٥) مقدمة جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني.

(٦) البحر المحيط (١/٢٥).

(٧، ٨) روح المعاني، للآلوسي (١/٩٠).

(٩) أبو السعود (١/٢٧).

والشأن ليس كذلك؛ إذ لا بد في طلب الإعانة من توسط صفة، ولا كذلك في العبادة؛ فلاختلاف التعلق أعاد المفعول ليسير بها إليه(١).

تاسعاً: ولأن بين الحصرين فرقاً فالحصر في: ﴿إياك نعبد﴾ حقيقي كما تقدم والحصر في: ﴿إياك نستعين﴾ ادعائي؛ فإن المسلم قد يستعين بغير الله، ولكنه لا يستعين في عظم الأمور إلا بالله، ولا يعد الاستعانة حقيقية إلا الاستعانة بالله.

ومن المفسرين من جعل التكرار للتوكيد كما تقول: (بين زيد وبين عمر خصومة) فتعيد (بين)، وقد رجح هذا الواحدي في بسيطه(٢).

وردَّ عليه الآلوسي بأن التكرار إنما يكون توكيداً إذا لم يكن معمولاً لفعل ثان، و (إياك) الثاني في الآية معمول لنستعين، مفعول له؛ فكيف يكون تأكيداً؟(٣).

المسألة الثالثة: سر الإتيان بنون الجمع في الفعلين:

ولسائل أن يقول: إن المتكلم بالآية واحد؛ فما معنى الإتيان بالنون المفيدة للجمع أو التعظيم في هذا المقام؟

ونقول: قد اختلفت مشارب العلماء في الإجابة على هذا التساؤل وكل منهم بنى على ما رآه فوائد استنبطها من مدلول الآية حسب ما يراه.

فيرى جمع أن النون للجماعة؛ فهي بذلك على حقيقتها؛ فكأن المصلي أخبر عن نفسه وعن جنس العباد وهو واحد منهم لا سيما إن كان في جماعة أو كان إماماً لهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه بالعبادة التي خلقوا لأجلها(٤).

قالوا: ففيه التنبيه على أن هذه الصلاة إنما بنيت على الاجتماع؛ فينبغي ألا تفعل إلا جماعة(٥).

وفيه أيضاً إغاظة للمشركين بإعلامهم أن المسلمين صاروا في عز ومنعة(٦) وقالوا فيه أيضاً: بالغ الثناء على الله لئلا تخلو مناجاتهم لربهم عن ثناء له بأنه قد شهد له الجماعات بأنهم عبيده وطلبوا منه العون، فكأن الحامد لما انتقل من الحمد إلى المناجاة لم يغادر فرصة يقتنص فيها الثناء إلا انتهزها(٧).

وفيه أيضاً إيذان بقصور نفسه، وعدم لياقته للوقوف في مواقف الكبرياء منفرداً، وعرض العبادة، واستدعاء المعونة والهداية مستقلاً، وأن ذلك، إنما يتصور من عصابة هو من جملتهم، وجماعة هو من زمرتهم(٨)؛ فلسان حال العبد يقول: إلهي ما بلغت عبادتي إلى حيث أستحق أن أذكرها وحدها؛ لأنها ممزوجة بجهات التقصير وأنواع التفريط؛ غير أني أخلطها بعبادات جميع العابدين، وأذكر الكل بعبارة واحدة(٩).

ثم إنه لو قال: (إياك أعبد) لكان ذلك بمعنى أنا العابد؛ لكنه عندما يقول: (إياك نعبد) كان المعنى: إني واحد من عبيدك؛ وفرق بين الأمرين، كما يرشد إليه قوله ـ تعالى ـ حكاية عن الذبيح: ﴿**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [**الصافات**: ١٠٢]، وقوله ـ سبحانه ـ حكاية عن موسى ـ عليه السلام ـ:

(١) التحرير والتنوير (١/١٨٦).

(٢) البسيط (١/٣٢٥).

(٣) روح المعاني، للآلوسي (١/٩٠).

(٤، ٥) تفسير ابن كثير (١/٤٧ ـ ٤٨)، نظم الدرر (١/٣٧)، التفسير الكبير (١/٢٤٧)، روح المعاني (١/٨٨).

(٦، ٧) التحرير والتنوير (١/١٨٦).

(٨) تفسير أبي السعود (١/٢٨).

(٩) التفسير الكبير (١/٢٤٧).

﴿ستجدني إن شاء الله صابراً﴾ [الكهف: ٦٩] فصبر الذبيح لتواضعه بعدِّ نفسه واحداً من الصابرين، ولم يصبر كليم الرحمن لإفراده نفسه مع أن كلاً منهما قد قال: (إن شاء الله)[١].

ومع ذلك فهو يذكر نفسه مع إخوانه لينأى عن ساحة الكبر والاعتداد بالنفس؛ فإنه لو قال: (إياك أعبد، أو إياك عبدت) لكان معظماً لنفسه قد ولج باب الكبرياء، وتدنس بالعجب؛ فإن هذا بمعنى: (أنا العابد) فكأنه وحيد الميدان هو الأهل لهذا الشأن دون غيره، لكنه بقوله: (إياك نعبد) يكون متجلبباً ببُرْد التواضع ولسان حاله يقول: (لست أهلاً لأن أتقدم إلى جنابك العظيم وحدي؛ بل أضم نفسي إلى سائر عبيدك لأكون داخلاً في ضمنهم؛ فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم) فعسى أن أكون مقبول العبادة مجاب الدعوة[٢].

ثم إنه إذا قال: (إياك نعبد) كأنه قد صار ساعياً في إصلاح نفسه وإصلاح مهمات إخوانه المؤمنين، وإذا فعل ذلك قضى الله مهماته[٣] وفيه أيضاً احتراز من الكذب؛ فإن العبد لا يزال يذل لغير الله ويستعين به؛ فكيف يقول: (إياك أعبد وإياك أستعين)؟[٤].

ومن العلماء من يرى بأن النون للتعظيم؛ ووجه ذلك عندهم: أن العبد لما اشتغل قلبه وقالبه بعبادة الله يقال له: قد عظم قدرك عند ربك؛ فقال على سبيل التعظيم: (إياك نعبد) ليظهر للكل أن كل من كان عبداً لله كان ملكاً في الدنيا والآخرة.

أما إن كنت خارج الصلاة فلا تقل: (نحن) ولو كنت في ألف ألف من العبيد.

ومن العلماء من يرى بأن النون للتواضع؛ وقد مضى شرح كونها للتواضع؛ وحيث إن النتيجة واحدة فقد ذُكِرت مع قول من يرى بأنها لحقيقة الجمع، والله أعلم.

المسألة الرابعة: سر تقديم العبادة على الاستعانة:

وثَمَّ مسألة نفسية جالت فيها أفهام المفسرين، وتنوعت في تأويلها أقوالهم، وهي برهان ساطع على اتساع اللفظ القرآني للمعاني الكثيرة بلا تعارض بينها، بل يصدق بعضها بعضاً، ألا وهي تقديم العبادة على الاستعانة، أو تقديم (إياك نعبد) على (إياك نستعين).

وللعلماء في ذلك مسلكان، إليك بيانهما، والله المستعان:

المسلك الأول:

وهو أن التقديم لم يكن لشيء من الحِكَم المقتضية له، بل لما كان في الآية تلازم وارتباط شديد استوى تقديم إحداهما أو تأخيره. وفي هذا يقول الطبري ـ رحمه الله ـ: «لما كان معلوماً أن العبادة لا سبيل إليها إلا بمعونة من الله جل ثناؤه، وكان محالاً أن يكون العبد عبداً إلا وهو معان، وأن يكون معاناً عليها إلا وهو لها فاعل ـ كان سواءاً تقديم ما قدم منها على صاحبه، كما سواءاً قولك للرجل إذا قضى حاجتك: (أحسنت إليَّ فقضيت حاجتي) فقدمت ذكر الإحسان على ذكر قضاء الحاجة؛ لأنه لا يكون قاضياً حاجتك إلا وهو إليك

(١) روح المعاني، للآلوسي (١/٨٨).

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/٤٧ ـ ٤٨)، وفتح القدير (١/٢٢)، والتفسير الكبير، للرازي (١/٢٤٧).

(٣) التفسير الكبير (١/٢٤٧).

(٤) روح المعاني، للآلوسي (١/٨٨).



محسن، ولا محسناً إليك إلا وهو لحاجتك قاضٍ؛ فكذلك سواء قول القائل: (اللهم إنا إياك نعبد فأعنّا على عبادتك)، وقوله: (الله أعنا على عبادتك فإنا إياك نعبد)»[1].

ولذا فإن بعض من يرى هذا الرأي يستدل له بأن الواو لا تقتضي الترتيب[2] بل لمطلق الجمع عند النحاة.

المسلك الثاني:

وهو أن التقديم كان لحكمة اقتضت ذلك، وقد أسهب العلماء ـ رحمهم الله ـ في ذلك أيّما إسهاب، وجالوا في فنون القول حتى أطربوا وأغربوا وأروا غيرهم اللطائف البيانية تنساب من الآية كأنما الآية خزينة ملئت حكماً، وسأذكر ما وقفت عليه من ذلك، فالله المستعان، ومنه التوفيق، وعليه التكلان:

الوجه الأول:

أن تقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص[3].

الوجه الثاني:

ولأن ﴿ إياك نعبد ﴾ متعلق بألوهيته، واسمه: (الله)، و ﴿ إياك نستعين ﴾ متعلق بربوبيته، واسمه: (الرب) فقدم (إياك نعبد) على (إياك نستعين) كما تقدم اسم الله على اسم الرب في أول السورة[4].

الوجه الثالث:

ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس؛ فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته؛ فكانت العبادة أتم وأكمل[5].

الوجه الرابع:

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص وغيره؛ فتقدم ما كان الإخلاص أساسه[6].

الوجه الخامس:

ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته، وتقديم مطلوبه أوْلى من تقديم مطلوب العبد[7].

الوجه السادس:

ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم[8].

الوجه السابع:

ولأن ﴿ إياك نعبد ﴾ له، و ﴿ إياك نستعين ﴾ به، وما له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمشيئته؛ فإن الكون متعلق

---

(١) تفسير ابن جرير (١/١٦٣).

(٢) مسائل الرازي وأجوبتها، ص ٢، فتح الرحمن، ص ١٠، مقدمة جامع التفاسير، للراغب الأصفهاني، ص ١٢٩، وانظر: البسيط، للواحدي ـ رسالة دكتوراه (١/٣٢٦) بتحقيق محمد الفوزان.

(٣) تفسير ابن سعدي (١/٣٥).

(٤، ٥، ٦، ٧) مدارج السالكين، التفسير القيم، ص (٦٧).

(٨) التفسير القيم ص (٦٧).

بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته طاعتهم وإيمانهم؛ فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته(١).

الوجه الثامن:

ولأن ﴿إياك نعبد﴾ قِسْم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله لكونه أولى به و ﴿إياك نستعين﴾ قِسْم العبد فكان مع قسمه(٢).

الوجه التاسع:

ولكون الأولى وسيلة للثانية فإن العبد يقر ويعترف بعبوديته لله، ويجعل هذا الإقرار والاعتراف وسيلة لحصول الثاني؛ فتقديم الوسائل سبب لحصول المطالب(٣).

الوجه العاشر:

أن قوله: ﴿إياك نعبد﴾ يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى، وذلك يورث العجب، فأردف بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ ليدل ذلك على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد، بل إنما حصلت بإعانة الله؛ فالمقصود من ذكر قوله: (وإياك نستعين) إزالة العجب وإفناء تلك النخوة والكبر(٤).

الوجه الحادي عشر:

أن في تأخير فعل الاستعانة توافق رؤوس الآي مما يضفي جمالاً على النظم القرآني(٥).

الوجه الثاني عشر:

ولأن الاستعانة مركبة على كونه معبوداً للمستعين منه (٦).

الوجه الثالث عشر:

أن العبادة هي المقصود الأعظم من العبد، والاستعانة وسيلة إليها؛ والحزم تقديم ما هو الأهم.

الوجه الرابع عشر:

أن المصلي إذا دخل في الصلاة فكأنه يقول: شرعت في العبادة، فأستعين بك على إتمامها؛ فلا تمنعني من إتمامها بالموت والمرض وقلبِ الدواعي وغيرها(٧).

الوجه الخامس عشر:

ولأن العبادة فرض لازم على العبد؛ بينما الاستعانة تابعة للمستعان فيه في الوجوب وعدمه(٨).

الوجه السادس عشر:

أن طلب العبد الاستعانة لا بد أن يكون مسبوقاً بملاحظة فعل من أفعاله وهو العبادة ليستعينه ـ تعالى ـ في إيقاعه(٩). قلت: وهذا وجه لمن قال بأن الاستعانة مقيدة بالعون على العبادة، وليست مطلقة؛ والصحيح الذي سنذكره فيما بعد خلافه وهو إطلاق الاستعانة وإن كان أعظم مقاصدها العون على العبادة.

(١، ٢) التفسير القيم ص (٦٧).

(٣) فتح القدير، للشوكاني (١/٢٣) مقدمة جامع التفاسير (١٢٩)، البحر المحيط (١/٢٥).

(٤) التفسير الكبير، للرازي (١/٢٥٣).

(٥) روح المعاني، للآلوسي (١/٨٨)، والتحرير والتنوير (١/١٨٦).

(٦) التحرير والتنوير (١/١٨٦).

(٧) التفسير الكبير، للرازي (١/٢٥٣ ـ ٢٥٤).

(٨) تفسير أبي السعود (١/٢٧).

(٩) تفسير أبي السعود (١/٢٨)، وانظر التحرير والتنوير (١/١٨٧).

الوجه السابع عشر:

أن مقام السالكين ينتهي عند قوله: (إياك نعبد)، وما بعده يطلب به العبد من ربه التمكين؛ فالأول كله حمد وثناء وتمجيد ثم إفراد للعبادة لله؛ فناسب أن يكون الباقي بعد ذلك سؤالاً وطلباً[1].

المسألة الخامسة: سر الالتفات في الآية وفائدته:

ومن القضايا التي لفتت أنظار المفسرين والبلاغيين في الآية الكريمة قضية الالتفات، وهي من روائع ما في كلام العرب. وقبل ذكر الالتفات في الآية وذكر فائدته نذكر مقدمة يسيرة بين يدي الموضوع في تعريف الالتفات وأضْرُبِه ليتسنّى لنا فهمه جلياً.

قال علماءُ البلاغة: «والالتفات من أجلِّ علوم البلاغة، وهو أمير جنودها والواسطة في قلائدها وعقودها، وسمي بذلك أخذاً من التفات الإنسان يميناً وشمالاً، فتارة يُقبِل بوجهه، وتارة كذا، وتارة كذا، وهكذا حال هذا النوع من علم المعاني»[2]، وأبو الفتح ابن جني يسمي الالتفات: («شجاعة العربية» كأنه عنى أنه دليل على حدة ذهن البليغ وتمكنه من تصريف أساليب كلامه كيف شاء كما يتصرف الشجاع في مجال الوغى بالكر والفر)[3].

ومعناه في مصطلح علماء البلاغة: العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول[4].

وحكمته هي ـ كما قال الزمخشري ـ أنه إنما يكون إيقاظاً للسامع من الغفلة وتطريباً له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر؛ فإن السامعَ ربما ملّ من أسلوب فينقله إلى أسلوب آخر، تنشيطاً له في الاستماع، واستمالة له في الإصغاء إلى ما يقول له، وقد يكون له غير ما ذكره الزمخشري من الحكم التي يقتضيها سياق الكلام[5].

وأما أضربه: فهي ثلاثة:

الضرب الأول:

ما يرجع إلى الغيبة والخطاب والتكلم، ومنه ما في سورة الفاتحة؛ حيث رجع من الغيبة في قوله: ﴿الحمد لله﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿إياك﴾ ثم رجع إلى الغيبة في قوله: ﴿غير المغضوب عليهم﴾.

الضرب الثاني:

مختص بالأفعال وهو الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، أو عن الماضي إلى الأمر؛ وفي هذا رجوع من الإخبار إلى الإنشاء.

مثال للأول: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤].

ومثال الثاني: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

الضرب الثالث:

مختص بالأفعال، وهو الرجوع من الماضي إلى المضارع أو العكس.

مثال للأول: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ [فاطر: ٩] فقال: ﴿أَرْسَلَ﴾ ثم

---

(١) انظر روح المعاني (١/٨٨).

(٢) الطراز المتضمن أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي اليماني ٢/١٢١. وانظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير (٢/١٨١).

(٣) التحرير والتنوير (١/١٨٠)، وانظر البرهان، للزركشي (٣/٣١٤).

(٤، ٥) الطراز المتضمن أسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي اليماني ٢/١٣١. وانظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين ابن الأثير (٢/١٨١).

قال: ﴿ فتثير ﴾ ثم رجع إلى الماضي ﴿ فسقناه ﴾[1].

ومثال الثاني: ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض ﴾ [النمل: ٨٧].

ونعود بعد هذه التقدمة إلى ما استأثر به هذا المقام الجليل في الآية من النكت الرائعة الدالة على تخصيص العبادة والاستعانة به تعالى، ولو جرى الكلام على أصله لقال: (إياه نعبد) فعدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب لنكتة (الالتفات). قال أبو حيان: (ونظير هذا أن تذكر شخصاً متصفاً بأوصاف جليلة مخبراً عنها إخبار الغائب ويكون ذلك الشخص حاضراً معك، فتقول له: إياك أقصد، فيكون في هذا الخطاب من التلطف على بلوغ المقصود ما لا يكون في لفظ (إياه)[2].

هذا وقد صارت حكمة الالتفات معترك ألباب أولي التفسير فاختلفت وجهات نظرهم في توجيهه، وليس بين كثير منها تعارض، بل يصح أن يكون بعضها مع أخريات منها مراداً؛ وها أنا أسوق ما ذكروه، وأنقل إليك ما كتبوه:

الأول: أن العبد لما ذكر لله نعوت الجلال وصفات الكمال التي أوجبت له - تعالى - أكمل تميز، وأتم ظهور؛ بحيث تبدل جفاء الغيبة بجلاء الحضور، فاستدعى ذلك استعمال صيغة الخطاب والإيذان بأن حق التالي بعدما تأمل فيما سلف من تفرده - تعالى - وكماله وجلاله أن ينتقل من عالم الغيبة إلى عالم الشهود حتى كأنه واقف لدى مولاه ماثل بين يديه وهو يدعو بالخضوع والإخبات، ويقرع بالضراعة باب المناجاة بـ (إياك نعبد وإياك نستعين)[3].

الثاني: أن المصلي كان أجنبياً عند الشروع في الصلاة؛ فلما أثنى على الله بأنواع المحامد كان الله قال له: حمدتني وأثنيت عليّ ومجدتني، فنِعْمَ العبد أنت قد رفعنا الحجاب فتكلمْ بالخطاب![4].

الثالث: أنه من أول السورة إلى هذه الآيات ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن الآية إلى النهاية دعاء، والدعاء في الحضور أولى، وأحسن السؤال ما وقع على سبيل المشافهة، ألا ترى أن الأنبياء - عليهم السلام - لما سألوا ربهم شافهوه بالسؤال[5]؟

الرابع: أن الحمد لما كان لا يتفاوت غيبة وحضوراً، بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتم، وكانت العبادة إنما يستحقها الحاضر الذي لا يغيب كما حكى الله - سبحانه - عن إبراهيم: ﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ [الأنعام: ٧٦] لا جرم، عبَّر عن الحق بطريق الغيبة، وعنها بطريق الخطاب، إعطاءً لكل منهما ما يليق به من النسق المستطاب[6].

الخامس: أنه لما لم يكن في الحمد مزيد كلفة بخلاف العبادة فإن خطبها عظيم، ومن دأب المحب تحمُّل المشاق العظيمة في حضور المحبوب، قرن - سبحانه - العبادة بما يشعر بحضوره ليأتي بها العابد خالية من الكلال، عارية عن الفتور والملال، مقرونة بكمال النشاط لتمام الانبساط.

بهذا - أخي القارئ - نأتي على نهاية ما تيسر لنا جمعه وعرضه من اللطائف البلاغية، والنكات اللغوية في هذه الآية القرآنية سائلين المولى - جل وعلا - أن ينفعنا به جميعاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

---

(١) انظر الطراز (٢/١٣٣) وما بعدها، والمثل السائر (٢/١٨١) وما بعدها. (٢) البحر المحيط (١/٢٤).

(٣) انظر تفسير أبي السعود (١/٢٥ - ٢٦)، وانظر البحر المحيط (١/٢٤).

(٤، ٥) التفسير الكبير، للرازي (١/٢٥٢) بتصرف.

(٦) روح المعاني (١/٨٩).



أحكام اللقطة

رأفت الحامد

أولاً: تعريف اللقطة:

اللقطة في اللغة: من اللقط، واللَّقْط ـ بسكون القاف ـ أخذ الشيء، ومنه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص: ٨].

شرعاً: مال محترم، غير محرز، لا يعرف الواجد مستحقه.

توضيح التعريف: «مال محترم»: هو المال المعصوم الذي لا يجوز لأحد التصرف فيه بغير إذن صاحبه[١].

- ويخرج بقيد «غير محرز» الأموال المحفوظة في مواضع مصونة.

- ويخرج بقيد «لا يعرف الواجد مستحقه» ما عُرف مستحقه، وما ليس له مستحق من الأموال العامة المباحة التي هي لآخذها.

ثانياً: أركان اللقطة؛ وهي ثلاثة:

١ - اللقط. ٢ - الملتقط. ٣ - الملقوط[٢]

الركن الأول: اللقط:

وهو وضع اليد على الملقوط، وفيه معنى الأمانة والولاية ابتداءاً، ومعنى الاكتساب والتملك انتهاءاً.

حكم اللقط:

مذهب الحنفية والشافعية هو استحباب اللقط، وعند المالكية[٣] والحنابلة هو كراهة اللقط. وقد يكون اللقط دائراً على الأحكام التكليفية الخمسة[٤]:

١ - **اللقط الواجب:** إذا خيف على المال الضائع التلف، وتعين اللقط طريقاً لحفظها.

---

(١) سبل السلام (٣/١٢٠). (٢) السلسبيل (٢/ ٥٩٧).
(٣) الاستذكار (٢٢/٣٢٦). (٤) المجموع (٦/١٣٧).

٢ - اللقط المندوب: عند عدم خوف التلف عليها، ووثوق الملتقط بنفسه وقدرته على التعريف.

٣ - اللقط المحرم: عندما يأخذ الملتقط المال الضائع لا لحفظه ورده إلى صاحبه بل لتملكه.

٤ - اللقط المكروه: وذلك في حق من يشك في أمانة نفسه.

٥ - اللقط المباح: إذا استوى الترك واللقط.

قال الحافظ ابن حجر: «ومن ثم كان الأرجح من مذاهب العلماء أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال؛ فمتى رجّح أخذها فوجب أو استحب، ومتى رجّح تركها حرم أو كره وإلا فهو جائز»[(١)].

الإشهاد على الالتقاط:

يجب الإشهاد على الالتقاط؛ بأن يُشْهِدَ الملتقطُ عليه رجلاً عدلاً واحداً فأكثر لحديث عياض بن حمار مرفوعاً: «من وجد لقطة فليُشهِدْ ذا عدل - في لفظ (ذوي عدل) - لا يكتم ولا يُغيِّب، فإن وجد صاحبها فليردها عليه؛ وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء»[(٢)].

والوجوب مذهب الظاهرية[(٣)] وقول عند الشافعي، وإليه ذهب الشوكاني[(٤)] والصنعاني[(٥)]، وذهب الحنابلة[(٦)] والمالكية - وقول عن الشافعي[(٧)] - إلى استحباب الإشهاد احتياطاً.

وسبب الوجوب: أنه يمتنع به من الخيانة، وأنه قد يموت فجأة فتصير اللقطة من تركته فتفوت على مالكها.

كيفية الإشهاد: فيه طريقتان:

الأولى: يُشهِد أنه وجد لقطة ولا يُعلِم بالعِفاص ولا غيره لئلا يتوصل بذلك الكاذب إلى أخذها.

الثانية: يُشهد على صفاتها كلها حتى إذا مات لم يتصرف فيها الوارث.

وأشار بعض الشافعية إلى التوسط بين الوجهين، فقالوا: لا يستوعب الصفات ولكن يذكر بعضها. قال النووي: «وهو الأصح»[(٨)].

- ما تقدم في حكم الالتقاط والإشهاد إنما في غير التقاط الحيوان من الجمادات وما يشبهها.

التقاط الحيوان:

ذهب جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة إلى القول بعدم التقاط الحيوان للنهي الوارد في حديث زيد بن خالد، وحمل بعضهم النهي على من التقطها ليتملكها لا ليحفظها فيجوز له، وهو قول للشافعية[(٩)]، وأما الحنفية فقد جعلوا الحيوان كغيره في حكم الالتقاط.

والصحيح أنه لا يجوز لقط الإبل لما ورد مرفوعاً من حديث زيد بن الحارث: «ما لك ولها؟! معها حذاؤها وسقاؤها: ترد الماء، وتأكل الشجر حتى

---

(١) فتح الباري (٥/١١١).

(٢) المسند (٤/٢٦٦)، سنن أبي داود (٢/٣٣٥) برقم ١٧٠٩، سنن ابن ماجه، (٢/٨٣٧) برقم ٢٥٠٥، موارد الظمآن، ص ٢٨٤ رقم ١١٦٩، وهو صحيح.

(٣) المحلى (٥/٢٥٧).

(٤) نيل الأوطار (٥/٣٣٩).

(٥) سبل السلام (٣/١١٩).

(٦) المغني (٦/٣٦٢).

(٧) روضة الطالبين (٤/٤٧١).

(٨) نيل الأوطار (٥/٣٣٩).

(٩) الفتح (٥/٩٦).

يجدها ربها»[1]، وهو كما سبق؛ فإن الجمهور قاسوا على الإبل كل حيوان يقوى على الامتناع من صغار السباع[2]، ويقوى على ورود الماء، وذهبوا إلى جواز التقاط الإبل من قِبَل الإمام أو نائبه عند الضرورة كحالة الخوف عليها من الهلاك، أو النهب في أوقات اضطراب الأمن، وإن كان الملتقط من العامة لزمه تسليمها للإمام.

أما ضالة الغنم فيجوز التقاطها لما ورد في حديث زيد بن خالد صريحاً: «خذها؛ فإنما هي لك، أو لأخيك، أو للذئب»[3]، وقاس عليها الجمهور ما يشبهها في الضعف واحتمال الضياع[4].

التقاط لقطة الحاج:

جاء في الشرع ما يدل على النهي عن لقطة الحاج، أي التقاط ما ضاع من الحاج أو ما ضاع في مكة المكرمة لحديث أبي هريرة مرفوعاً: «... ولا يلتقط ساقطتها - أي مكة - إلا منشد»[5]. ولحديث عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ: «نهى عن لقطة الحاج»[6][7]، وحمل الفقهاء هذا النهي عن التقاطها للتملك لا للتعريف كما هو نص الحديث، وهذا مذهب الظاهرية[8]، ورواية عن الشافعي[9]، ورواية عن أحمد[10] واختارها الشوكاني[11]. وذهب الحنفية[12]، والشافعي في أحد قوليه، وأحمد في رواية عنه[13] إلى أنه لا فرق بين لقطة الحرم وغيره.

والصحيح أن هذا الحكم من خصوصيات بلد الله الحرام.

الركن الثاني: «الملتقط»:

وهو من له أهلية الاكتساب أو الاحتفاظ. قال النووي في صفته: «أن يكون حراً، مسلماً، مكلفاً، أميناً»[14]، ومن أهل العلم من أجاز التقاط الذمي؛ لأنه من أهل الاكتساب، فهو كالمسلم[15].

وكذلك الصغير والمجنون والسفيه، فإذا التقط واحد منهم مالاً ضائعاً ثبتت يده عليه؛ لأنه اكتساب فيصح منه، كالاصطياد والاحتطاب، ولكن يختلف ناقص الأهلية كالمجنون والصغير في أن وليه ينزع اللقطة منه ويتولى حفظها وتعريفها، هذا عند الشافعية[16] والحنابلة[17]، فأما الحنفية فيصح عندهم التقاط الصبي ولا يصح التقاط المجنون[18].

---

(1) البخاري برقم ٢٤٢٧ (٥/٩٦ الفتح)، ومسلم برقم ١٧٢٢ (١٢/٢٠ - ٢٧).
(2) الفتح (٥/٩٧)، نيل الأوطار (٥/٣٤٥).
(3) البخاري (٢٤٢٧)، مسلم (١٧٢٢).
(4) المغني (٦/٣٩٠).
(5) البخاري برقم ٢٤٣٤، (٥/١٠٤) الفتح، مسلم برقم: ١٧٢٤، (٩/١٢٦) النووي.
(6) رواه مسلم، ح/ ١٧٢٤.
(7) أبو داود كتاب اللقطة، باب التعريف باللقطة رقم (١٧١٩).
(8) المحلى (٥/٢٥٨).
(9) المجموع (١٦/١٣٤).
(10) المغني (٦/٣٦٠).
(11) نيل الأوطار (٥/٣٤٤).
(12) حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٧).
(13) المغني (٦/٣٦٠).
(14) المجموع (١٦/١٣٤).
(15) المغني (٦/٣٨٩)، وفي المجموع (١٦/١٧٦)، ذكر روايتين، أصحهما أنه يمكّن منه.
(16) المجموع (١٦/١٧٣).
(17) المغني (٦/٣٨٦).
(18) حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٥).

تعدد الملتقط:

١ - لو التقط اثنان مالاً ضائعاً، ثم ترك أحدهما حقه منه للآخر لم يسقط حقه[١].

٢ - لو أقام كلاهما البينة على أنه هو الملتقط وحده ولا تاريخ في البينتين، تبقى اللقطة لمن هي بيده؛ لأنه صاحب اليد عليها.

٣ - لو أمر إنسان آخر بالتقاط شيءٍ رآه فالتقطه فهو للآمر إن قصد ذلك الملتقط، وإن قصد أنها له وللآمر فلهما[٢].

٤ - إن رآياها معاً فبادر أحدهما فأخذها، أو رآها أحدهما فأعلم بها صاحبه فأخذها فهي لآخذها؛ لأن استحقاق اللقطة بالأخذ لا بالرؤية كالاصطياد[٣].

الركن الثالث: «الملقوط»:

وهو المال المحترم شرعاً الذي لا يعرف الملتقط مالكه، وهو إما حيوان ويسمى «ضالة» أو غير حيوان ويسمى «لقطة»، أما المال المباح فلا يصير لقطة؛ لأنه ليس له مالك.

ذكر ما يشتبه في كونه لقطة أو مملوكاً لا يعرف مالكه:

١ - إذا أخذ ثياب غيره أو متاعه أو حذاءه قصداً أو سهواً وترك غيره؛ فهل يعتبر المتروك لقطة عند المأخوذة ثيابه أم لا؟ الجواب: إن لم يتعمد الأخذ فالمتروك لقطة، وإن تعمد الأخذ جاز للمأخوذة ثيابه بيع المتروك، واستيفاء حقه منه، ومن أهم علامات تعمد الآخذ أن يكون المأخوذ أفضل من المتروك. ولو كان المتروك خيراً من المأخوذ أو مثله دل ذلك على السهو والغفلة؛ فهو بمنزلة الضائع تجري عليه أحكام اللقطة[٤].

٢ - ومن ترك مختاراً دابة بمهلكة فأخذها إنسان فأطعمها وسقاها وخلصها من الهلاك فهي له؛ لأنها كالمال المباح؛ لِمَا أخرجه أبو داود بسند حسن عن رجال من أصحاب النبي ﷺ مرفوعاً: «من وجد دابة قد عجز عنها أهلها أن يعلفوها، فسيبوها فأخذها فأحياها فهي له»[٥]. وهذا مذهب الحنابلة[٦]، وقال مالك والشافعي وابن المنذر: هي لمالكها، والآخر متبرع[٧].

فإذا تحققت الأركان الثلاثة السابقة فعليه:

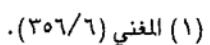
أولاً: معرفة اللقطة:

أمر النبي ﷺ في حديث زيد بن خالد بمعرفة اللقطة، فقال: «اعرف عِفاصها ووكاءها».

والوكاء: هو الخيط الذي يربط به، والعِفاص: هو الوعاء الذي تكون فيه النفقة[٨].

والغرض معرفة الآلات التي تحفظ النفقة[٩].

يلحق بذلك كل ما يلزم لمعرفة اللقطة ويبين أوصافها مثل جنسها ونوعها وقدرها وما تتميز به، وكل هذا لمعرفة صدق أوصافها إذا ادُّعي ملكيتها[١٠]، وقال الحافظ: «اختلف في هذه المعرفة



(١) المغني (٦/٣٥٦).
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المغني (٦/٣٧٣)، السلسبيل في معرفة الدليل (٢/٦٠١).
(٥) صحيح الجامع رقم (٦٥٨٤).
(٦) المغني (٦/٤٠٠).
(٧) المغني (٦/٤٠٠).
(٨) المصدر السابق.
(٩) الفتح (١/٢٢٥، ٥/ ٩٨)، وشرح مسلم (١٢/٢١ نووي)، وإحكام الأحكام (٢/١٥٩).
(١٠) الفتح (٥/٩٨).

على قولين للعلماء أظهرهما الوجوب لظاهر الأمر»[1].

وعند التعريف باللقطة يستحب بعض أهل العلم كتابة أوصافها خوف النسيان، هذا قول الإمام أحمد والنووي[2].

وجوب تعريف اللقطة:

معنى التعريف: إشاعة الخبر في الناس حتى يمكن وصول علمها إلى صاحبها.

صورة تعريف اللقطة: بأن يذكر للناس عينها ولا يبين أوصافها بل يذكرها بوصف عام، وأجاز الحنابلة [3] ذكر جنسها من ذهب أو فضة، وقال الشافعية: يفصل ذكر أوصافها، ويحرم استيعابها، والأوْلى الأخذ بالاحتياط، والإيغال في الإبهام.

ويؤخذ وجوب التعريف من قوله ﷺ: «عرفها سنة» وقد قال بهذا الجمهور[4].

وقد ورد في السنة ما يدل على تحريم أخذ اللقطة بنية التملك وعدم التعريف؛ فمن ذلكم ما رواه مسلم عن زيد بن خالد مرفوعاً: «من آوى ضالة فهو ضال ما لم يعرِّفها»[5]. وعن الجارود مرفوعاً: «ضالة المسلم حرق النار»[6].

ويستثنى من هذا الوجوب ما يلي:

١ - ما يعلم أن مالكه لا يطلبه، كقشر الرمان أو النوى، ونحو ذلك مما يرميه الناس، ولكنه إذا وجده في يد الملتقط فله أن يأخذه؛ لأن إلقاءه يفيد إباحة الانتفاع به من ملتقطه، ولا يفيد التمليك، وملك المبيح لا يزول بالإباحة، وإن كان للمباح له الانتفاع به[7]، وعند الحنابلة يملكه الملتقط؛ لأن صاحبه تخلى عنه.

٢ - اللقطة التافهة: إذا كانت مما يؤكل، ويتسارع إليها الفساد كالتمرة، ونحوها لحديث أنس أن النبي ﷺ مر بتمرة في الطريق فقال: «لولا أني أخاف أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها»[8]، فظاهر الحديث يدل على عدم اشتراط التعريف، وهذا مذهب الحنابلة والشافعية[9].

٣ - اللقطة اليسيرة: إذا لم تكن مما يؤكل، فهذه لا يجب تعريفها عند المالكية والحنابلة، وهو مما لا تتبعه همة أوساط الناس لما رواه أبو داود عن جابر قال: «رخص لنا رسول الله ﷺ في العصا، والسوط، والحبل، وأشباهه يلتقطه الرجل ينتفع به»[10]، ولكن يرد عليه ما رواه أحمد من حديث يعلى بن مرة مرفوعاً: «من التقط لقطة يسيرة حبلاً أو درهماً أو شبه ذلك فليعرِّفها ثلاثة أيام؛ فإن كان فوق ذلك فليعرفه ستة أيام»[11]، وزاد الطبراني: «فإن جاء صاحبها، وإلا فليتصدق بها». قال

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المغني (٦/٣٦٣)، وروضة الطالبين (٤/٤٥٢).

(٣) المغني (٦/٣٥٠).

(٤) المجموع (٦/١٤١)، وقد نقل الإجماع عليه، المغني (٦/٣٤٧)، الإحكام (٢/١٥٩)، سبل السلام (٣/١١٧)، نيل الأوطار (٥٠/٣٤٠)، شرح مسلم (١٢/٢٢).

(٥) مسلم برقم (١٧٢٥)، النووي (١٢/٢٨)، المسند برقم (١٦٦٠٧)، (٤/١١٦)، وضال: بمعنى مائل عن الحق.

(٦) سنن الترمذي (١٨٨٢)، المسند برقم (٢٠٢٣٠)، (٥/ ٨٠)، سنن الدارمي برقم (٢٦٠٢)، (٢/٦٦٥)، جامع الأصول (١٠/٧١٠).

(٧) حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٦).

(٨) البخاري برقم (٢٤٣١)، الفتح (٥/١٠٣)، ومسلم بشرح النووي (٨/١٧٧).

(٩) المغني (٦/٣٥١)، المجموع (١٦/١٤٦)، السبل (٣/١١٦).

(١٠) رواه أبو داود، ح/ ١٤٥٩.

(١١) رواه أحمد بسند ضعيف، المسند برقم (١٦٩٠٨)، ويحسنه بعضهم.

الشوكاني: «وفي إسناده عمر بن عبد الله بن يعلى، وقد صرح جماعة بضعفه؛ فإذا صح هذا الحديث حمل على الذي قبله؛ فيكون تعريف اللقطة اليسيرة ثلاثة أيام حملاً للمطلق على المقيد[١].

قال النووي: «أما الشيء الحقير فيجب تعريفه زمناً يظن أن فاقده لا يطلبه في العادة أكثر من ذلك الزمان»[٢].

٤ ـ إذا خشي الملتقط من الاستيلاء على لقطته ظلماً من قِبَل ذي سلطان جائر لم يجز له التعريف، وتكون أمانة عنده، وهذا قول عند الشافعية[٣].

مدة التعريف:

الأصل في مدة التعريف سنة كاملة، وهو ما دل عليه حديث خالد بن زيد في قوله ﷺ: «عرفها سنة» متفق عليه، وهذا محل إجماع، قال ابن قدامة: «لا نعلم فيه خلافاً»[٤].

ويستثنى من هذا الأصل ما يلي:

١ - إذا كانت اللقطة يسيرة فيعرفها ثلاثة أيام أو زمناً يظن بعده أن فاقدها لا يطلبها.

٢ - ما يخشى فساده إذا كان كثيراً أو يسيراً كالفاكهة والخضروات فإنه يعرِّفها مدة لا يخشى فيها عليه الفساد، وهذا قول الحنفية والحنابلة.

زمن التعريف:

يكون التعريف في الأوقات المناسبة ـ كالنهار مثلاً ـ ويتكرر بالقدر الذي يحصل به مقصود التعريف حتى يمكن وصول خبرها إلى صاحبها[٥].

قال ابن الهُمام: «واعلم أن الأمر بتعريفها سنة يقتضي تكرار التعريف عرفاً وعادة، وإن ظرفية السنة للتعريف يصدق بوقوعه مرة واحدة، ولكن يجب حمله على المعتاد من أنه يفعله وقتاً بعد وقت، ويكرر ذلك كلما وجد مظنة»[٦].

الفورية في التعريف:

الراجح في التعريف أنه واجب على الفور، ولا يجوز تأخيره عن زمن تطلب فيه اللقطة عادة، وهذا يختلف باختلاف مقدارها[٧].

مكان التعريف:

يجري التعريف في الأماكن التي يظن فيها بلوغ خبرها إلى صاحبها، وأَوْلى هذه الأماكن مكان التقاطها[٨]، ويعرف في:

- مجامع الناس كالأسواق، وأبواب المساجد[٩]، الصحف، الإعلانات الكبيرة المعلقة، الإذاعة.

---

(١) نيل الأوطار (٥/٣٣٧ ـ ٣٣٨) بتصرف.

(٢) شرح مسلم (١٢/٢٢)، حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٦).

(٣) نهاية المحتاج، للرملي (٥/٤٣٤)، وما بعدها. زيدان.

(٤) المغني (٦/٣٤٨)، وانظر: من هامش ٢ ـ ٦، فتح القدير (٦/١١٤).

(٥) المغني (٦/٣٤٩).

(٦) فتح القدير (٦/١١٥).

(٧) المغني (٦/٣٤٩)، نيل الأوطار (٥/٣٤٠).

(٨) نيل الأوطار (٥/٣٤٠).

(٩) الفتح (٥/٩٨)، شرح مسلم (١٢/٢٢)، المجموع (٦/١٤٥)، المغني (٦/٣٤٩)، حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٦).

من يتولى التعريف:

يتولى أمر التعريف الملتقط، أو نائبه[١]، ويشترط أن يكون عاقلاً، فلا يصح تعريف السفيه عند الشافعية إنما يجب على وليه[٢]، ولا يعتد بتعريف الفاسق؛ لأنه يخون، وكذلك لا يعتد بتعريف الصبي غير المميز، والمجنون، ويتولى ذلك وليهما، ويعتد بتعريف الصبي المميز[٣].

مؤنة التعريف:

يتحمل الملتقط مؤنة التعريف عند الحنفية والحنابلة[٤]، وعند المالكية يتحملها صاحب اللقطة[٥]، وعند الشافعية لا يتحملها الملتقط إن كان قصده حفظها لصاحبها، ويجعلها القاضي من بيت المال قرضاً أو يبيع قسماً منها لنفقة تعريفها. وإن كان التقطها لتعريفها ثم تملكها إن لم يظهر صاحبها فمؤنة التعريف تكون على الملتقط، وإذا كان الملتقط صبياً أو مجنوناً فيعرفها الولي، ولكنه لا يدفع مؤنة التعريف من مال الصبي والمجنون؛ إنما يرفع الأمر إلى القاضي ليبيع قسماً من اللقطة أو ليقترض على حساب مالك اللقطة، ومالَ صاحب «الإنصاف» الحنبلي إلى قول الشافعية[٦].

مسألة: إذا قام الملتقط بالتعريف؛ فيتصور أحد حالين:

- أن يأتي صاحبها ويطالب بها أثناء مدة التعريف، أو أن تنتهي مدة التعريف ولا يطالب بها أحد.

ففي الحالة الأولى: يجب دفع اللقطة إلى من يذكر أوصافها ولا يشترط إقامة البينة، ولا اليمين لوجوب الدفع لقوله؛ لظاهر الحديث. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فإن جاءك أحد يخبرك بعددها، ووعائها، ووكائها فادفعها إليه» رواه البخاري عن أبي بن كعب، ومسلم عن سلمة بن كهيل، واللفظ له[٧]، ولا يضمن الملتقط إذا ظهر مستحق للقطة، ولهذا المستحق الرجوع إلى الواصف الآخذ فقط، وهذا ظاهر مذهب الحنابلة والمالكية وأهل الظاهر، وهو الراجح، وعند الحنفية والشافعية لا بد من البينة[٨].

وأما الحالة الثانية: تدخل اللقطة في ملك الملتقط عند تمام مدة التعريف غنياً كان أو فقيراً، وتورث عنه؛ فإن جاء صاحب اللقطة ضمنها له إن كان حياً أو ضمنه له الورثة إن كان الملتقط ميتاً، وهذا مذهب الشافعية والحنابلة[٩]، واستدلوا بما

---

(١) نيل الأوطار (٥/٣٤٠).
(٢) المجموع (١٦/١٧٣).
(٣) المجموع (١٦/١٧٥)، المغني (٦/٣٥٠).
(٤) حاشية ابن عابدين (٦/٣٤٩)، السلسبيل (٢/٥٩٩).
(٥) المدونة (٤/٤٥٧).
(٦) السلسبيل (٢/٥٩٩).
(٧) شرح مسلم (١٢/٢٣)، نيل الأوطار (٥/٣٤٢)، سبل السلام (٣/١١٧)، السلسبيل (٢/٦٠١)، المدونة (٤/٤٥٦).
(٨) فتح القدير (٦/١٢١)، المجموع (١٦/١٥٤).
(٩) المجموع (١٦/١٥٠)، المغني (٦/٣٥٤).

رواه زيد بن خالد مرفوعاً: «فإن لم تعرف فاستنفقها»، وفي لفظ: «وإلا فهي كسبيل مالك»، وفي لفظ: «فشأنك بها»، وفي لفظ: «فاستمتع بها»، وفي لفظ: «فاخلطها بمالك»، والمعنى واحد. قال الحافظ: «الأمر للإباحة؛ فتكفي النية للتملك وهو الأرجح دليلاً»[1].

وذهبت المالكية إلى أن الملتقط إذا كان فقيراً فإن له أن يأكل، وإن كان غنياً فإنه يتصدق بها، ويجوز أكلها بعد الحوْل[2]، وذهبت الحنفية إلى أن الملتقط إذا كان فقيراً فإنه يملكها، وإن كان غنياً فإنه يتصدق بها ولا يأكلها[3]، قلت: الراجح قول الشافعية والحنابلة لقوة ما استدلوا به، والله أعلم، ونسبة العلم إليه أسلم.

ضمان اللقطة:

تعتبر اللقطة أمانة، أو مضمونة بيد ملتقطها حسب نيته.

١ - فإن كان قد التقطها بنية حفظها وردها لصاحبها فهي أمانة فلا يضمنها إلا بالتعدي والتقصير[4].

٢ - وإن كان قد التقطها بنية أخذها لنفسه وعدم ردها إلى صاحبها فهي مضمونة عنده؛ لأنها بحكم المغصوب، وهذا قول الجمهور[5]، وتعرف نية الملتقط عند أبي حنيفة وأبي يوسف بالتصديق والإشهاد[6].

فإذا هلكت اللقطة وجاء صاحبها، وصدق الملتقط بأنه أخذها للحفظ والرد فلا ضمان عليه لثبوت أمانته بهذا التصديق، وإن كذبه المالك وكان الملتقط قد أشهد على التقاطه فلا ضمان عليه لظهور أمانته بالإشهاد، وإن لم يكن قد أشهد فتثبت أمانته بيمينه؛ لأن القول قول الأمين مع اليمين، وهذا قول أبي يوسف، والمالكية، والشافعية، والحنابلة.

٣ - وإذا التقطها بنية الحفظ والرد ثم رد اللقطة إلى مكانها الذي أخذها منه؛ فلا ضمان عليه عند الحنفية[7] والمالكية، وعند الشافعية والحنابلة[8] يضمن؛ لأنها صارت أمانة في يده فلزمه حفظها[9]، ورُد عليهم بأنه قد يأخذها على ظن قدرته على حفظها فتبين له عجزه فردها، أو يكون أخذها ليعرف صفاتها ثم يرشد صاحبها إلى مكانها.

أحكام الضالة:

اعلم أخي الكريم أن وصف الضالة لا يقع إلا

---

(١) الفتح (٥/٩٩، ١٠١)، شرح مسلم (١٢/٢٣)، سبل السلام (٣/١١٨).

(٢) المدونة (٤/٤٥٥)، بداية المجتهد (٢/٢٢٩).

(٣) حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٨)، سبل السلام (٣/١١٨)، بداية المجتهد (٢/٢٩٢).

(٤) المغني (٦/٣٦٦)، شرح مسلم (١٢/٢٤)، نيل الأوطار (٥/٣٤٣).

(٥) المغني (٦/٣٦١)، فتح القدير (٦/١١٢).

(٦) فتح القدير (٦/١١٢).

(٧) حاشية ابن عابدين (٦/٤٣٥).

(٨) الإنصاف (٦/٤٢١)، الرملي (٥/٤٣٥)، حاشية الدسوقي (٣/١٢١) زيدان.

(٩) المجموع (١٦/١٥٨)، المغني (٦/٣٦٨).

على الحيوان، وما سواه يقال له لقطة[1]. وضالة الحيوان على نوعين:

النوع الأول: ضالة الإبل، وما يشبهها.

النوع الثاني: ضالة الغنم، وما يشبهها.

فأما النوع الأول: وهو ضالة الإبل، وما يشبهها فوصفها كما يلي:

١ - أن تصل بنفسها إلى المرعى والماء.

٢ - أن تمتنع على صغار السباع، إما: بقوة جسمها كالبقر والخيل، أو ببعد أثرها لسرعة عَدْوِها كالظباء والأرنب، أو بجناحها لسرعة طيرانها كالحمام، أو بنابها كالكلاب والفهود.

فهذا النوع لا يجوز التقاطه؛ لأنه يقوم بحفظ نفسه[2].

مسائل تتعلق بهذا النوع:

١ - سبق أنه لا يجوز لقط الإبل وما في معناها، وهذا قول الجمهور، وحكمة النهي عن التقاط الإبل: «أن بقاءها حيث فقدت أقرب إلى وجدان مالكها لها من تطلُّبه لها في رحال الناس»[3]، وقال بعضهم: «لاستغنائها عن الحافظ والمتفقد»[4].

٢ - لولي الأمر أو نائبه أخذ ضوال الإبل، وما يشبهها في الامتناع من صغار السباع، على وجه الحفظ لصاحبها، ولا يلزمه تعريفها[5].

٣ - على ولي الأمر أن يجعل لها حمى ترعى فيه حتى يأتي صاحبها، وإذا رأى أن المصلحة في بيعها وحفظ ثمنها لصاحبها جاز له ذلك[6].

٤ - ولو التقطها غير الإمام لم يجز له ذلك، ويكون ضامناً لها ولا يبرأ إلا بردها إلى صاحبها، وإذا ردها إلى مكانها لا يبرأ ولا يمتلكها بعد مضي سنة إذا لم يحضر مالكها[7].

٥ - وعلى مدعي ملكيتها إقامة البينة، ولا يكتفى منه بالوصف؛ لأنها كانت ظاهرة بين الناس.

وأما النوع الثاني: وهو ضالة الغنم وما يشبهها؛ فوصفها كما يلي:

١ - أن يعجز عن الوصول إلى الماء والمرعى.

٢ - ألاَّ يمتنع من صغار السباع فلا يدفع عن نفسه افتراس الأذى، كصغار الإبل وهي الفصلان، وصغار البقر وهي العجول، وصغار الخيل وهي الأفلاء، والدجاج والأوز[8].

مسائل تتعلق بهذا النوع:

١ - سبق أنه يجوز التقاط ضالة الغنم، وما في معناه، وحكمة أخذ ضالة الغنم: هي خوف الضياع

---

(١) الفتح (٥/٩٩)، شرح مسلم (١٢/٢١)، سبل السلام (٣/١١٧).

(٢) المغني (٦/٣٩٦، ٣٩٧)، المجموع (١٦/١٠٧).

(٣) الفتح (٥/٩٧).

(٤) إحكام الأحكام (٢/١٦٠).

(٥) المجموع (١٦/١٥٨)، المغني (٦/٣٩٨)، نيل الأوطار (٥/٣٤٥).

(٦) المغني (٦/٣٩٩).

(٧) المغني (٦/٣٩٨).

(٨) المجموع (١٦/١٥٩)، المغني (٦/٣٩٠).

عليها إن لم يلتقطها أحد، وفي ذلك إتلاف لماليتها على مالكها[١].

٢ - يخير ملتقط الغنم بين ثلاثة أمور:

أ - أكلها، وعليه قيمتها إذا ظهر صاحبها، وهذا قول المذاهب الأربعة[٢]، إلا أن الإمام مالكاً أجاز الأكل، ومنع القيمة على الملتقط، والصحيح الأول[٣].

ب - بيعها وحفظ ثمنها حتى يظهر صاحبها بعد معرفة أوصافها[٤].

ج - حفظها لصاحبها، والإنفاق عليها دون أن يتملكها، وتكون النفقة من قِبَل الملتقط على جهة التطوع عند الشافعية والحنابلة، وفي رواية أخرى عن مالك[٥].

٣ - وإذا تلفت ضالة الغنم فعلى الملتقط الضمان، وهذا قول الجمهور[٦]، وعند الشافعية لا ضمان على الملتقط؛ لأن يده يد أمانة[٧]، وعند الحنابلة التفصيل: فإن فرط فعليه الضمان، وإلا فلا[٨] وهو الأظهر.

٤ - يجب تعريف ضالة الغنم سنة كاملة عند الجمهور، وقال مالك: لا تعريف في ضالة الغنم[٩].

قال ابن قدامة: «ولنا أنها لقطة لها خطر؛ فوجب تعريفها كالمطعوم الكثير، وإنما ترك ذكر تعريفها؛ لأنه ذكرها بعد بيانه التعريف فيما سواها، فاستغنى بذلك عن ذكره فيها؛ ولا يلزم من جواز التصرف فيها في الحول سقوط التعريف كالمطعوم[١٠].

نماء الضالة:

ينقسم نماء الضالة إلى قسمين:

الأول: نماء متصل بالضالة كسمنها، وهذا يكون لمالكها إذا استردها.

الثاني: نماء منفصل عن الضالة كنسلها، وفي هذه الحالة ينظر إن حدث قبل التملك فهي للمالك، وإذا كان النماء بعد التملك فهو للملتقط؛ لأنه نماء حصل في ملكه فيكون له[١١](*).

---

(١) إحكام الأحكام (٢/١٦٠).

(٢) المجموع (١٦/١٥٩)، المغني (٦/٣٩٢).

(٣) الفتح (٥/٩٩).

(٤) المغني (٦/٣٩٢، ٣٩٤).

(٥) المجموع (١٦/١٥٩)، المغني (٦/٣٩٤).

(٦) الفتح (٥/١٠٢).

(٧) المجموع (١٦/١٥٩)

(٨) المغني (٦/٣٩٥).

(٩) المجموع (١٦/١٥٩)، المغني (٦/٣٩٠)، شرح مسلم (١٢/٢٣)، السلسبيل (٢/٥٩٨)، الفتح (٥/٩٩).

(١٠) المغني (٦/٣٩٤).

(١١) المجموع (١٦/١٥١)، الفتح (٥/١٢٠)، شرح مسلم (١٢/٢٢).

(*) انظر: في هذا الموضوع أيضاً كتاب (أحكام اللقطة في الشريعة الإسلامية)، د. عبد الكريم زيدان، ويحسن الرجوع إليه. - البيان -

دعوة إلى حب النبي ﷺ

نظرات متأملة للواقع في حب النبي ﷺ

(٢-٢)

عبد الله الخضيري

في الحلقة السابقة أومأ الكاتب إلى أن الحب أسمى العلاقات وأرقها، ليقف بنا على المستوى الذي يبلغه محب الرسول ﷺ، وما يلاقيه هذا الحب في أيامنا هذه من إهدار من قبل وسائل الإعلام، وقد قدَّم لنا في تلك الحلقة صوراً من حب المسلمين وتقديرهم لنبيهم ﷺ، وما كان يفعله علماؤهم إذا ذكر النبي ﷺ عندهم أو حدثوا عنه في دروسهم؛ فقد ذكر عن مالك ـ رحمه الله ـ أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني، ومن ذلك أيضاً ما روي عن عبد الله بن مهدي أنه كان إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت، فلا يتحدث أحد، ولا يُبرى قلم، وغير ذلك من المواقف والمشاهد. – البيان –

ومن صور الجفاء الممض الذي طبقه الكثيرون ـ من غير استشعار للجفاء ـ هجر السنن المكانية؛ وشواهد هذا الجفاء في حياتنا كثيرة؛ فترى من الناس من يحج كل عام ويعتمر في السنة أكثر من مرة، ومع ذلك تمر عليه سنوات كثيرة لم يعرِّج فيها على المدينة النبوية إلا أقل من أصابع اليد الواحدة، وقد يعتب بعضهم على أهل الآفاق أو الوافدين الذين لا يقدمون الديار المقدسة في العمر إلا مرة، ويأتون المدينة فيصلون فيها ويغتنمون أوقاتهم، وترى من أولئك الآفاقيين حرصاً لا تكاد تجد بعضه عند سكان الجزيرة، بل يعتصر الإنسان أسى على أننا في هذه الديار، وقلَّ منْ يهتم بالزيارة، وقد يزورها لكن على عجل وخوف من فوات مصالح يظنها كذلك، وإن زارها فلا اهتمام بالسنن والشعائر، وهذا لعله من النسيان والانشغال بغير السنن والبعد عن قراءة السيرة النبوية؛ فإن الإنسان بحمد الله يجد من الأمن والأنس والطمأنينة القلبية في المدينة النبوية ما لا يجده في غيرها إلا مكة :

ويا حبها زدني جوىً كل ليلة

ويا سلوة الأيام موعدكِ الحشرُ

وصلتكِ حتى قيل: لا يعرف القِلى

وزرتكِ حتى قيل: ليس له صبر

وإني لتعروني لذكراكِ هزة

كما انتفض العصفورُ بلّله القَطرُ

هل الوجد إلا أن قلبي لو دنا

من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمرُ

«وجديرٌ لمَواطن عُمِّرت بالوحي والتنزيل، وتردَّد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر ﷺ، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسول ﷺ مدارس آيات، ومساجد، وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومواقف سيد المرسلين ﷺ، ومتبوأ خاتم النبيين ﷺ»[1] أن يُعتنى بها، وأن تحل في القلوب وتخالط بشاشتها، وأن يكون في زيارتها ما يحدو إلى اتباع السنة وتعظيم نبي الأمة ﷺ.

ومن السنن في المدينة: الصلاة في المسجد النبوي، وهي صلاة مضاعفة، كما قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»[2].

ومن السنن المكانية الصلاة في مسجد قباء، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه أُسيد بن ظُهير: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»[3].

وعن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص قالت: سمعت أبي يقول: «لأن أصلي في مسجد قباء ركعتين أحبُّ إليَّ من أن آتي بيت المقدس مرتين، ولو يعلمون ما في قباء لضربوا إليه أكباد الإبل». قال الحافظ في الفتح: «إسناده صحيح»[4].

وهو محمول على عدم شد الرحال له خلا المسجد النبوي؛ فقد قال ﷺ: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»[5]. «فيستحب السفر إلى مسجده»[6].

ومما نسي في المدينة من السنن المكانية الصلاة في الروضة الشريفة، وهي من رياض الجنة التي ينبغي التنعم فيها والاعتناء بها؛ إذ هي من أماكن نزول الرحمة وحصول السعادة وأسبابها[7]. وقد

(١) الشفا، لعياض، ٢/٦٢٢.

(٢) البخاري: (١١٩)، ومسلم: (١٣٩٤).

(٣) الترمذي ح/ ٣٢٣، وابن ماجه ح/ ١٤١٤، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ح/ ٢٦٧.

(٤) لمزيد من البحث في هذا الحديث وأسانيده وطرقه. انظر: أخبار المدينة النبوية لابن شبة، تعليق الشيخ عبد الله الدويش، (١/ ٤٣ - ٤٥). وانظر الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة/ صالح الرفاعي - رسالة دكتوراه، طبعة مجمع الملك فهد، ص ٥٣٤ - ٥٣٦. وانظر تعليق ابن باز على فتح الباري: (٣/٨٩ - ٨٥).

(٥) البخاري: ح/١١٨٩، ومسلم: ح/ ١٣٩٧.

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ١/٢٣٤.

(٧) انظر فتح الباري، (٤/١٢٥)، مدارج السالكين، لابن القيم، (٣/٢٦٠).

بين ذلك ﷺ بقوله : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي »[1].

قال ابن حجر ـ بعد أن ذكر الأقوال في المراد بمعنى الروضة ـ : « والخبر مسوق لمزيد شرف تلك البقعة على غيرها »[2].

ولكن المحروم من حرم الخير وصدف عن طريقه :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد
سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إنا أقمنا على عذر وعن قدر
ومن أقام على عذر فقد راحا

ويلحق بزيارة المدينة النبوية زيارة قبر النبي ﷺ والسلام عليه وعلى صاحبيه، رضي الله عنهما. وهل يسلم على النبي ﷺ كلما دخل المسجد[3] ممن كان من أهل الآفاق؟ مسألة فيها خلاف[4]؛ لكن شرف الزيارة والسلام والصلاة مما أجمع عليها المسلمون، وأن يزور قبور البقيع من الصحابة، وقبور الشهداء، وقبر حمزة رضي الله عنه؛ لأن النبي ﷺ كان يزورهم ويدعو لهم، ولعموم الأحاديث في زيارة القبور[5]؛ وأن يدعو لهم، وأن يستشعر فضائلهم، ومناقبهم، وجهادهم، وأن يلين قلبه ويتذكر الآخرة لعل الله أن ينصر به دينه كما نصره بهم، وأن يجمعه بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، والله المستعان[6].

والسنن المكانية لا تختص بالمدينة فقط، بل في غيرها، مثل مكة كالصلاة داخل « الحِجْر » لأنه من الكعبة، أو خلف المقام، أو ما يتعلق بالبقعة في غيرهما من الأرض مما هو مشروعٌ التعبد فيه مكاناً.

ومن الجفاء مع النبي ﷺ علمياً وتربوياً عدم معرفة الخصائص والمعجزات التي خص الله بها نبيه محمداً ﷺ، وهذا مما ينبغي أن يتفطن له المتعلمون قبل غيرهم؛ وينبغي مراعاة الفروق بين الخصائص والشمائل والمعجزات والكرامات، وأن الكرامات هي ما يبارك الله في أصله مثل تكثير

---

(١) البخاري، ١١٩٦، ومسلم : ١٣٩١، وانظر فتح الباري، (٣/٩٠).

(٢) فتح الباري، (١١/٥٨٠).

(٣) وهو غير الدعاء عند دخول المسجد.

(٤) قال مالك ـ رحمه الله ـ : « وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر، وإنما ذلك للغرباء ... »، قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء؛ لأن الغرباء قصدوا لذلك، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم ـ وهذا على أن السفر ليس لأجله أصلاً ـ وهنا يلاحظ أن الزيارة في أوقات الزحام ليست بلازمة. الفتاوى (١/٢٣١)، وانظر التحقيق والإيضاح، لابن باز.

(٥) التحقيق والإيضاح، لابن باز، الجزء الخامس، قسم الحج والعمرة، ١/٢٩٧.

(٦) ومما ينبغي ذكره قول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن زيارة القبور على وجهين : زيارة شرعية، وزيارة بدعية؛ فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم، كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة، فهذه الزيارة الشرعية.

والثاني : أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم، أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت، أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله ـ سبحانه ـ بهم أمر مشروع يقتضي إجابة الدعاء، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها ». الفتاوى، (١/ ٢٣٦).

الطعام والاستسقاء، أو ما يحدثه الله - عز وجل - من الخوارق التي يعجز عنها الإنس والجن؛ فيهيئها الله لعباده من غير قاعدة سابقة[1]، ولا تكون الكرامات إلا لمن استقام ظاهراً وباطناً على الطريق المستقيم، وقد تجري لغيرهم لكن ليس على الدوام. أما المعجزات فلا تكون إلا للأنبياء للاستدلال بها والتحدي، وهي على الدوام على بابها في التعجيز، وليست من جنس الخوارق[2]. وأما الخصائص فهي الأحكام التي خص الله بها نبيه ﷺ مثل الجمع بين أكثر من أربع زوجات، والقتال في الحرم المكي. والشمائل هي: الأخلاق الكريمة التي كانت محور حياة النبي ﷺ كالعفو والصفح والرحمة ولين الجانب.

ويزدادُ الجفاءُ سوءاً حين يبتعد المرء عن الجادة والشرع إلى سلوك الابتداع في الدين ومشابهة حالة المخلِّطين من تعظيم مشايخ الطرق ورفعهم فوق منزلة الأنبياء بما معهم من الأحوال الشيطانية والخوارق الوهمية، أو الغلو في الأولياء الذين يُظَن أنهم كذلك، وإطراؤهم في حياتهم وتقديسهم بعد مماتهم، ودعاؤهم من دون الله، والنذر لهم وذبح القرابين باسمهم، والطواف حول قبورهم أو البناء عليها، وهذا هو الشرك الذي بُعِثَ النبي ﷺ لإزالته وهدمه وإقامة صرح التوحيد مكانه في الأرض وفي القلوب، فأقام الله دينه، ونصر عبده، وأعز جنده المؤمنين، وأقرَّ الله أعينهم بإزالة علائم الشرك وأوثان الجاهلية حين كان النبي ﷺ يطعنها ويحطمها بيده وهو يقول: ﴿ **جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿ **جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ** ﴾ [سبأ: ٤٩][3].

وقد قال الله - تعالى -: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾.

[**الأنعام**: ١٦٢، ١٦٣].

ولا يخفى على عاقل مهتد عقله بنور الشريعة أن الطواف حول القبور والأضرحة، والعكوف عندها وسؤال الموتى قضاء الحاجات، وشفاء المرضى، أو سؤال الله بهم، أو بجاههم مما أُحدِثَ في الدين، وأن الطواف الشرعي لا يكون إلا حول الكعبة، وأن النفع والضر والشفاعة لله وحده، كما في القرآن والسنة والإجماع، وقد أبلغ ﷺ الوحي الذي نزل عليه من السماء في سورة الجن مستجيباً لما أُمِرَ به: ﴿ **قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ...** ﴾ [**الجن**: ٢١ - ٢٣]؛ وهو من هو ﷺ؛ فكيف بغيره؟!! وهذا هو الفرقان الذي يتميز به أهل الإيمان عن غيرهم، فكل من صرف تعظيماً للمخلوقين فإنما ينتقص من عِظَمِ الخالق تبارك وتعالى، وكل تذلل للمخلوقين فهو

---

(١) انظر مجموع الفتاوى، (١١/٣١١)، وشرح العقيدة الطحاوية، تحقيق التركي والأرناؤوط، (٢/٧٤٦).

(٢) انظر الفرقان بين الحق والباطل، لابن تيمية، ص ٥٩ فما بعدها.

(٣) البخاري: (٤٢٨٧)، مسلم: (١٧٨١).

ضعف وجهل، وهذا باب من الذل لا يخفى.

ومن الجفاء الذي يؤذي النبي ﷺ ويخالف هديه ودعوته، بل يخالف الأصل الذي أرسله الله به وهو التوحيد ـ من هذا الجفاء: الغلو في النبي ﷺ ورفعه فوق منزلة النبوة وإشراكه في علم الغيب، أو سؤاله من دون الله، أو الإقسام به، وقد خاف النبي ﷺ وقوع ذلك فقال ـ في مرض موته ـ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»[1].

ومعلوم أن النصارى تعبد مع الله عيسى ويسمونه: (الابن)، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ودعاء النبي ﷺ من دون الله عبادة له، والعبادة لا تصرف إلا لله وحده، وكذلك حذر النبي ﷺ أن يتخذ قبره عيداً ومزاراً؛ حيث قال: «لا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»[2].

ويبلغ الحد في التنفير من الغلو في ذاته ﷺ أن لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فقال ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3]، يحذر ما صنعوا.

ولما همَّ طائفة من الناس بالغلو فيه فقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. قال لهم ﷺ: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان»[4]. ويلحق بالغلو فيه ﷺ الحلف والإقسام به، فإنه من التعظيم الذي لا يصرف إلا لله وحده، وقد قال ﷺ: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»[5].

ومجموع الأحاديث في هذا الباب ميزان عدل لا ينبغي الزيادة عليها ولا النقص منها، وكل متجرد للحق يجد بغيته في تلك النصوص، والله وحده هو الموفق.

ومن الجفاء أيضاً ترك الصلاة عليه ﷺ لفظاً أو خطاً ـ إذا مرَّ ذكره ـ وهذا قد يحدث في بعض مجالسنا؛ فلا تسمع مصلياً عليه ﷺ؛ فضلاً عن أن تسمع مذكّراً بالصلاة والسلام عليه، وهذا على حد سواء في المجتمعات والأفراد؛ وأي بخل أقسى من هذا البخل؟ وبهذا الجفاء يقع الإنسان في أمورٍ لا تنفعه في آخرته ولا في دنياه، ومنها:

١ ـ دعاء النبي ﷺ بقوله: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ»[6].

٢ ـ إدراك صفة البُخل التي أطلقها النبي ﷺ، حين قال: «البخيل: من ذُكِرت عنده فلم يصلِّ عليَّ»[7].

---

(١) البخاري: ح/ ٣٤٤٥.

(٢) أبو داود بإسناد صحيح ح/ ٢٠٤٢، وصححه الألباني في غاية المرام ١٢٥.

(٣) البخاري: ح/ ١٣٣٠، مسلم: ٥٢٩.

(٤) صححه الألباني في غاية المرام ١٢٧، وانظر تخريجه فيه.

(٥) البخاري ح/ ٢٦٧٩، ومسلم ح/ ١٦٤٦.

(٦) رواه الترمذي: ح/ ٣٥٤٥، وأحمد: (٢/٢٥٤)، وصححه الألباني في الإرواء: ٦.

(٧) الترمذي: ح/ ٣٥٤٦، وأحمد (١/٢٠١)، وصححه الألباني في الإرواء: ٥.

٣ ـ فوات الصلاة المضاعفة من الله عليه : إذا لم يصلِّ على النبي ﷺ وآله وسلم؛ فقد قال ﷺ : «من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً»[١].

٤ ـ ومنها فوات الصلاة من الله والملائكة لتركه الذكر النبوي، قال ـ تعالى ـ : ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب : ٤٣].

(فهذه الصلاة منه ـ تبارك وتعالى ـ ومن الملائكة، إنما هي سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله ـ تبارك وتعالى ـ وملائكته وأُخرجوا من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم؟!! وأي شر لم يندفع عنهم؟! فيا حسرة الغافلين عن ربهم! ماذا حُرموا من خيره وفضله؟ وبالله التوفيق)[٢]. كما أن في تركها وحشة القلب وفزعه لبعده عن الذكر؛ إذ كلما أكثر المرء من الذكر ازدادت الطمأنينة في قلبه، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨].

٥ ـ فوات أثر الصلاة على النبي ﷺ على من لم يصلِّ عليه، كتفريج الهموم وغفران الذنوب. وفي حكم الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره خلاف ليس هذا مكان بسطه[٣].

لكن من كان أحب إليك من نفسك وأهلك ومالك فكيف أنت عند ذكره؟ أو كيف أنت في الثناء عليه؟ والدعاء له؟

خيالك في ذهني وذكرك في فمي
ومثواك في قلبي؛ فاين تغيب؟

ورحم الله الشافعي؛ إذ يقول : «يُكرَه للرجل أن يقول : قال رسول الله، ولكن : يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ تعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[٤].

ومن الجفاء ما يتقمصه الكثيرون على اختلاف في النيات، وتنوعٍ في صور الجفاء يجمعها عدم معرفة قدر الصحابة ومنازلهم وفضائلهم وهم الجيل الأغر حظ النبي ﷺ من الأجيال، وهو حظهم من الأنبياء، لهم شرف الصحبة كما لهم نور الرؤية، ولذا تزخر كتب السنة المطهرة بأحاديث الفضائل والتعديل للأفراد وللعموم، للمهاجرين والأنصار، وما حظنا منها إلا الفخر بذلك الجيل الأشم، وفي آيات التنزيل الثناء والتفضيل، ومنها قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١٠٠]، ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة : ١١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ

(١) مسلم : ح/ ٢٨٤.

(٢) صحيح الوابل الصيب، ابن القيم، ص : ١٣٤، تحقيق سليم الهلالي.

(٣) انظر الخلاف في هذه المسألة في (جلاء الأفهام)، لابن القيم ص : ٥٤٠ حتى ص : ٥٥٨، تحقيق مشهور بن حسن سلمان.

(٤) أخرجه الهروي في ذم الكلام، ص : ٢٥٥.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، وفي آية أخرى يقول ـ تعالى ـ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكيف بمن ترك ماله وولده بل وخاطر بنفسه ليهاجر الهجرتين إلى الحبشة أو يهاجر إلى المدينة مخلفاً حياة العز الظاهر في مكة؟ أَيُشَكُّ بعدُ في إيمانه وصدقه وإخلاصه؟

وقد ألمح الله ـ تعالى ـ إلى من خالف جماعة المسلمين وشذ عنهم وترك ما جاء به الرسول ﷺ أو أشار به أو ألمح إليه أو ما أقامه ﷺ مقامه فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥].

وأما ما وقع بينهم من الخلاف فهم بشر ليسوا بمعصومين، ومَن نحن حتى ننصب أنفسنا حكاماً ومعدِّلين لهم؛ فلتسلم ألسنتنا كما تسلم قلوبنا، وهذا هو المذهب الأسلم والأحكم، ثم إن «القدر الذي ينكر من فعلهم قليل نزرٌ مغمورٌ في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة، وما منَّ الله عليهم به من الفضائل، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، لا كان ولا يكون مثلهم، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله»[1].

كما ينبغي أن يعلم أن جمهور الصحابة، وجمهور أفاضلهم لم يدخلوا في فتنة، وقد ثبت بإسناد قال عنه ابن تيمية: «إنه من أصح إسناد على وجه الأرض»، عن محمد بن سيرين قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين»[2]. ولعل حسنة من أحدهم تعدل آلاف الحسنات من غيرهم، كما في النص الآتي قريباً، ولعل العاقل البصير المتجرد للحق وللحق وحده أن يدرك أن الله ـ عز وجل ـ لا يختار لصحبة نبيه وملازمته من كان مفسداً للدين مُبغضاً للنبي ﷺ؟

وقد سُئل النصارى فقيل لهم: مَنْ أفضلُ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت طائفة ممن تنتسب للمسلمين: مَنْ شرُّ أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد ﷺ!! وطائفتان إحداهما لمزت مريم ـ عليها السلام ـ بالزنا، والأخرى لمزت عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ بالزنا؛ فتأمل رحمك الله كيف يجتمع الهوى والضلال في تلك الطائفتين!! وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[3].

ولك أن تنظر في الذب عن الصحابة حينما دخل عائذ بن عمرو على عبيد الله بن زياد ـ كما روى مسلم ـ فقال: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) العقيدة الواسطية، لابن تيمية، ص: ٢٠١.

(٢) منهاج السنة: ٦/ ٢٣٦.

(٣) البخاري: ح/٣٦٧٣، ومسلم: ح/٢٥٤١.

«إن شر الرعاء الحُطَمة؛ فإياك أن تكون منهم»، فقال: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ. قال: وهل كان لهم أو فيهم نخالة، إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم»[1]. وصدق - رضي الله عنه وأرضاه -:

أجد الملامة في هواك لذيذةً

حباً لذكرك فليلمني اللوَّمُ

ويأتي في النهاية ما قد يكون السبب في التزام الجفاء والتقنع به وهو الحساسية المفرطة من بعض المنتسبين إلى السنة والجماعة حيال كل ما يتصل بتعظيم النبي ﷺ وتقديره وتعظيم أهل بيته الصالحين، سواء عند ذكره أو ذكرهم أو القصد إلى ذكره أو ذكرهم، خشية التشبه ببعض الطوائف، وهذا قصد في غير محله، وهذا التعظيم للنبي ﷺ لا يُقصد به الخروج عن التعظيم الشرعي الوارد في الكتاب والسنة، ولا الاحتفال بالموالد، ولا التواجد عند السماع، أو التلذذ بالمدائح وحدها، وضابط ذلك التعظيم ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، ومعرفة المحب الصادق من غيره في الاتباع، ومن إذا ذكرت له هدي رسول الله ﷺ امتثله، وانتهى عما أحدثه في الدين، ومن إذا ذكرت له السنَّة تركها واتبع هواه.

وقد يحتاج هذا الكلام - أعني الحساسية المفرطة - إلى توضيح بالمثال؛ فلا زلت أذكر أحد أهل العلم ممن له حضور في الساحة الدعوية، وكان كثير الصلاة والسلام على النبي ﷺ في دروسه ومحاضراته وأشعاره، فكان يُنتقد من بعض المتعلمين بسبب ذلك؟! وأين هم من حديث أُبَيُّ بن كعب - رضي الله عنه -: «أجعل لك صلاتي كلها»[2]، وقد يقول بعضهم: إن الجافي ترى عنده رقة في الدين وضعفاً في اليقين، بخلاف المحب الصادق؛ فإن عنده رقة للدين وقوة في اليقين. وماذا يضير الإنسان إذا كان مقتدياً بالسنة المطهرة أن يُصنَّف أي تصنيف؟ أيُلام المحب على محبة النبي ﷺ ؟!! أي شرف هذا الشرف؟ وأي عز هذا العز؟

ولئن نطقتُ بحبهم فلي في الصالحين قبلي سلف وقدوة:

لا بد للعاشق من وقفة

ما بين سلوان وبين غرام

وعندها ينقل أقدامه

إما إلى خلف وإما أمام

وليمتثل القارئ الكريم بهذا العنوان الجميل لحياة المحب الصادق:

ومن عجب أني أحن إليهم

وأسأل شوقاً عنهم وهمُ معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها

ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

والزم - رعاك الله - الحقَّ، وإن كنت وحدك؛ فلا بد من أُنْسٍ وإن طال الطريق وكثر قُطّاعه، والله وحده هو الهادي.

---

(1) مسلم: ح/١٨٣٠.

(2) رواه الترمذي وحسنه: (٢٥٨٧)، وأبو نعيم في الحلية ٨/٣٧٧ وقال: غريب، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم: ١٩٩٩، وفي الصحيحة برقم ٩٥٤.



يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا

محمد بن عبد الله الدويش

لقد ذم الله ـ تبارك وتعالى ـ طائفة من الناس بأن علمهم بعيد عن علم الآخرة النافع لهم، بل نفى عنهم العلم فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٦، ٧].

وأخبر النبي ﷺ عن حال فئة ممن يبغضهم الله ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: «إن الله يبغض كل جعظري جوَّاظ، سخَّاب في الأسواق، جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بالدنيا جاهل بالآخرة»[1] .

حين تستمع إلى ما يدور في كثير من مجالس المسلمين اليوم تجد طائفة ممن ينطبق عليهم هذا الوصف؛ فحين يأخذون بالحديث عن أمر من أمور الدنيا فهم يملكون رصيداً من المعلومات، وربما يتحدثون بالأرقام الدقيقة عن كثير من الظواهر، وحين تنقص أحدهم معلومة، أو يخطئ فيها يصحح له ذلك طائفة من أصحابه.

لكنك تجد الشخص نفسه يجهل حكماً بدهياً من أحكام الطهارة أو الصلاة أو الزكاة أو الصيام، وكثيراً ما يترتب على هذا الحكم الذي يجهله صحة العبادة وبطلانها.

إنه يحفظ من أسماء الساسة ويعي من أخبارهم ـ وكثير منهم ممن لا يدين بالإسلام ـ أضعاف ما يعيه من أخبار أصحاب النبي ﷺ وسلف الأمة الصالح وسيرهم!

والأدهى من ذلك أن هؤلاء يحظون بالاحترام والتقدير من عامة المسلمين، ويعدونهم من أهل الوعي والفكر والرأي.

---

(١) رواه البيهقي عن أبي هريرة، السلسلة الصحيحة، للألباني ، (٣٣١/١).

أفلا يصدق على أمثال هؤلاء أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ويغفلون عن الآخرة؟

إن انتشار الوعي بين المسلمين أمر مطلوب، والجهل مذموم في الفطر السليمة والعقول المستقيمة قبل أن يرد ذمه في الشرع، ومعرفة المسلمين لما يدور في واقعهم وما يجري حولهم مطلب له أهميته، لكن الاعتراض ينصبُّ على سيطرة هذه الأمور على الناس وجهلهم بأمر الآخرة، بل استهانتهم بما يؤدي إليها ويدل عليها، واعتبارهم أن العلم بها من شؤون الوعاظ الذين يحتاج الناس إليهم أحياناً بشرط ألا يطول حديثهم، ولا يتجاوز نطاق الوعظ والإرشاد. أما أهل الفكر والرأي فلهم شأن آخر، ولغة أخرى في الحديث والتفكير.

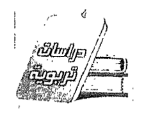
إننا بحاجة إلى أن نحيي علوم الآخرة وما يدل على الله ـ تبارك وتعالى ـ من العلم النافع، ومن وسائل ذلك:

❁ الاهتمام بهذه العلوم النافعة، وإعطاؤها منزلتها اللائقة.

❁ أن نسعى لاستثمار المجالس العامة بالحديث عما يفيد الناس من هذه العلوم، بدلاً من استطراد الناس في الحديث فيما لا يغني ولا يفيد.

❁ الاعتناء بربط الظواهر الاجتماعية والإنسانية بالسنن الربانية والقواعد الشرعية، واستثمار حديث الناس في ذلك بالتأكيد على هذه المعاني؛ فحين يتحدثون عن صور من الترف والثراء، نعقِّب على ذلك ببيان منزلة الدنيا من الآخرة وضآلة متاعها، ونبين عاقبة الترف وأثره على الناس، وحين يجري الحديث حول مشكلة اجتماعية أو كارثة ومصيبة فيجدر أن نعلق على ذلك ببيان أسباب هذه الظواهر وتفسيرها من خلال السنن الربانية.... وهكذا.

❁ لا بد من التفكير بتسهيل العلوم الشرعية وتقديمها للناس، وبخاصة العلوم الضرورية التي تتوقف عليها صحة عباداتهم ومعاملاتهم، ولا بد من استثمار منتجات التقنية المعاصرة، وتقدم وسائل الاتصالات ونقل المعلومات.



نظرات في التربية الحديثة

إبراهيم داود

ما زلنا نسمع ونرى من يتحمّس للتربية الحديثة، ويتحدّث عنها وكأنها البلسم الشافي للعلل والمشكلات التي عانت وتعاني منها نُظم التربية والتعليم في بلاد المسلمين، فما التربية الحديثة؟ وهل يجوز لنا أن نتحمّس لها وندعو إليها وهي تربية غربية في منطلقاتها وأهدافها ومناهجها وبرامجها؟ نحاول من خلال هذه النظرات أن نتبيّن الإجابة عن هذين السؤالين.

معلوم أن التربية الغربية ظلت متأثرة بالفلسفة إلى أن انطلقت بروح جديدة من الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث أسس (شتانلي هول) أول معمل لعلم النفس سنة ١٨٨٧م[١]، وكانت مناهج التربية الغربية القديمة تعكس طبيعة مجتمعها القديم بطبقيته وقسوته، حتى إنّ (أرسطو) كان يرى أن تشرف الحكومة على التربية إشرافاً صارماً، وأن تتخلص من الأطفال الضعاف والمشوّهين[٢]. ويرى كثير من الباحثين أن آراء الفرنسي (جان جاك روسو) هي التي بشّرت بميلاد التربية الحديثة، ويتحدّث عنه كثير من تربويينا المعاصرين بإعجاب شديد، ومنهم من يسميه: (شيخ المربّين وحامي لواء التربية الحديثة) ويزعم هؤلاء أن رجال تاريخ التربية كادوا يتفقون على أن (روسو) هو (رسول التربية) في العصور الحديثة![٣].

المذهب الطبيعي:

يُعدّ (روسو) رائد (المذهب الطبيعي) وواضع أصوله؛ ومن أصول ذلك المذهب أنّ الفرد هو شعار التربية، وأنّ التعبير عن الذات هو الهدف النهائي لها؛ وبنى الطبيعيون على هذا أنّ التربية القويمة لا تتحقق إلا بإطلاق الحرية التامة للأطفال، وأنّ من مقتضيات الحرية أن يكون التعليم مختلطاً، وأن يُسْمح بالرقص والسباحة

---

(١) (التربية وطرق التدريس)، لصالح عبد العزيز، وعبد العزيز عبد المجيد، الجزء الأول، الطبعة السادسة، ص ٣١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩، وانظر الجزء الثاني، تأليف صالح عبد العزيز، الطبعة السابعة، ص ٢٦٥. و (روسو) عاش بين عامي (١٧١٢ - ١٧٧٨م)، وتميزت حياته بالبؤس والإخفاق والانحلال الخلقي، أنجب خمسة أطفال أودعهم جميعاً أحد الملاجئ! من آثاره:

- كتاب (العقد الاجتماعي) الذي نادى فيه بالحرية والمساواة والرجوع إلى الطبيعة.
- كتاب (إميل) الذي وصف فيه الطريقة المثلى (كما يراها) في تربية الأبناء.
- (الاعترافات) التي صرّح فيها بشذوذه وانحراف أخلاقه.

مات (روسو) منتحراً أو إثر سكتة قلبية. انظر: تطور الفكر التربوي للدكتور سعد موسى أحمد، ص ٤١٦، وما بعدها.

والتعري ومناقشة مسائل الجنس بلا تحفظ، أما المشكلات الجنسية فترجع أسبابها - بزعمهم - إلى رغبة الآباء الذين يريدون حمل أبنائهم على مبادئ الدين وقواعد الأخلاق! والصواب - بزعمهم أيضاً - أن تكون تربية الطفل بين سن الخامسة والثالثة عشرة سلبية، لا يُعلَّم فيها الطفل شيئاً ولا يُربّى خلالها أيّ تربية، بل يُترك للطبيعة، محاطاً بأجهزة وأدوات من شأنها أن تُوسِّع مداركه. ويؤمن الطبيعيون بأنّ التربية هي عملية إعداد للحاضر لا للمستقبل، ومن الخطأ - عندهم - أن يُضَحّى بالحاضر المتيقَّن في سبيل مستقبل مظنون[1].

ولا يخفى خطأ هذه الآراء (الطبيعية) وضلالها، ومخالفتها للفطرة السليمة؛ فكون التربية إعداداً للحاضر لا للمستقبل لا معنى له؛ لأنّ الحاضر والمستقبل متصلان اتصال الليل بالنهار، ولأنّ التربية عملية اجتماعية، والأفراد لا يعيشون أشتاتاً كنبتات بريّة في صحراء، فإنْ أمكن - جدلاً - إعداد الطفل للحاضر بوصفه الشخصي لم يتأتَّ ذلك بوصفه الاجتماعي، وإلا كانت العملية التربوية نفسها عبثاً لا طائل تحته.

ولا معنى - كذلك - لإطلاق الحرية التامة للأطفال ما داموا يجمعهم مكان واحد وزمان واحد، وإنما يُتَصَوّر إطلاق الحرية التامة لطفل واحد، أو لأطفال مبعثرين قد تقطّعت بينهم الأسباب! ولا معنى لانتهاء حرية الفرد عندما تبدأ حرية الآخرين إلا انتفاء الحرية المطلقة التي يدّعيها أو يدعو إليها الطبيعيون، والحرية المطلقة - إنّ وجدت - عاقبتها تحويل المجتمع برمّته إلى بؤر فساد وإفساد.

والقول بأن التربية المقصودة هي إفساد لطبيعة الطفل الخيِّرة.. تحكّمٌ بلا دليل، وإذا كان الصغار كما تفترض المدرسة الطبيعية ملائكة فلِمَ لا يحافظ خريجو المدرسة الطبيعية على نقائهم؟ ولِمَ لا يكونون هم المؤثرين فيمن سواهم من الناس؛ إذ هم كبار راشدون؟! بل الصواب كما قال (المناوي) في شرح حديث الفطرة الذي رواه البخاري[2]: «... أنّ الإنسان مفطور على التهيّؤ للإسلام بقوة، ولكن لا بد من تعلُّمه بالفعل؛ فمن قدَّر الله كونه من أهل السعادة قيّض الله له مَن يعلّمه سبيل الهدى فصار مهذّباً بالفعل، ومن خذله وأشقاه سبَّب له مَنْ يغيّر فطرته ويثني عزيمته»[3].

واكتساب المعرفة ليس رهناً باتباع أسلوب التعلم كما يزعم الطبيعيون، وإلا فمتى يكتسب كل طفل بذاته ذلك الكمّ التراكمي الهائل من المعارف والخبرات التي جمعتها البشرية عبر العصور؟! أما إطلاق الحريات للغرائز الجنسية، والأخذ بالتعليم المختلط، وإباحة التعري لمن شاء من الطلبة والطالبات فلا ريب أن ذلك هو - عينه - المتسبب في إنتاج المشكلات وترويجها، ولا يمكن أن تكون مبادئ

(١) انظر (التربية وطرق التدريس) الجزء الثاني، ص ١٦٨ وما بعدها، و (أسس التربية الحديثة) لسعد عبد السلام حبيب، ص ٢٠ وما بعدها، و (تطور الفكر التربوي) للدكتور سعد مرسي أحمد، ص ٤١٥ وما بعدها. ومعظم المعلومات المتعلقة بتعريف المذاهب التربوية - مما ذكرنا في هذه الصفحات - مأخوذ من هذه الكتب الثلاثة.

(٢) «ما من مولود إلا يولد على الفطرة: فأبواه يهوّدانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه...» أخرجه البخاري: ح/ ١٣٥٨، ومسلم: ح/٢٦٥٨.

(٣) فيض القدير، ٥/ ٣٤.

الدين وقواعد الأخلاق هي المتسببة فيه، لا، حتى ولو كان الدين مُحَرَّفاً كدين الغربيين، والأخلاق منحرفة كأخلاقهم!

ومعلوم أن الغريزة الجنسية لا تثور من تلقاء نفسها، بل لا بد لها من مثير يثيرها؛ فكان القصد إلى إثارتها سَفَهاً وضلال رأي، وقد تواترت الأدلة، وأثبتت الوقائع أنّ عاقبة ذلك لا تكون إلا الفتنة والفساد الكبير، وانظر تَرَ أن أكبر نسبة من الأطباء النفسيين في العالم متجمّعون في (هوليود) مدينة صناعة السينما الأمريكية والإباحة الجنسية، وأن السويد - صاحبة قصب السبق في الحرية الجنسية - هي أكثر دول العالم اكتظاظاً بالمشكلات الناشئة من تلك الحرية، وأن دائرة هذه المشكلات قد اتسعت فيها لتشمل الزنا بالبنات والأخوات والأمهات.. وكانت الاحصاءات قد أحصت في أوائل الخمسينيات من هذا القرن في إنجلترا وحدها أكثر من نصف مليون طفل من أبناء الزنا؛ فكم أصبح العدد في إنجلترا وأخواتها الأوروبيات، وقد أصبحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين؟!

حقيقة المذهب المثالي:

أمّا «المذهب المثالي» من مذاهب التربية الغربية فهو - في حقيقته - صدى لفلسفة أفلاطون، وتعبير عن نظريته المسماة بـ «المثل»، ومؤدى هذه النظرية أن ثمة عالمين اثنين: عالماً حسياً يتألف من «الأجسام»، وعالماً معقولاً يتألف من المجردات التي هي «المُثُل». وبناء على ذلك قال الغربيون: إن الإنسان يعيش في عالمين: عالم مادي متغيّر، وعالم روحاني خالد، وهذا الأخير هو عالم المثل العليا التي تشكل الهدف الأسمى للتربية والحياة. وهكذا رأى الغربيون في الإنسان جانبيْن: جانباً روحياً سامياً، وجانباً جسدياً تحكمه النوازع الدنيا والشهوات، وهذان الجانبان كالخطين المتوازيين يتجاوران ولا يلتقيان، ويتناقضان ولا يتكاملان، وهو ما أدى إلى قيام سلطتين في بلاد الغرب: سلطة روحية تشرف عليها الكنيسة، وسلطة زمنية قوامها حكم الواقع مفصولاً عن الدين، وترتّب على ذلك الاعتقاد بأن الإنسان أوْلى بالدرس من العالم الخارجي، وأن العلوم الإنسانية أهم من العلوم الطبيعية.

على أنّ دراسة الغربيين للإنسان - سواء قُدِّمت أم أُخِّرت - في ظل عقيدتهم القائمة على فصل الدين عن الحياة لا تأتي بخير؛ لأن المقدمات الخاطئة لا تقود إلى نتائج صحيحة؛ ولذا لم تستطع الدراسات الغربية في مجال النفس والتربية والاجتماع الرقي إلى مستوى العلم، وإن سُمّيت باسم العلم، وهو ما يؤكده إخفاق الغربيين في وقف التدهور السلوكي الذي يُنذر المجتمعات الغربية بأوخم العواقب.

والنظرة المثالية الغربية بما ترتب عليها من فصل بين الدين والحياة خاطئة ومدمرة، وهي - كما يقول (علي عزت بيجوفيتش) رئيس جمهورية البوسنة والهرسك في كتابه المعروف: (الإسلام بين الشرق والغرب)[1] - هي المسؤولة عن إخفاق الأيديولوجيات الكبرى في العالم؛ فهذه النظرة هي التي شطرت العالم شطرين متصادمين بين مادية ملحدة،

(١) نشر مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا للنشر والإعلام والخدمات، وصدر فيما بعد عن هذه الدار على هيئة كتاب متداول.

وكاثوليكية مغرقة في الأسرار، والصواب أنها «وحدة ثنائية القطب، تضم القضيتين المتصادمتين في العقل الغربي ألا وهما: الروح والمادة، السماوي والأرضي، الإنساني والحيواني، الدين والدنيا. وهذان المتناقضان يوجدان معاً وجود تفاعل وتزاوج وتكامل.. كما تتفاعل ذرات الأوكسجين مع ذرات الإيدروجين لتنتج الماء الذي يشرب منه الإنسان والحيوان والنبات»(١).

وقد نبّه بيجوفيتش على أن طبيعة العقل الأوروبي (أحادي النظرة) كانت سبباً في عجزه عن فهم حقيقة الإسلام؛ ولذا أنكر الغربيون الإسلام لسببين متعارضين؛ فقد أنكره الماديون منهم بوصفه اتجاهاً يمينياً أي دين غيبيات، بينما أنكره المتدينون لأنهم رأوا فيه اتجاهاً يسارياً أي حركة اجتماعية سياسية(٢).

ولا تغني عن المذهب المثالي دعواه أنه إنما يريد - من خلال التربية - أن يحيط الطفل بالمثل العليا؛ لأنه لا يدري ما المثل العليا على وجه التحديد. يقول سير برسي نن: «نستطيع أن نحكم بأنه لا يمكن أن يكون هناك غرض عام للتربية ما دام هذا الغرض يحقق مُثُلاً عليا؛ لأن هذه المثل تتعدد بتعدد الأفراد»(٣).

المذهب البراجماتي:

وأمّا «المذهب النفعي الذرائعي» المعروف باسم البراجماتية أو البراجماسية فقد ارتبط باسم (جون ديوي)(٤) أشهر التربويين المعاصرين، وهذا المذهب ذو صبغة عملية تجريبية لا يبدو فيها أي أثر للقيم أو الأخلاق.

هدف التربية في نظر (ديوي) هو النمو، والهدف - بزعمه - جزء لا يتجزأ من عملية النمو، وليس أمراً خارجياً تتجه إليه خبرة المتعلم، فلا هدف لعملية النمو إلا المزيد من النمو؛ ولذا أنكر (ديوي) أي هدف نهائي وقال: «الفكرة القائلة بأن النمو والتقدم يرميان إلى هدف نهائي لا يتغيّر ولا يتبدل هي آخر أمراض العقل البشري في انتقاله من نظرة جامدة إلى الحياة إلى نظرة مُفْعمة بالحركة»(٥) ومعنى هذا أن النمو والتربية والحياة هي مسميات لاسم واحد في نظر (ديوي)!

ولا ريب أن «التسليم بوجود أهداف ثابتة يزود القائمين على التربية بمعايير ثابتة وصادقة يستعينون بها للحكم على مدى تقدم التلاميذ في عملية التعلم، أما القول بأن الأهداف جزء من عملية النمو ذاتها فإنه يزيد من حيرة المربين؛ فاللص الذي يكتسب المزيد من المهارات في السلب والنهب ينمو

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، مقدمة الترجمة العربية، لمحمد يوسف عدس، ص ١٨ (بتصرف).

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) التربية: مادتها ومبادئها الأولية، ص ١٢.

(٤) جون ديوي (١٨٥٩ - ١٩٥٢م)، تعدت شهرته امريكا، وتُرجمت كتبه إلى لغات كثيرة، واستشارته روسيا عقب ثورتها الشيوعية ليضع لها نظاماً تعليمياً تقدمياً، تأثر بآراء (دارون) حول أصل الأنواع، وبدراسات (وليم جيمس) النفسية، وأخذ عن (شتانلي هول) الاتجاه الحديث في علم النفس التجريبي، وتأثر أيضاً بآراء (كارل ماركس) حول الثقافة وارتباطها بالاقتصاد. من كتبه (الطفل والمنهج) و (عقيدتي التربوية) و (الديمقراطية والتربية) وغيرها. عن تطور الفكر التربوي، للدكتور سعد مرسي أحمد، ص ٤١٩. وما بعدها (بتصرف).

(٥) الديمقراطية والتربية، الطبعة الثانية، ص ٥٨.

في هذا المجال؛ فهل تعتبر اللصوصية عملية تربوية هادفة؟! وإذا سلمنا جدلاً بصحة ما ذهب إليه فإن السؤال الذي يظلّ قائماً هو: ما هي المعايير التي نستعين بها للحكم على نمو إنسان نمواً شاملاً؟ ومتى يكون النمو مرغوباً فيه، ومتى لا يكون كذلك؟[١].

وطريقة التدريس في هذا المذهب هي طريقة المشروع التي تُنسب إلى الأمريكي (كلباترك) تلميذ (جون ديوي). والمشروع يأخذ شكلاً فردياً أو جمعياً، وفي المشروع الجمعي يتعاون الأطفال لحل مشكلةٍ ما بتقسيم العمل بينهم.

ولـ (هيلين باركهرست) طريقة أخرى تسمّى طريقة (دالتن)، وتقوم هذه الطريقة على ثلاثة أسس هي: الحرية، والتعاون، وتحمل المسؤولية؛ وبمقتضى هذه الطريقة يتمتع التلميذ بكامل حريته بعد أن يتفق على إنجاز قدر معين من المقرر في مدة معينة، يستعين أثناءها بالمدرس متى شاء.

وقد قيل في الكلام عن مساوئ طريقة المشروع إنها سائبة ومتميعة وتجرّ التلاميذ إلى دراسات متشعبة لا حصر لها، وإنها تكلّف كثيراً من الوقت والمال، وتحتاج إلى مدرسين مدرّبين تدريباً خاصاً، وتنتج معلومات مفككة يصعب معها وضع المناهج والأطر التعليمية. كما قيل في طريقة (دالتن) إنها تجانب الحكمة إذ تحمِّل التلاميذ منذ الصغر مسؤولية إنجاز المقرر، وإنّ بينهم من الفروق الفردية ما قد يُزكي روح الحسد والبغضاء، ولا سيما أنّ هذه الطريقة توازن بين التلاميذ عن طريق الرسوم البيانية، ثم إن من التلاميذ مَنْ لا يميل بطبعه إلى العمل، ومن شأن هذه الطريقة أن تشجّع هؤلاء على التمادي في الكسل، والتلاميذ عموماً مضطرون في حياتهم الواقعية إلى مواجهة ما لا اختيار لهم؛ بالإضافة إلى أن هذه الطريقة - كغيرها من الطرق الحديثة - تحتاج إلى مدرس موسوعي ليس من اليسير إعداده[٢].

طريقة التعليم المبرمج:

وفي أمريكا طريقة حديثة تسمّى: (التعليم المبرمج) وهي طريقة ينتفي فيها دور المدرس؛ إذ يتعامل الطالب مع آلة رُكّبت فيها أسئلة متدرجة في صعوبتها، ويجيب الطالب على الأسئلة بوضع الإجابة على الآلة نفسها، والإجابة الصحيحة هي التي تضمن استمرار دورة الآلة، وربما استخدم الكتاب المبرمج في هذه الطريقة مكان الآلة، وفي الكتاب توجد المادة العلمية، مع سؤال يتعلق بها وفراغ يُفترض وضع الإجابة فيه، وفي الصفحة التالية يوجد الجواب الصحيح، وما على الطالب إلا أن يقارن إجابته بالإجابة الصحيحة[٣].

ولا شك أن للطريقة الحديثة التي اتبعها الغرب جوانب إيجابية أثّرت في نهضته وتقدمه، ولكن منطلقات تلك الطريقة وأهدافها دائرة قطعاً في مجال الخطأ والخطيئة، ونظرة منصفة واعية تكفي للدلالة على أنّ ما حققه الغرب كان في حقيقته وبالاً عليه وعلى العالم أجمع، وحَسْبُ الغربيين أنهم إنما:

(١) (دراسات في الفكر التربوي الإسلامي)، للدكتور عبد الرحمن صالح عبد الله، الطبعة الأولى، ص ٢٠، ٢١.

(٢) انظر: التربية وطرق التدريس، الجزء الثاني، ص ٧٧.

(٣) انظر: المسؤولية، للدكتور محمد أمين المصري، الطبعة الرابعة، ص ١١٦.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختلّ، وتؤرجح في أكفهم ميزان القيم؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً، ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً»(١).

ومن المؤكد أن من شأن أسلوب التعلم الذي يُتيح للطلبة فرص التفكير والابتكار أن يخرّج علماء مبدعين ومفكرين بارزين، ولكن من الغفلة والسذاجة ردّ الفضل فيما وصل إليه الغرب من تقدم علمي إلى تربيته الحديثة، مع التسليم بأنها ساهمت - من خلال جوانبها الإيجابية في إحداث هذا التقدم.

إنّ من المحقق أن وراء ما وصل إليه الغرب من تقدم علمي عوامل تاريخية وموضوعية كثيرة ومتداخلة، ومن المحقق أيضاً أنّ الأمور لا تُقاس - وما ينبغي لها - بأعداد من يتخرج من العلماء والمخترعين فقط، ولا بمقدار القدرة المادية التي يهيئها الخريجون لأمتهم، وليس من الصواب أن تُوزن الأمور مفصولة عن الغايات، ولا أن ينظر إلى بعض النتائج ويُغض النظر عن بعضها الآخر، وإلا فإنّ من الممكن أن يُقال: إنّ التربية الحديثة قد خرّجت - في الوقت نفسه - أعداداً لا تُحصى من المجرمين والشاذين والمرضى النفسيين والمصابين بالإيدز ومروّجي المخدرات والمدمنين عليها، وحسب النفعية - وهي روح التربية الحديثة - أنها تدور بأصحابها حيث دارت، ولا تقيم وزناً لدين أو خلق، وتُضعف - وقد تُميت - الالتزام الخلقي مما يجرّ على الفرد والمجتمع شروراً مدمّرة.

والمنفعة - مهما مسّت الحاجة إليها - لا ينبغي أن تكون الغرض النهائي للتربية والتعليم، وكثيراً ما يكون الناس قادرين على تحقيق المنافع دون أن يدرسوا في المدارس والجامعات.

لماذا التربية الحديثة تفسد المجتمع؟

إن إقامة بناء التربية الحديثة على أسس إلحادية أو علمانية قد أفسد التربية والمجتمع جميعاً؛ فالتربية لا يمكن أن تكون صالحة ومصلحة إلا في إطار غايتها العظمى وهي تحقيق العبودية لله تعالى، ومن ذا الذي يستطيع أن ينكر أنّ التربية النفعية قد ميّعت مفهوم الحق في أنظار الغربيين وربطته بمرادات حكوماتهم؟!

إنّ العلاقة بين التربية الغربية من جهة وبين الفلسفة وعلم النفس من جهة أخرى قد أورثتها كثيراً من الخلل والتناقض والاضطراب، وأكّدت القطيعة بينها وبين الدين، بل جعلتها عدوة للدين تحاربه بسبب أو بدون سبب، ونسفت أساساً عظيماً من أسس التربية الصحيحة وهو أساس التعليم بالقدوة.

والتربية الحديثة لم تحترم أنوثة المرأة، بل دفعتها إلى مخالطة الرجل ومنافسته، حتى ظهر الانحراف الجنسي وتفشى الشذوذ، وفي الوقت الذي أهدرت فيه هذه التربية كرامة المرأة دفعت بالغانيات والمومسات والساقطات إلى بؤر الضوء ومراكز الشهرة(٢).

أما الذين فتنتهم - وما زالت تفتنهم - حضارة

---

(١) في ظلال القرآن، لسيد قطب، الطبعة العاشرة، المجلد الخامس، ص ٢٧٥٩.

(٢) انظر: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، لعبد الرحمن النحلاوي، ص ٧.

الغرب وتربيته فلا بد من تذكيرهم بحقائق ثابتة لا تجوز الغفلة عنها ساعة من ليل أو نهار، ومن أهمها:

١ - أن الغاية من خلق الإنسان في هذه الأرض هي عبادة الله - تعالى - على الوجه الذي أراده سبحانه، ولا سبيل إلى بلوغ هذه الغاية إلا بالتربية الإسلامية.

٢ - أن حكم الوسائل في الإسلام كحكم الغايات لا بد أن تكون مشروعة، بل النيات لا بد أن تكون خالصة لله عز وجل، وإلا حبطت الأعمال وإن كانت مفيدة نافعة في ظاهر الأمر؛ ولذا قال - عليه الصلاة والسلام -: «إنما الأعمال بالنيات»[1].

٣ - أن من شأن المسلم ألا يغترّ بما قد يغرّ ويُغري من مظاهر القوة ما دامت ظالة لا تهتدي بنور الله تعالى؛ فلو تعيّنت التربية الغربية سبيلاً وحيداً لقوة المسلمين (وهذا مستحيل) لما جاز للمسلمين أن يأخذوا بها؛ لأن في الإسلام ما يغني عنها ويفوقها؛ فكيف إذا كانت تلك التربية لا تُفضي بالمسلمين إلا إلى مزيد من التخلف والهوان؟!

٤ - أن من قِصَرِ النظر نسبةَ الفضل فيما حققه الغرب من تقدم علمي إلى طبيعة التربية الغربية، ولم تسلم تلك التربية من نقد الغربيين أنفسهم ومن إدخال الإصلاحات عليها والتعديلات، وما تمتاز به التربية الغربية من اهتمام بالتعليم وإعداد للمعلمين وتوفير للإمكانات، ومن الحرص على المتابعة والمراجعة، وإتاحة الفرص للإبداع والابتكار وتغليب الطابع العملي التطبيقي؛ كل ذلك لا يرادف التربية الغربية الحديثة، بل يشكل بعض جوانبها، فإن كنا - نحن المسلمين - محتاجين إلى هذه الجوانب - وإنا لكذلك - كان علينا أن نأخذ بها؛ لأنها من قبيل الصواب الذي نحن بحاجة إليه، لا لأن الغربيين قد أخذوا به؛ وإلا أخذناه وأخذنا غيره معه وانسلخنا من ديننا عالمين أو جاهلين.

٥ - ليست القوة دائماً دليلاً على صواب من تهيأت له أسبابها، واقرأ - إن شئت - قول الله - تعالى -: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾. [**الفجر**: ٦ - ١٤].

فاللبيب من نظر إلى العواقب، وعلم أن أعمار الأمم والعقائد كثيراً ما تكون أطول من أعمار الأشخاص، وأن سنن الله لا تتخلّف أبداً؛ فمن لم يرَ بأم عينيه انهيار أمم الباطل وعقائد الضلال اعتبر بما آل إليه الأوائل. قال - عز وجل -: ﴿**أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ [**الروم**: ٩].

لقد كان فينا من يجادل عن عظمة الاتحاد السوفييتي، ويزعم أن شمس سلطانه لن تغيب أبداً، وما زال العقلاء والمصلحون من أهل الغرب يؤكدون

---

(١) رواه البخاري، ح/١.

أن حضارة أمتهم تقف على حافة الهاوية، وأن مجتمعاتهم تتحول إلى مستنقعات آسنة تعجّ بمظاهر الشذوذ والجريمة والانحراف.

٦ - ولا يعني ذلك أبداً أن تكون القوة من نصيب الظالمين، ولا ليكون الضعف قد كتب على المسلمين، كلاً؛ بل المسلمون أوْلى أن يكونوا - وقد كانوا - أقوى الأمم، وكيف يؤدون شهادتهم ويبرئون ذمتهم أمام ربهم بدون قوة تهيئ لهم أسباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!

٧ - أن «التربية الحديثة» مصطلح غربي يكتنز في دلالته كثيراً من عناصر رؤية الغربيّ للحياة، وأن لكل مصطلح دلالته التي وُضع لها، وإن زعم الزاعم أنه يطلق ذلك المصطلح بدلالة مختلفة هو يريدها، والتربية الحديثة مرتبطة بالعقيدة الغربية وتصوراتها الضالة؛ فالصواب نبذ هذه التربية، والإقبال على التربية الإسلامية التي شرعها الله - تعالى - وبيّنها النبي ﷺ وحققها الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعون لهم بإحسان، وما يثبت فيه الخير مما يأخذ به الغربيون وغيرهم من غير المسلمين يُقدّر بقدره من جهة، ولا يكون الدافع إلى أخذه إلا خيريته من جهة أخرى.

٨ - أن أكثر الدعاة إلى التربية الحديثة يجهلون - أو يتجاهلون عن عمد - حقيقة مشكلتنا التربوية، وأنها مظهر من مظاهر مشكلتنا الكبرى المتمثلة في الانحراف عن منهج الله تعالى؛ وقراءة أكثر ما كتبه - ويكتبه - هؤلاء يقطع بأن دعوتهم ليست إلا حلقة في سلسلة الافتتان بالغرب الكافر، وإلا فكيف يُفسَّر خلوّ ما يكتبونه من أية إشارة إلى التربية الإسلامية ومصدريها العظيمين وأعلامها الأفذاذ، مع أنهم يرددون أن (روسو) رسول التربية الحديث، و (ديوي) نبي التربية الجديد!

ألا إن الإسلام هو النظام الأمثل الذي يقي من الوقوع في المشكلات، وهو - في الوقت نفسه - السبيل إلى معالجة المشكلات الناشئة من الانحراف عنه، وكل محاولة للإصلاح تُغْفِل هذه الحقيقة أو تَغْفَل عنها محكوم عليها بالإخفاق؛ «فحقيق لمن لنفسه عنده قدر وقيمة ألا يلتفت لهؤلاء، ولا يرضى لها بما لديهم، وإذا رُفع له علم السنة النبوية شمّر إليه ولم يحبس نفسه عليهم»[1].

---

(١) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، ج ١، ص ٨.



من آفات التساهل الدعوي

أسيد بن عبد الرحمن الأثري

لقد طلع علينا في العقود الأخيرة فئامٌ وفرقٌ تمارس تساهلاً دعوياً عجيباً، وهزالاً إصلاحياً فريداً، وتماوتاً في الخير لا يمتّ للحزم بصلة؛ حيث يأخذ نمطية الدعة والسهولة، والراحة والليونة، والضعف والنعومة. قد صدع شامخاً باللين والتيسير، وتسوّد متعاظماً بالبسمة والتبشير، وانبرى جاهداً بالتسلية والتحبيب، جعلوا الوسائل غايات، والمقدمات خاتمات، والتوطئات مقاصد ساميات. لم يفرّقوا بين مدخل ومقصد، وأصل وفرع، وجبل وتلّ، وذكر وأنثى؛ فلقد خلطوا الفروع بالأصول، والوسائل بالمقاصد، والأبناء بالآباء، فضاعت الحرمات، وهانت الأصول، واختلطت المفاهيم، وأضحت الدعوة (مزاداً) يؤمه غير فقيه، ويقصده غير متقن، ويقوده غير متمكن: جميع الفئات الجاهلة والناشئة والفاترة والهازلة، دون قيود أو شروط أو التزامات.

وهؤلاء يسلكون مع المدعوين لطيف الوسائل وخفيفها، وسهلها ولينها، وهي تتمثل في ضروب واسعة من الترويح والتسلية والتلهية نحو: النشيد - المشهد - اللعبة - الطرفة حتى غلبت على معاني الدعوة الجادة، وأساسيات الإصلاح المتميز من همة عالية، وحزمٍ متوقد، وصبرٍ شامخ، وتضحيةٍ جبّارة.

ولا ارتياب أن مثل هذا المسلك إجحاف بالدعوة، وإقصاء في فهم حقيقتها واتجاهاتها وأهدافها، وجناية على قطوفها وثمراتها وبركاتها. وهؤلاء ينتشرون في مجامع الشباب والمراكز والمخيمات التربوية التي تقصدها جموع غفيرة من الشباب والناشئة الذين يحملون فكرها وثقافتها.

وربما تذرع هؤلاء بوجود طوائف غير سوية تحتاج ذاك المسلك لتحقيق التآلف والتجاذب والتضامن والتأثير والتحبيب، والعلم ثقيل حجمه، عظيم كاهله على هؤلاء، ومراعاتهم في الدعوة مقصدٌ مهم، لاحتوائهم والتأثير فيهم. والواعي وهو يرى حتمية بروز العلم وضرورته وغلبته في دعوة هؤلاء وغيرهم، ويرى أن تجريد الدعوة من العلم والهدى والجد والحزم خطأ محض، وفكرة شاذة - هذا الواعي لا يختلف مع هؤلاء في أنه ينبغي مراعاة حال المدعوين في الدعوة والنصحية، بل عندنا أصول شرعية، تعزّز ذلك وتعضّده، منها

قول علي ـ رضي الله عنه ـ: «حدّثوا النّاس بما يعرفون؛ أتريدون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله؟»[1].

وقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «ما أنت محدث قوماً حديثاً لا تبلغهُ عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2].

واللين والرفق مقامان ممدوحان في الشريعة، والنصوص فيها كثيرة وفيرة، ولهما حدود وقيود تحفظ قدرهما وعدم التجني والتلاعب بمعانيهما؛ لأن إدراجَ التساهل والتلاين والخضوع وسائر وسائل الترويح تحت اللين باستدامة وإطلاق مسلكٌ مطروح مردود؛ وظهور المغالطة فيه أعظم من أن نقف لكشفها وبيانها والتحذير منها.

والذي ينبغي تبيينه، ويُتأكد توضيحه هو أننا لا نعلم دليلاً يقصر الدعوة على صنوف اللعب واللهو والترفيه إلى مدد سحيقة وآماد بعيدة يحملها جيل عن جيل، وطائفة عن أخرى. وأيضاً لم نقف على طريقة للأنبياء والدعاة والهداة والصالحين في ذلك. ومن كان عنده فضل علم فليدلنا عليه ونكون له من الشاكرين. بل الذي يعتقده المصلحون الواعون أن هذا الدين عظيم جليل، وبناؤه متين، وأساسه قويٌّ رصين كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٥]. وهو مع ذلك كله سهل في أحكامه وشرائعه، لا يأمر بشدّة ولا بإجحاف أو ظلم أو انحراف، بل يفيض رحمة وحناناً وسلاماً ونوراً على حامليه والقائمين تحت لوائه وسمائه.

ومباحاته تُساس بالأدب، وتُصان بالمروءة، وتُحفظ من كل ألوان السفه والتكدير والإضاعة.

وجعل من شروط الدعوة إليه وأساسياتها: الرفق، واللين، والسماحة، ولم يُقصر الدين كله على ذلك، هذا إذا علمت أن الرفق واللين عند من سلف غير ما نحن بصدده، وهو عند المتلاينين يعني الترويح والتنفيس إلى أجل غير محدود ووقت غير معلوم، واستخدام وسائل في ذلك لا تخلو من شبه وتحامل وانحراف ومناكر؛ وفي بعضها التحريم ظاهر؛ فتخرج جيلاً عاطفياً متماوتاً، ألِفَ الدعة والراحة، والليونة والدعابة لا يحمل همَّ دينه وأمته والأمانة التي في عنقه؛ فلا يطيق الحياة الجادة، ولا يحتمل التربية السامية؛ إذ يسأم من العلم، ويملّ الحزم، ويخاف داعي الجهاد، ويفر من المسؤولية، ويُهزَم بالخوف مسيرة شهر.

إن هؤلاء ينظرون للعلم الشرعي (نظرة تآمرية) تتجسد في أنّه صعب شديد، لا يلائم أكثر الطبقات ولا يحتملون نوعه ومادته. ولا يملكون أدوات استماعه والنظر فيه، ولا امتلاك الفائدة منها؛ فمثلاً هم يعتقدون أن العلم عقيدة وتوحيد، والعلم شروط الصلاة، وشروط النكاح والبيع، وتخريج الأحاديث والأسانيد وأشباهها، وأغفلوا جوانب واسعة في العلم، جراء هذه النظرة الشائنة. والله المستعان.

لذا فإنهم يرون إقصاءه وعزله عن أكثر

(١) رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم (٣) كتاب العلم، (٤٩) باب: من خص بالعلم قوماً دون قوم.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه.



المؤسسات الدعوية، وتبقى الدعوة تساق في إطار التلاين والهزال الموصوف سلفاً.

وإننا نقول لهؤلاء: إن مثل هذا التصور جناية فادحة تعكس الصورة التي يعيشها هؤلاء عقلاً ودعوة وثقافة، وينبغي أن يعلم هؤلاء أن العلم الشرعي يأخذ صوراً شتى ويتنوع إلى فنون عديدة، يمكن أن يستفاد من جوانب عديدة في دعوة هؤلاء، تحقق اللين الشرعي الصحيح لا التلاين السيئ الجديد.

فعلى سبيل المثال سوق الآيات الكريمات بأصوات حسنة خاشعة، والأحاديث النبوية الشريفة المسوقة في جانب الوعظ والرقائق. وعندنا قصص تربوية ومواقف بطولية قد زخرت بها كتب الفضائل والمغازي والمناقب، كما في الصحيحين والسنن الأربعة، يمكن سوقها وعرضها لهؤلاء بديلاً نفيساً بهيجاً عن الغثاء الهزلي والركام السقيم الذي تعج به هذه المؤسسات والمحطات؛ وفي ذلك من الفوائد للمدعوين ما لا يخفى، ومنها:

١ - عرض دعوة جادة، مبنية على أصول شرعية صحيحة.

٢ - ربطهم بالعلم الشرعي المفيد.

٣ - تجسيد معاني الجد والتضحية والعلاء في حياتهم.

٤ - توثيق صلتهم بتراثهم المجيد، وما يجب عليهم تجاهه.

٥ - تحقيق الصفاء الدعوي المنشود.

٦ - إلغاء جوانب السفه والترويح المبالغ فيها.

وإني لأعتقد أن قصة من السيرة النبوية تشع بمعاني النور والعلم والصبر والبسالة، أو آثاراً لإمام أو عالم من كتب التراجم والسير لهي خير من كثير من التشويش والتزوير المخترع المصنوع.

ويستطيع المشرفون الأمناء إذا امتلكوا (الثقافة الشرعية) و (السعة الفكرية) أن يسهلوا كثيراً من أبواب العلم ومسائله وقضاياه، ويمكنهم الإفادة في جوانب الاعتقاد والفقه بأساليب تربوية ميسرة يغشاها الرفق السديد، واللين الصحيح، واليسر المحمود.

أما أن يتعمد هؤلاء قصر مؤسساتهم وتنظيماتهم على جوانب الترفيه والمرح دون حساب أو مراجعة وتصحيح، فهذا مما لا يسوغ شرعاً ولا عقلاً ولا أدباً؛ فكيف يستجيز أقوام دعوة بهذا (الوصف المحقق) الذي يصل فيها جانب المرح إلى ٩٠٪؟!!

كيف يحمدون دعوة نابذت العلم، وأهدرت الفائدة، وحطّمت الجد والعزة والمصابرة؟!!

إن هؤلاء ما هُدوا لأحسن الطرق، ولا أصابوا قصد السبيل.

ولَكُم أن تتصوروا برنامجاً دعوياً يمكث سنين طوالاً على هذا المسلك مع طبقة غزيرة من الشباب - تبحث عما ينفعها ويهديها ويشبع رغباتها - ما هو حالهم؛ وكيف تكون نهايتهم ومصيرهم؟!! ثم يُراد منهم بعد ذلك العمل للدين، ورفع رايته، والتضحية من أجله والثبات عليه!

ثم إن حصلت استجابة صار تلاميذ الأمس شيوخ اليوم، ومضوا على طريقة مربيهم ومعلميهم حذو القذة بالقذة.

إن هذا المسلك المحدَث الغريب ذريعة لتغييب الدعوة عن العلم وتجهيل المدعوين، وإيقاعهم في

متاهات الجهل والشُّبه والتخلف، فينشأ هذا الجيل وقد حيل بينهم وبين التعلق بحياة الجادين البارزين، وذوي الهمم الصامدين الذين عزت بهم الدعوة الإسلامية وكبرت مجالاتها، واتسعت آفاقها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾. [النحل: ١٢٥].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يقول ـ تعالى ـ آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة».

قال ابن جرير: «وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، والموعظة الحسنة، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، وذكرهم بها ليحذروا بأس الله ـ تعالى ـ، وقوله: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

كيف تصح دعوة وتربية وهي خالية من العلم والرشاد، ومجردة من العلو والحزم، وقائمة على اللهو والتسلية إلى مدى لا ينتهي بدعوى اللين والرفق والحكمة؟ والله المستعان.

وأستطيع أن ألخص هُزال هذا المنهج وضعفه في الأمور الآتية:

أولاً: أنه منهج محدث مخترع، ليس له حظ من الأثر ولا النظر ولا الخبرة والتجربة.

ثانياً: مجانبته لدعوات الرسل والأنبياء والمصلحين، فلا يعرف له سالف من أهل العلم والفقه والأثر الذين حفظ التاريخ سيَرهم وأخبارهم.

ثالثاً: أنه سبيل لفصل الدعوة عن العلم وتجريدها من الوعي والفقه والهدى؛ فتصبح مظاناً للجهل والتيه والتذبذب.

رابعاً: أنه تغييب لحياة العلم الوارفة، وآفاقه النيرة البهية؛ وفي هذا تقليل لشأن العلم لا يخفى.

خامساً: أنه قضاء على أصول التربية الجادة، وإضعاف لأركانها ومناهجها.

سادساً: يثمر جيلاً مترفاً استروح نعومة العيش وليونة العمل؛ فلا يحتمل بعدها أدنى قوة ولا جهاد أو مثابرة.

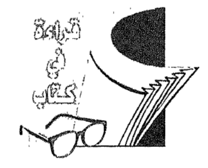
سابعاً: الواقع يشهد بفساد ثمراته وتكدر منابعه؛ إذ قد أسهم في قلب صورة الدعوة الصحيحة ونال من مواهبها وطاقاتها، وأكسبها ضعفاً متيناً، وفتوراً رخواً هزيلاً، والله المستعان.

ثامناً: فيه قلب لمعنى اللين الشرعي الصحيح، وإدراج ما لا يصح منه، واستغلاله لمقاصد غير جادة.

تاسعاً: التلطخ بمخالفات شديدة وحمل شبهات أقل أحكامها الكراهة.

عاشراً: أنه يعالج خلاف الهَدْي النبوي السديد.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.



لماذا يجب على النصرانية أن تتغير أو تندثر

اسم الكتاب:
(Why Christianity Must Change or Die)

المؤلف: (John Shelby Spong).

عرض وتحليل: د. ممدوح نور الدين(*)

الناشر: (Harpersan Francisco).

تاريخ النشر: ١٩٩٨م.

حجم الكتاب: ٢٥٧ صفحة من الحجم المتوسط.

مؤلف الكتاب كاتب أمريكي تقلَّد عدة مناصب في الكنائس الأمريكية حتى أصبح أحد الأساقفة اللامعين؛ له عدة مؤلفات أشهرها: «إنقاذ الكنيسة من الأصولية»، ويتميز طرح الكاتب بالجراءة فيما يعتقد أنه إصلاح للكنيسة في عقائدها ومناهجها وأفعالها.

يقدم المؤلف نفسه على أنه كاتبٌ مؤمن، ويحاول التركيز على هذا المعنى بصورة واضحة توحي للقارئ أنه يحاول أن يدفع عن نفسه شبهة قد علقت في أذهان الناس عنه. كما يفخر المؤلف بأنه قد اشتهر عنه في أوساط المؤلفين والأساقفة ولعه بالجدل، وحبه للمناظرات، وجسارته في طرح الأفكار الغريبة التي تتجاوز حدود الدين وتطلق العنان للعقل المتحرر من قواعد الدين؛ ومع ذلك فقد بلغ منصب أسقف في الكنيسة الأمريكية، وما زال يفضل أن يُعرف عنه أنه يتصف بصفة الإيمان.

يبدأ المؤلف كتابه بهجوم شرس على المؤسسات النصرانية وعلى رأسها الكنيسة، ويتهمها بالجمود الفكري وعدم الانفتاح والتخوف من مناقشة عقائدها البالية، ويوجه هجمته الأولى إلى عقائد النصارى واحدة تلو الأخرى، فيهاجم اعتقادهم بأن الإله الذي يعتقده النصارى ذكر وليس أنثى. فيرى في هذا أنه زيغ محض قد استخدم مسوغاً لاستعباد النساء عبر آلاف السنين؛ بيد أن المؤلف لم يحدد موقفه من هذا الاعتقاد الذي أنكره.

ثم ينتقل المؤلف إلى التشكيك في قدرة الله بأنه ليس قديراً على كل شيء، ويرى أنه لو كان قادراً على كل شيء لاستطاع علاج الأمراض الفتاكة كالسرطان والطاعون، كما أنه يرى أن هذه الأمراض ليست مصائب من الله يبتلي بها الناس، بل إنها نتيجة مباشرة لمشكلات عضوية مادية ملموسة!

والمؤلف يحاول جاهداً أن يظهر أنه يلتزم الموضوعية في طرحه قدر الإمكان أثناء انتقاده لعقائد النصرانية؛ لكنه لا يستطيع أن يلتزم طويلاً بهذا المنهج. فيذكر المؤلف أنه قد كتب «تحرير الأناجيل» عام ١٩٩٦م؛ حيث ذكر فيه أن مؤلفي الأناجيل وهم (متّى

(*) أستاذ وعضو الهيئة التأسيسية للجامعة الأمريكية المفتوحة.

وبطرس ويوحنا ولوقا) لم يكن أحد منهم من الذين عاصروا المسيح أو التقوه، بل إنهم لم يعتمدوا على ذاكرة حواريي المسيح، وأن هذه الأناجيل مبنية على مصادر يهودية؛ فكيف يرى أتباعها أنها صحيحة؟

وبغضِّ النظر عن صحة الانتقادات التي وجهها المؤلف إلى عقائد النصرانية إلا أنه لم ينجح في الوصول إلى الحقيقة التي يزعم أنه ينشدها. بل كان جل همه أن يشكك الناس في عقائد النصارى المنحرفة، بل تجاوز الحد إلى التشكيك في قدرة الله - سبحانه وتعالى - ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾. [الصافات: ١٥٩].

فالكاتب يرى أن عالم الطب اليوم ليس له علاقة البتة بقدرة الله، وأن هذا الأمر خارج عن ملكوت الله وسلطانه! فالڤيروسات والبكتيريا والأورام التي يتعامل معها الطب لا علاقة لها بقدرة الله! وكذلك الأدوية والعقاقير فإنها من نتاج العقل البشري ولا دخل لله بها، ثم يزعم أن الذي يعتقد أن الله هو مسبب هذه الأمراض ليس إلا مجرد إنسان تغلب عليه السذاجة! وهنا يلحظ القارئ أثر الحياة المادية على منهج مؤلف الكتاب الذي أصبح لا يرى إلا من خلال الماديات والمحسوسات، وينكر الغيبيات، بل يتهم الذين يؤمنون بها بأنهم رجعيون ومتخلفون! كما تظهر عليه النزعة التجديدية في الدين.

وفي موضع آخر من كتابه يناقش قضية ألوهية عيسى ابن مريم - عليه السلام - ويتهكم قائلاً: «إذا كان عيسى هو ابن الله الوحيد، فليس أحد آخر من البشر من أبنائه؟» ويفسر هذا الاعتقاد بأن مصدره أساطير الأولين التي سيطرت على عقول الناس قروناً طويلة، ويبدو أن الكاتب لم يستطع أن ينفك عن دينه الذي يؤمن بأن اليهود هم أبناء الله وأحباؤه، لذلك يستغرب عدم وجود مكان لليهود إذا كان عيسى هو ابن الله الوحيد!

ويطلق المؤلف عنان قلمه ليطعن أيضاً في عذرية مريم أم المسيح - عليه السلام - فيقول: إن جميع قصص النساء التي أنجبن أولاداً وهن عذارى إنما هي من وحي الخيال وليس لها أساس علمي بما في ذلك قصة مريم أم المسيح - عليه السلام -، ويؤكد وجهة نظره مستنداً إلى علم الأحياء الذي يحتم وجود البويضة في رحم الأم. ويستنتج من ذلك ضرورة حدوث تلقيح بين روح الإله وبين بويضة الأم، وإذا كان ذلك كذلك فإن مريم أم عيسى - عليه السلام - تعد شريكاً لله في خلق عيسى - عليه السلام - إذ إنها في مقام الزوجة!! ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ٣] ولا شك أن مرد هذا التفكير لدى المؤلف يرجع إلى عدة عوامل هي:

١ - عدم إيمان المؤلف بالغيب.

٢ - تصوره السطحي عن الله خالق الكون كله.

٣ - التشويه الموجود في عقائد اليهود والنصارى عن الله من أثر تحريف كتبهم.

٤ - أثر المذهب المادي والمذهب العقلاني في حياة هؤلاء القساوسة والأساقفة الذين نهجوا منهج الملحدين.

٥ - إيمان الكاتب بمذهب التجديد في الدين والسعي لنشره سعياً حثيثاً.

ثم ينتقل المؤلف إلى مرحلة أخرى هي مرحلة التنظير والتأصيل، فيشجع القراء على الخروج على الكنيسة بأسلوب عصري فيقول: «إن ما أطلبه من المؤمنين - من أهل دينه - العصرانيين أن يعترفوا بأن الكلمات والمعاني التي وردت في المصادر الإنجيلية في العصور الغابرة ليست في حقيقتها إلا كلمات خاوية لا معنى لها؛ إذ إننا أصبحنا نرى الحقيقة في عصرنا هذا بصورة مختلفة».

وكلما وجد المؤلف فرصة سانحة تحدث عن

كيف أنه يعيش في عزلة عندما يتعامل مع نصوص الإنجيل، فيشعر أن المعاني الموجودة فيه لا يقبلها عقل الإنسان المتحضر (وكأن الحضارة في عصرنا هذا سبب في إدراك زيغ الماضي) ويستمر الكاتب في خلطه بين الحق والباطل؛ فهو يرى خطأ بعض عقائد النصارى لكنه لا يصحح هذا الباطل بالحق؛ وإنما يصححه بباطل آخر اسمه: العصرانية، ومن ثم فهو ينتقل من ضلال إلى ضلال آخر، ومن ظلمة إلى أخرى.

وقد نالت الخصومة بين العلماء والكنيسة في القرن الخامس عشر نصيباً من الكتاب؛ فقد تناولها الكاتب تناولاً معتدلاً نسبياً ، فذكر أنه عندما رفضت الكنيسة معطيات العلم الذي أتى به جاليليو إذ أثبت أن الأرض تدول حول الشمس ثارت ثائرة القساوسة وأهل الإنجيل في ذلك الوقت، ثم ذكر كيف اعترف الفاتيكان في ١٩٩١/١٢/٢٨م أن العالم جاليليو كان على صواب، وأن الكنيسة والإنجيل كانا على باطل في تصورهما للكون ومكانة الإنسان فيه.

وهنا تجدر الإشارة إلى تفسير المسلمين لهذا الأمر؛ فإن الإنجيل قد حُرِّفَ كما أشار القرآن الكريم إلى هذا، وأن علماء الكنيسة لم يبذلوا جهداً في التحقق من هذا التحريف؛ بل قبلوه دون تمحيص؛ ولو كان الإنجيل غير محرف لما وجد الناس فيه اختلافاً كبيراً، وهو ما يراه مؤلف الكتاب وغيره من المؤلفين، ولما تعارض مع حقيقة علمية قط؛ فإن خالق الكون هو الله الخبير العليم.

ويسترسل المؤلف في انتقاده لعقائد النصارى واحدة تلو الأخرى، فيعرض إلى قضية صلب المسيح والحلول والخطيئة الأولى، لكنه عندما ينتقد هذه العقائد ينتقدها من منطلق الهوى المحض؛ فهو يرى حقيقة الخلل في هذه العقائد؛ لكنه عندما يعمد إلى تفسيرها يستخدم هواه فيقع في مشكلات أكبر.

والكتاب بصفة عامة خليط بين الحق والباطل؛ فهو ينتقد أخطاء النصارى التي نجمت عن تحريف الإنجيل وهذا حق، لكنه يبني هذا النقد على هواه وعلى مفهوم العصرانية المادية، وهذا باطل(*).

في الفصل الثاني عشر من الكتاب يضع المؤلف تصوراً جديداً للصورة التي يجب أن تكون عليها كنيسة المستقبل، وقد بنى تصوره على فلسفته وهواه وعلى معطيات العلم الحديث وعلى مفهوم العصرنة، واقترح مفهوماً جديداً للعبادة تصور فيه عدم وجود معبود، ولقد بلغ بخيال المؤلف أن يعتقد أن العبادة يمكن أن تتم دون وجود معبود؛ لأن المعبود في زعمه وَهْمٌ قد سيطر على أذهان الكنيسة في العصور الوسطى.

أما في الفصل الثالث عشر فإن المؤلف قد أعلن في تصريح دون تلميح بأن «عهد الإيمان قد مضى وأدبر»! (هكذا) إذ صار الناس لا يحتاجون إلى المعتقدات الإيمانية في العصر الحديث - حسب زعمه - وبذلك فقد سلك المؤلف سبل الفلاسفة الملحدين، فأنكر وجود الجنة والنار إنكاراً مطلقاً، وزعم أن هذا المعتقد إنما هو أسطورة قد حشت أذهان الناس في الماضي الغابر لكن عهدها قد ولى وانصرف.

وفي خاتمة الكتاب يرى المؤلف أنه على يقين من أن صورة الدين عامة والنصرانية خاصة ستتبلور خلال ١٠٠ عام تبلوراً صحيحاً في أذهان الناس

(*) هناك نقد موضوعي أثبت صحة القرآن أمام الكتب المحرفة كالتوراة والإنجيل، في كتاب (القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء المعارف الحديثة)، للكاتب الفرنسي (موريس بوكاي)، وإن كان لا يخلو من ملحوظات ومآخذ؛ لكنه أحسن من الكتاب محل البحث، وللعلم فإن (بوكاي) أسلم بعد بحثه هذا. - البيان -

عندما تندثر الخرافات. ولم ينس المؤلف في نهاية المطاف أن يذكِّر القراء بأنه مؤمن بالله بالرغم من كل ما ذكره من تشكيك، ثم اختتم كتابه بتحية اليهود (شالوم) ومعناها السلام.

من خلال صفحات الكتاب كشف المؤلف بوضوح عن غايته من هذا الكتاب وهي التحرر المطلق من قيود الدين؛ فقد صرح بإيمانه بضرورة منح اللوطيين والشواذ جنسياً الحرية المطلقة في ممارسة ما يرونه في طبيعة علاقتهم الجنسية مع الآخرين.

ولا شك أن الكتاب صورة من صور تجسيد الانحراف الفكري والخواء الروحي والضلال المبين الذي يصيب كل من تنكَّب عن الصراط السوي، وكذلك فإن هؤلاء القساوسة والأساقفة يتحملون وزراً عظيماً في تضليل أتباعهم الذين ليست لديهم القدرة على فهم الحقائق، ولذلك فهم يتبعون أهواءهم التي هوت بهم في مكان سحيق لا يستطيعون الخروج منه؛ ومن ثَمَّ يأتي الدور الذي يمكن أن يلعبه علماء المسلمين ودعاته في إظهار العقيدة الصحيحة وتقديمها بالأساليب المناسبة للعقلية الغربية التي تنكبت عن صراط ربها سعياً لإنقاذ البشرية من ضلالها المبين.

وجدير بالذكر أن هذا الكتاب لم يواجه أية معارضة من قِبَل الكنيسة ولا علماء النصارى ولا عوامهم، ويرجع هذا إلى عدة أسباب منها:

أولاً: ضعف تأثير الدين في حياة الناس الذين صاروا لا يعبؤون بما يسمعون ويقرؤون.

ثانياً: انغماس الغربيين في الحياة المادية انغماساً يشغلهم عن عظائم الأمور.

ثالثاً: مهارة المؤلف في طرح أسلوبه التشكيكي ونسبته إلى غيره من الناس حتى لا يكون مستمسَكاً عليه، وفي الوقت ذاته لا ينفي عن نفسه صفة الإيمان مما يجعل السذج من القراء يجهلون حقيقة موقفه.

رابعاً: سكوت علماء النصارى عن مثل هذه الأطروحات يؤكد أن بعضهم يؤمن بما في الإنجيل من تحريف وتزييف.

خامساً: إن فتح الباب على مصراعيه أمام الملاحدة وأفكار الفلاسفة لن يقف عند حدود النصرانية بل قد يتعداها إلى غيرها.

سادساً: إن علماء المسلمين يجب أن يكون لهم دور فاعل في الرد على هجمات هؤلاء الفلاسفة الذين يهاجمون رب العالمين ليلاً ونهاراً.

تعقيب:

لا شك أن الكتاب تجسيد لمفهوم العصرانية في الدين التي تعني أن الاعتقاد بأن التقدم العلمي والحضارة المعاصرة يستلزم إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة، والمتأمل في منهج الكاتب يدرك كيف أن العصرانيين العرب قد أخذوا منهجه نفسه في مهاجمة الإسلام لكن بدرجة أقل وضوحاً من الكاتب الذي يعيش بين أناس لا يرون للخالق مكاناً بينهم ولا حتى في كتاباتهم؛ بيد أن العصرانيين العرب لا يجدون في القرآن ولا في محمد ﷺ ولا في سنته ما يمكنهم من ذلك، فيلجؤون إلى مهاجمة التراث عامة؛ ولا يقدرون أمام الملأ أن يجهروا بما يبطنونَ حتى لا ينفضحوا أمام أهليهم وذويهم ومن في الأرض جميعاً؛ فما زال ثوب الحياء يمنعهم من ذلك؛ ولكن إلى متى سيصبرون؟!

اجتماع سري لمجلس الخرف بين الحيوانات عام ٢٠٠٠م

رياض عقيل بونمي

قال الأسد الأعور الأمريكي :

ها هو العام على الغاب أتى ... ما أريكم فيه إلا ما أرى
إن عيني قد أبتْ إلا ترى ... كل أرض فيها أمري قد سرى
واعلموا بغضي لإسلام بدا ... وعلى هذا اجتمعنا ها هنا

قال الخنزير النصراني: سيدي!

قد سرى التنصير خفَّاق الخطا ... باسْمِ إطعام المساكين فشا
سترى (إفريقيا) يوماً بها ... مرتَعاً أحوى لتبشير الورى
مثلما ذقنا دماء (البوسَنا) ... فلِـ (كُوسُوفا) عذابٌ لو عتا

قال الكلب اليهودي :

أيها الليث المُفدّى عندنا ... أنت مولاي وبأسي والندى
مُنْيتي: النيل أراه جارياً ... تحت عيني وفراتٌ في الحمى
وانعزالي مفرداً حتى متى؟ ... فُكَّ أسري حتى أسقيهم لظى

قال الدبُّ الروسي :

أنا صارعتُ الرزايا والشتا ... ءَ على الشيشان لاقيتُ الأذى
فأعينوني بقرض هبةً ... إن بالقوقاز داءً كالدُّجى

قال النمر البريطاني والفهد الفرنسي والقرد الصيني :

بارك الربُّ عليكم فأبيدوا ... كل (ضادٍ) لا نجونا إن نجا

الشاة العربية تسمع الحوار فقالت لأولادها الثلاثة :

قد سمعتم كيدهم كيف انجلى ... ما عليكم لو نؤاخيهم غدا
علَّ قلب الوحش يحنو ربَّما ... يحفظ الأولاد من ذئب (القطا)

قال الولد الأكبر (وهو تيس أجلح) :

أنا أرضيه وآتي وَكره ... أطلب السلم وإمحاء العدا
لستُ أبغي غير عيش ناعمٍ ... وأماناً وسلاماً وَكَفى

قال الولد الأوسط (وهو عنزة سمينة)

أُمّيَ النجلاء رأيي من أخي ... نحن لا نخشى احتلالاً أو ردى
إن في التطبيع ربحاً ومُنى ... وانطلاقاً نحو آفاقِ العُلا

قال الولد الأصغر (وهو جدْي أملح أقرن)

ما أرى من إخوتي غير الخنا ... والرزايا مُحدقات والهوى
ما أرى (أماه) إلا قتلنا ... من وحوش ضاريات بالضحى
فاتبعوني واذكروا من قال قبـ ... ـل: نصحتُ القوم منعرج اللِّوا

ستشرق شمس

فتحي الجندي

متى نسمع: الصبح القتيل تنفّسْ؟
وحتام نحيا في أتون مُرَجَّسْ؟

أيا أمة الإسلام قلبي ممزقٌ
فدينك ـ لولا الله ـ قد كاد يُدرس

فمنك غثاءٌ يصدعُ القلب بالأسى
وألفُ قطيعٍ تائه يتحسس

وألف عميل أدرجوا في صفوفنا
وجيش كلابٍ للعدا يتجسس

نهارك مصلوبٌ على باب مسجد
وبدرك مخسوف وليلك عسعس

إذا ذُبح (الألبان): خزيٌ مروّع
وإن قُتل (الشيشان): رأسٌ منكّس

جيوشك حُمْلانٌ إذا جاءت الوغى
ولكن علينا ذئبُ غدرٍ عملّس(1)

وزارات (عدْل) يلعنُ اللهُ عدلها
تُشيّد (سجناً)، والتقيُّ المحض يحبس

ويُقتل (عبد الله) والهالك الذي
تلطخ بالإلحاد يحمى ويحرس

ويُعتمد (الإرهاب) ستراً لحلفهم
وأقسم إن الحلفَ حلفٌ مُدنّس

يريدون طمس الحق بالقهر ويحهم
وما علموا أن الضلال سيطمس

وزارات إعلام تدور مع الخنا
تواصل تخديراً بزورٍ مُلبّس

فجورٌ وإلحادٌ وهزْءٌ بديننا
يشاع ويحمى بينما الحق يدهس

وكلّ غراب للرذيلة مطلقٌ
ويُتحفه الوالي بحزب مؤسس

وكل حقير قائدٌ ومحنّكٌ
حكيمٌ، عظيمٌ، مُقْدم وعنبس(2)

وعولمة الأشرار تسعى لخنقنا
بكف عميل فارغ العقل مفلس

تكالبت الأعداء من كل ملة
وقام لهم من بيننا من يلبس

شيوخ وأوباش طغوا وتمشيخوا
فتُمتهن الآياتُ والحق يُعكس

رويبضة الإرجاء باضوا وفرخوا
يعيثون شراً بالكتاب المقدَّس

وأعجب من شيخ عميلٍ مُدجّنٍ
ينافح عن إجرامهم ويوسوس

سيظهر دين الله في الأرضِ كلها
وكل ضلالات الهوى سوف تخرس

أيا أمة ضاعت بهجر كتابها
وأطلقت الأوغاد والحق يطمس

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كُلاها، وحتى سامها كل مفلس

ولكن برغم الليل والويل والأسى
ستشرق شمس، والضلال سيكنس

---

(١) عملّس: خبيث.

(٢) العنبس: الأسد.

يا بني صهيون

فواز بن عبد العزيز اللعبون

كلُّنا أبدَى لهُ شَجَبَهْ ... لَمْ نُمَتِّعْهُ بما سَلَبَهْ

الشعاراتُ ارْتَمَتْ حُمَمًا ... والقوافي فيه مُلتهِبَةْ

ما تَركنا الحرف محتبسًا ... مُذْ تركنا القدسَ مُغتصَبَةْ

كلُّ ثرثارٍ نضا فمَهُ ... شاهراً في جمعِهِمْ خُطَبَهْ

شعبُنا ما كفَّ عن لغة ... لم يُطرِّزْ وَشْيُها أدَبَهْ

هَبَّ يستبقي كرامتَهُ ... فانبرَى باللوحِ والقصَبَةْ

هل حَجبنا الضيْمَ عن شَرَفٍ ... والسيوفُ الحُمْرُ مُحتجِبَةْ؟

يا بني صهيونَ معذرة ... قومُنا يومَ الوغَى كَتَبَةْ

ألفُ مليونٍ ولا أحدٌ ... سَلَّ في ميدانكُمْ خَشَبَةْ

ما أمنتُمْ غيرَ حاضرِنا ... واسْألوا التاريخَ والحَسَبَةْ

حاضرٌ يبكي على زمَنٍ ... أيُّ خَطْبٍ يا تُرَى نَكَبَهْ؟

رُبَّ وا مُسْتَسْلِماهُ علَتْ ... تَندُبُ الماضي ومَن نَدَبَهْ

ضاعتِ الآمالُ.. وا عَجَبا ... للذي يُبدي لنا عَجَبَهْ

اجْتماعاتٌ ولا أثَرٌ ... واتِّفاقاتٌ ولا غَلَبَةْ

ذاكَ يُلقي الشَّجْبَ مُنتقدًا ... صولةَ الباغي وما ارْتَكَبَهْ

وابنُ مَعْدٍ في ضلالتِه ... يلعنُ الأوغادَ والكَذَبَةْ

وابنُ عَمْرٍو خلفَ غايتِنا ... يَجتني من عارِها ذَهَبَهْ

وابنُ شدَّاد إذَن رَفعوا ... رايةً ولَّاهُمُ عَقِبَهْ

والفتى الطائيُّ ما برِحَتْ ... كفُّهُ تزهو بما وَهَبَهْ

بينَما صهيونُ ماضيةٌ ... لا تَرَى في دربِها عَقَبَةْ

يا بني الإسلامِ ويْحَكُمُ ... ضعفُكُمْ لم اكتشفْ سَبَبَهْ

لو أرقنا دمعَ خيبتِنا ... فوقَهُمْ ما جاوزوا لَجَبَهْ

لو نَفَخْنا في جموعِهِمُ ... مُعلنًا إعصارُنا غَضَبَهْ

ما رأينا فيهمُ وقحًا ... رافعًا من بعدِها ذَنَبَهْ

ما عزائي يا بني أهلي ... غيرَ أنَّ الحالَ مُنقلِبَةْ

في الغدِ الآتي سيَحصدُهُمْ ... مَن بَنينا معشرٌ وَثَبَةْ

دورةُ الأيامِ ما اكتملَتْ ... والأماني بَعْدُ مُرتقَبَةْ

طيّب المولى ثراك

علي بن جبريل أمين

إلى كل داعية على منهاج النبوة.. ينطلق مستمداً دعوته من دستور الأمة.. جاعلاً شعاره : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨].

أيُّ داعٍ هو ذاكم طلّق الدنيا هناكْ!
بل رماها بالرزايا طالباً منها الفكاكْ
مسرعاً في الدرب يمضي بين شدٍّ وانفكاك
يستحث الخطو.. يسري .. لا يبالي بالشراك
من كتاب الله يبني مجده، رغم الشباك!

* * * *

أيها الداعي تقدم وانطلق مهما اعتراك
انطلق نحو المعالي (سدَّد المولى خطاك)
خذ كتاب الله واقدُم واقتبس منه سناك
كن على الدنيا أميراً.. وارمها دوماً وراك!
واجعل الأخرى مراداً نحوها وجّه خُطاك
طأْ على الأرذال واصعد وابق شهماً في عُلاك!
أيها الداعي تذكّر أن ربي قد حباك
قد حباك الله علماً ذا ضياء.. واصطفاك
قد ورثت المجد فاهنأ بالهدى، طابت يداك
قد ورثت الأنبيا فالخير - حقاً - قد حواك
أنت قد أُعطيت حظاً.. إن ربي قد رعاك
فلتكن في الناس تدعو أسمِع الدنيا نداك
وابتعد عن كل قولٍ يُستقى منه العراك!
كن على منهاج حق كي تلاقيه هناك
عندها فاسعد إذا ما (طيبَ المولى ثراك!)



تتوالى الإصدارات الحديثة حاملة بين طياتها الجديد في عالم الدراسات الإسلامية، والفكرية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها. ورغبةً منا في إطلاع قراء ـ البيان ـ على ما يتيسر لنا من هذه المطبوعات الجديدة التي نرى فيها الفائدة لقارئها... سيكون لنا ـ بإذن الله ـ وقفات مع بعض تلك الإصدارات بين عدد وآخر، والله الموفق.

• قبل الكارثة (نذير ونفير)، الأستاذ عبد العزيز مصطفى كامل، الناشر (المنتدى الإسلامي) ١٤٢١هـ.

وهو صرخة إيمانية، ونداء عاجل لكل المسلمين للتحذير مما يحاك من الصهيونية العالمية ضد الأرض المقدسة في فلسطين أمام صمت العالم وعجز المسلمين، وهو النداء الحار الذي سبق أن أطلقه المؤلف منذ ١٥ عاماً تحت عنوان: (قبل أن يهدم الأقصى)، وحذر فيه من تداعيات ما يسمى بـ (أزمة الشرق الأوسط) وآثارها الخطيرة فيما آلت إليه الأمور من استسلام مهين وجبروت وعنجهية، وبمتابعة دقيقة من المؤلف لتطورات هذه الأزمة، واستمرار اليهود في مخططهم، والصمت حياله ـ يضيف أموراً كثيرة في هذا الباب من أهمها:

١ - العداء المعاصر هو العداء القديم.

٢ - بيت المقدس قبل الرسالة الخاتمة.

٣ - بيت المقدس في ظل الإسلام.

٤ - أهل الكتاب والبعد الاعتقادي للصراع.

٥ - المتآمرون وأبعاد المؤامرة.

ويؤكد في الخاتمة أن الجهاد واجب تكليفي شرعي روحي ديني لا يحل للمسلم أن يتخلف عنه إذا قامت شروطه ووجدت مسوغاته، وأنه لا حل مع اليهود وغطرستهم سوى الجهاد وإعداد العدة له.

فهل من إعذار إلى الله ـ تعالى ـ بقول أو عمل لوقف قطار المؤامرة قبل أن يهدم الأقصى؟

• مبدأ الرفق في التعامل مع المتعلمين من منظور التربية الإسلامية، تأليف الأستاذ: صالح بن سليمان البقعاوي، الناشر دار ابن الجوزي، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

البحث رسالة للباحث نال بها درجة الماجستير من جامعة أم القرى تناول فيها أهمية هذا المبدأ وآثاره الإيجابية في التلقي، فشرع الباحث في بيان إطار الدراسة وأهميتها وأهدافها ومنهجها، ثم بيان الرفق في ضوء القرآن الكريم، ثم بيان هذا الخلق الكريم في السنة النبوية ومضامينها التربوية ذاكراً نماذج من التطبيقات التربوية لمبدأ الرفق في سيرة المصطفى ﷺ، وكيف استفاد المعلمون المسلمون من سلفنا الصالح من هذا المبدأ في تعاملهم مع المتعلمين، ومظاهر رفق المعلم بالمتعلمين عند المربين المعاصرين، وأنهى الباحث دراسته بخاتمة لمَّ فيها أطراف الموضوع، وأنهاه بتوجيهات قيمة لترسيخ هذا المبدأ في واقعنا التربوي المعاصر، وهو بحث قيم في بابه.

• حقيقة المقاومة (حزب الله رؤية مغايرة)، الناشر دار الصفوة، للأستاذ: عبد المنعم شفيق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

الكتاب قراءة في أوراق الحركة السياسية الشيعية في لبنان للأستاذ عبد المنعم شفيق الذي سبق أن أمد المكتبة الإسلامية بعدد من الدراسات الفكرية من أشهرها : (ويل للعرب : مغزى التقارب الإيراني مع الغرب والعرب).

وهذا الكتاب رؤية تتبَّع فيها الكاتب هذه الحركة مجيباً عن أسئلة شتى حولها ؛ فتحدث عن مسيرة تلك الحركة السياسية في لبنان منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عارضاً بدايات (موسى الصدر) وانتقاله من إيران إلى لبنان، وحركة المحرومين، وحركة أمل، وبدايات الشيخ محمد حسين فضل الله، ودوره في توطيد الأقدام الشيعية في لبنان، ثم يفصِّل بدايات حزب الله ومنهاجه وتحالفاته مع إيران وسوريا، والتطورات التي حدثت في المنهج العلمي والحركي لذلك الحزب، وأثر التغيرات الدولية على الحزب، ويختم بحثه بالنجاح العسكري للحزب وحقيقته. والكتاب رؤية مغايرة ومختلفة لجل ما كتب حول موضوعه؛ وقد استند الباحث إلى العديد من الدراسات والأبحاث المختصة للعديد من الباحثين من شتى الاتجاهات، وتابع مسيرة هذا الحزب حسبما نشرته الصحف والمجلات، وبكل تواضع يختم المؤلف كتابه بأنه محاولة لدراسة هذه الحركة، وتساءل في الخاتمة : ماذا يمكن أن نستفيد من خطواتها؟ الكتاب يثير تساؤلات وحوارات؛ إلا أنك ستخرج بفوائد شتى من جراء ما تضمنه البحث من محاور وآراء، وهو جهد مهما اختلف القارئ معه فإنه لا يملك إلا أن يثني على ما فيه من جهد ودراسة وتحليل.

• المسلمون والعولمة، الدكتور يوسف القرضاوي، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، الناشر: دار التوزيع والنشر الإسلامية في بور سعيد.

العولة مهما اختلف الباحثون في تحليلها وتعريفها إلا أن المدقق في أهدافها وغاياتها لا يشك في أنها اسم جديد (لاستعمار جديد) خلع أرديته القديمة واستبدل أساليبه البالية ليمارس عهداً جديداً من الهيمنة على العالم، في كل النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية، وأي دولة تحاول التمرد أو الخروج عن هذا التيار ستواجه بالتهديد والحصار، وربما بالضرب العسكري المباشر بدعاوى ليس أقلها الإرهاب وتهديد السلم العالمي، والمؤلف تحدث عن هذا الموضوع في أربعة أبواب تناول فيها : ماذا تعني العولة؟ والفرق بين العولة والعالمية وتأكيد أنها استعمار جديد. والباب الثاني : وقفات مع عولة السياسة والاقتصاد والثقافة والدين. والباب الثالث : تطرق فيه للعولة والمستقبل، وما كتب في بحثين مشهورين هما (نهاية التاريخ)، (صدام الحضارات). والباب الرابع : المواقف من العولة : ما بين رفض تام أو أخذ تام أو وسطية؛ وهو الحري بنا أن نأخذ به، وهو أن نستفيد من إيجابياتها ونتجنب سلبياتها متحصنين بإيماننا معتزين بأنفسنا عاملين بكل ما نستطيع لتطوير قدراتنا وتحسين إمكاناتنا؛ حتى يكون يومنا خيراً من أمسنا، وغدنا خيراً من يومنا.

● **منارات في الطريق، للأستاذ عبد العزيز ناصر الجليل، الناشر دار طيبة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.**

وهو مقالات في الدعوة والتربية تجمع بين بساطة الأسلوب ودقة التحليل لكثير من المسائل الدعوية والتربوية استقاها الكاتب من قراءاته لكثير من كتب السلف والمحدثين قد لا تخفى على الدعاة، إلا أن المرء قد يغفل عنها وعن العمل بمقتضاها بسبب تداخل الأعمال وتأثير الواقع وضغطه؛ ولهذا سلط المؤلف الأضواء عليها تذكيراً وتبياناً، ومن أهم المواضيع التي تطرق لها الكتاب: (ضعف التأصيل وتأصيل الضعف)، (خطر الهوى والتعصب على الدعاة وطلبة العلم) و(فتنة مسايرة الواقع)، و(المداراة لا المداهنة)، (أسباب النصر وأصول التمكين)، (الفهم الصحيح للورع والزهد)، وغيرها من المسائل العلمية التي يواجهها المسلم في خضم الحياة ويلزم أن يسير وفقها على منهاج صحيح، وهذا ما تجده في هذه المنارات العلمية والوقفات الدعوية.

● **الموسوعة الميسرة للتاريخ الإسلامي، مجلدان كبيران، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، إعداد فريق البحوث والدراسات (ندا)، الناشر مكتبة علاء الدين بالقاهرة.**

التاريخ حقاً ذاكرة الأمة به تعي ماضيها وتفسر حاضرها وتستشرف مستقبلها، ولما كانت موسوعات التاريخ ضخمة ومن الصعوبة بمكان استقراؤها جاء هذا الكتاب ليجمع التاريخ الإسلامي منذ عهد الخلفاء الراشدين وحتى العصر الحديث بأسلوب سهل، وعرض مختصر متضمناً كل ما ينبغي أن يعرفه المسلم من أحداث التاريخ الإسلامي، وختم الكتاب بملاحق عن العطاء الحضاري للمسلمين والفرق الإسلامية والمذاهب والمنظمات التي تعمل ضد الإسلام، وآخر الملاحق الدروس والعبر التي يستفيد منها القارئ من خلال قراءاته للتاريخ.

● **الآثار المحتملة لمنظمة التجارة العالمية على التجارة الخارجية والدول النامية، تأليف الأستاذ: فضل علي مثنى، الناشر مكتبة مدبولي، عام ٢٠٠٠م.**

الكتاب رسالة ماجستير تناول فيها الباحث بالدراسة والتحليل فكرة قيام وإنشاء منظمة التجارة العالمية وإرهاصاتها الأولى منذ مؤتمر هافانا ١٩٤٧م مروراً بجولات المفاوضات التي عقدتها (الجات) حتى جولة أورجواي (١٩٨٦م - ١٩٩٤م)، كما تطرق المؤلف للهيكل التنظيمي للمنظمة، وآلية عملها والعضوية فيها، وعملية الانضمام إليها والانسحاب منها، وطرق حل المنازعات، ومسائل أخرى تتصل بعمل المنظمة ونشاطها وقضايا تحرير التجارة في كافة المجالات، وأثر كل ذلك على الدول النامية بوجه خاص وعلى اليمن بوجه أخص؛ حيث تناول الباحث ذلك في ثنايا بحثه من عام ١٩٨٠م / ١٩٩٠م موضحاً الآثار المحتملة للمنظمة على التجارة الخارجية اليمنية.

وخلص في نهاية بحثه إلى عدد من النتائج المستخلصة من الدراسة، وإلى عدد من التوصيات التي تساعد بلاده على مواجهة المستجدات في ظل النظام التجاري الدولي الجديد الذي يرسيه قيام هذه المنظمة العالمية.

مفهوم العقل

أ.د. جعفر شيخ إدريس

رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة

العقل جزء من الشرع؛ فكما أنه لا عقل كاملاً بلا شرع، فكذلك لا شرع كاملاً بلا عقل، والشرع هو كل ما ورد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

فما العقل؟

كان السلف يقولون: إن العقل عقلان: غريزي، ومكتسب. فالغريزي هو ما نسميه بالمقدرات العقلية من فَهْمْ، وإدراك، وفقه، واتساق في الكلام، وحسن تصرف إلى آخر ما سنبينه بعد إن شاء الله. هذا العقل الغريزي هو موضوع مقالنا.

العقل الغريزي هذا هو مناط التكليف؛ فمن لا عقل له لا يكلف، ومن فقد بعض مقدراته العقلية؛ فإنما يُكلف بحسب ما بقي له منها.

والذي أعطي عقلاً ثم ألغاه فلم يستعمله الاستعمال الصحيح، ولم يلتزم بمبادئه لا يفقه الدين، فلا يؤمن به، لكنه يحاسب على عدم فقهه؛ لأنه كان نتيجة لتعطيله الاختياري لعقله ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٠٠].

فلا غرو أن جعل الله عقاب الذين لا يعقلون هذا هو نفسه عقاب الذين لا يؤمنون: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، الرجس في أصله اللغوي هو النتن، فكأن الآيتين الكريمتين تدلان على أن نقاء القلب لا يتأتى إلا بنور العقل ونور الشرع.

وللعقل في القرآن معان بحسب نوع المعقول - أعني نوع الشيء المراد عقله وفهمه - من هذه المعاني:

١ - فهم الكلام: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

فبين أن السبب في جعله عربياً هو أن يفهمه ويعقله أولئك المتحدثون بهذه اللغة.

٢ - عدم التناقض في القول: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٥]، فالذي يقول: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً كأنه يقول: إن إبراهيم كان سابقاً في وجوده لليهودية والنصرانية لكنه كان أيضاً لاحقاً لهما. وهذا كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١] هذا الكلام موجه لليهود الذين يزعمون أنهم يؤمنون بنبوة موسى؛ فكأن الآية الكريمة تقول لهم: إن من التناقض أن تقولوا: إن الله أنزل التوراة على موسى، ثم تقولوا: ما أنزل الله على بشر من شيء.

٣ - فهم الحجج والبراهين: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]، ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

٤ - موافقة القول للعمل: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، ولذلك قال النبي الصالح: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]. لكن تصحيح هذا التناقض إنما يكون بجعل العمل موافقاً للقول الصحيح لا العكس؛ فالذم في هذه الآية منصب على نسيانهم لأنفسهم لا لأمرهم بالبر؛ لأن الأمر بالبر شيء حسن، ولا يغير من حسنه كون الداعي إليه لا يلتزم به. وقد يأمر الإنسان به بإخلاص وإن لم يعمل به. فالذي يأمر أولاده بعدم التدخين أو عدم شرب الخمر مثلاً، مع فعله لذلك، خير من الذي يأمرهم بالتأسي به في فعله، بل خير من الذي لا يأمرهم ولا ينهاهم.

٥ - اختيار النافع وترك الضار سواء كان مادياً أو معنوياً: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٦ - التضحية بالمصلحة القليلة العاجلة من أجل مصلحة كبيرة آجلة: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ

وأبقى أفلا تعقلون﴾ [القصص: ٦٠]، ويؤيد هذا آيات أخرى لم يرد فيها ذكر العقل، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ [التوبة: ٣٨].

٧ - استخلاص العبر الصحيحة من الحوادث: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ [العنكبوت: ٣٥]، يشير ـ سبحانه وتعالى ـ هنا إلى قرى قوم لوط التي قال عنها في آية أخرى مبيناً عدم إدراك الكفار لمغزاها بسبب إنكارهم للبعث: ﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾.

[الفرقان: ٤٠].

٨ - استخلاص العبر مما جرى في التاريخ: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾ [يوسف: ١٠٩].

٩ - فهم دلالات الآيات الكونية: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ [النحل: ١٢].

١٠ - حسن معاملة الناس ولا سيما الأنبياء: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [الحجرات: ٤].

هذه كلها مقدرات عقلية زود الله ـ تعالى ـ بها الناس أجمعين؛ فهم جميعاً يقرون بها، ويرون من عدم العقل ترك الالتزام بها؛ لكن ما كلهم يلتزم في الواقع بها. ولذلك يكفي أن ينبه من خرقها إلى أنه أتى بفعل غير عقلي كما رأينا ذلك في آيات القرآن السابقة.

لكن ينبغي أن ننبه إلى أن بيان القرآن للمسائل العقلية وإقراره لها ليس محصوراً في الآيات التي ذكرت فيها كلمة العقل، فهنالك آيات تذكر فيها كلمات أخرى تشير إلى المقدرات العقلية بذلك المعنى العام الذي ذكرناه، بل إنه يبدو أن كل سؤال استنكاري في القرآن يدل على أن المسؤول عنه أمر بدهي ما ينبغي لذي عقل أن يماري فيه.

بل إن القرآن الكريم مليء بالآيات التي يمكن أن يتخذها المسلم موازين عقلية. ولعل هذه هي المرادة بالمعنى الثاني لمفهوم العقل، أعني كونه علوماً يهتدي بها الإنسان.



نفع الناس في دائرة الضوء

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

لبث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يحذر الناس من الشرك، ويدعوهم إلى التوحيد، ويربي المؤمنين عليه. ولكنَّ العجيب اللافت للنظر أنَّ ذلك الأمر العظيم لم يصرف النبي ﷺ عن العناية بحقوق الناس الدنيوية، وحاجات المستضعفين؛ ففي العهد المكي تنزل عليه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿إنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]. وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣]، ونحوها من الآيات كثيرة جداً، ومثلها كذلك الأحاديث النبوية التي تواترت في الحث على السعي في قضاء حاجات الناس وتفريج كرباتهم؛ فمن ذلك قول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(١). وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله». وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر»(٢).

إنَّ أولويات الدعوة والتغيير في هذه الأمة كثيرة جداً، والحكمة الشرعية تقتضي البدء بالأَوْلى فالأَوْلى، ولكن هذا لا يعني إلغاء العناية بالحاجات الدعوية والاجتماعية المفضولة؛ فالأمور تقدر بقدرها، والفقه الناضج هو الفقه الذي يوائم بين تلك الحاجات بتوازن تام.

ومن ذلك السعي الحثيث لكفالة ضروريات الناس وتوفير حاجياتهم التعليمية والاجتماعية والصحية.. ونحوها؛ فهي من الطرق الرئيسة للتأثير على نفوسهم وتأليف قلوبهم. قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبدْ قلوبهم
فطالما استعبد الإنسانَ إحسان

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب المظالم (٥/٩٧) رقم (٢٤٤٢)، ومسلم، في كتاب البر، (٤/١٩٩٦) رقم: (٢٥٨٠).

(٢) أخرجه: البخاري، في كتاب الأدب (١٠/٤٣٧) رقم (٦٠٠٧)، ومسلم، في كتاب الزهد (٤/٢٢٨٦) رقم (٢٩٨٢).

وقد التفت إلى هذا الأمر في عصرنا فرق كثيرة من أهل الضلال، منهم:

١ - الشيوعيون الذين طالبوا بحقوق العمال والطبقات الكادحة - زعموا! -، وأصبحت شعاراتهم البراقة - في يوم من الأيام - تكتسح صفوف المستضعفين والبسطاء..!

٢ - المنصّرون الذين استغلوا ثالوث الفقر والمرض والجهل الذي يضرب بجِرانه في أنحاء المعمورة لترويج باطلهم.

ونحن الدعاة أوْلى الناس بهذا الأمر، فمن الخطأ الجسيم الذي قد يرتكبه بعض الدعاة أن يتغافلوا عن مشكلات جمهور الأمة، وأن يهمشوا قضايا رجل الشارع العادي واحتياجاته اليومية؛ فليس من فضول البرامج الدعوية أن تُؤسس الجمعيات الخيرية التي ترعى العجزة والأرامل والأيتام، وليس من العبث أن نسعى في حاجات الفقراء والمستضعفين والمرضى، وليس من الفقه والسياسة الشرعية أن نتعامى عن التصدع النفسي والاجتماعي الذي ينخر في ديار المسلمين، وليس من المروءة أن نقصر الجهد في مواساة المنكوبين، وإغاثة الملهوفين. قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

وإنك لتعجب أشد العجب من أن بعض الدعاة يدع كثيراً من الهموم العامة للأمة، ولا يلقي لها بالاً، ويترك العلمانيين وأدعياء الوطنية يَلْغون فيها، ويتشدقون بأطروحاتهم. ألا تتيح لنا ثقافتنا الإسلامية وأَوْلوياتنا الدعوية أن نطرح قضايا التنمية والنهضة، ونعالج مشكلات البطالة، وتعلو لنا يد جادة تدعو إلى العدل الاجتماعي، ويكون لنا صوت مؤثر ورائد في انتشال الأمة من حمأة التخلف والانحطاط الحضاري..؟!!

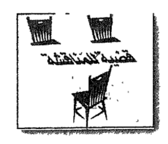
لقد رأيت لبعض فضلاء المفكرين الإسلاميين أطروحات فكرية تزري ببعض الأعمال الاجتماعية والإصلاحية، وتهوِّن من شأن المؤسسات الخيرية، ويزعم أن ذلك يستهلك طاقات الدعاة ويشتت جهودهم، ويبعدهم عن الهدف الحقيقي، والتغيير الشامل لمسار الأمة..!

وهذا صحيح بلا شك إذا كانت تلك الأعمال الاجتماعية هي البرامج الإصلاحية الوحيدة التي نقدمها للناس، ولكنها حلقة مهمة من حلقات النهضة الشاملة للأمة إذا كانت تقدم في رؤية علمية واضحة المعالم ضمن سلسلة من الإنجازات التي تأتلف مع بعضها، وتتكامل في رسالتها، وتخرج من مشكاة واحدة يتمم بعضها بعضاً؛ فمنا من يعتني بالإصلاح الاجتماعي، وآخر يتخصص بالإصلاح التربوي، وثالث يتصدر للإصلاح الفكري، ورابع للإصلاح السياسي.. وهكذا.

وأحسب أن من أبرز جوانب التحدي الذي تواجهه الصحوة الإسلامية هو الدخول المتوازن لكافة شرائح المجتمع وطبقاته؛ فالطرح الإصلاحي النخبوي وحده يبقى محدود التأثير منغلقاً في قاعات الدرس وبطون الكتب، والطرح الجماهيري وحده يبقى ضعيف التأثير لا يستوعب إمكانات الأمة وقدراتها، ولا يحسن توظيفها واستثمارها. وأما المواءمة بين الأمرين فهو التجديد الذي يحيي الأمة ويسلك بها في سبيل النهضة والتغيير المنشود.

---

(١) أخرجه: البخاري، في كتاب الأدب (١٠/٤٣٨) رقم (٦٠١١) واللفظ له، ومسلم، في كتاب البر (٤/١٩٩٩) رقم (٢٥٨٦) بلفظ: «مثل المؤمنين... إذا اشتكى منه عضو».



عوائق في طريق المراجعات

(١-٢)

محمد مصطفى المقرئ

أحسنت مجلة «البيان» إذ أفردت لقضية المراجعات حلقات للمناقشة نرجو أن تطول، كما نرجو للموضوع أن يلقى اهتماماً يكافئ حجمه، وإيجابية تضعه موضع التمثل والتطبيق.

ففي تقديري أننا لم تُمْسِ حاجتنا للمراجعة - أمة وأفراداً وجماعات - مثل حاجتنا إليها اليوم، وإذا كانت الحركة الإسلامية تمثل طليعة الأمة ونواة التغيير فيها.. فهي الأحوج للمراجعة باعتبارها القدوة، ولما يناط بها من مهمة تغييرية إسلامية عظيمة.

وإذ نتفق على أن هذه المشاركات المحدودة عبر مجلة أو أكثر لن توفِّي مسألة المراجعات حقها؛ فحسبنا منها تفتيح نوافذ تطل على مجالاتها الرحيبة؛ فهي دعوة نطرح من خلالها رؤوس أقلام وحسب، ويبقى على العلماء العاملين والدعاة المربين توفيتها حقها من التنظير والتجذير واستنبات الثمار ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾.

[الأعراف: ٥٨].

وقد اخترت أن تكون مشاركتي المتواضعة في جانب لا بد من تذليله أولاً؛ ذلك إن شئنا أن تأخذ المراجعة موقعها اللائق من خارطتنا التربوية، وتصير عملاً إصلاحياً قيد التطبيق، وهذا الجانب أسلِّط من خلاله الضوء على عوائق أراها معرقلة لهذه المهمة الصعبة، ومؤخرة للإصلاح المنشود.

المعوق الأول: إحسان الظن بالنفس.

المرء منا يلحظ عيوب غيره، ويغفل عن عيوب نفسه؛ فيحسن الظن بها، ويخالها خيِّرة صفية، وما يدري أن في ذلك هلاكه!!

وكذلك تُستدرَج الجماعات والأمم؛ فحين يتسرب إلى نفوسنا هذا النوع من الوثوق المغرِّر، والطمأنينة الخادعة فإننا نتواكل على صلاح موهوم، ونركن إلى استقامة منتحلة!! نرى أننا وافينا بلوغ الكمال أو كدنا، ولا حاجة بنا إلى إصلاح، بل لا حاجة بنا إلى التفتيش عن نقص أو عيب؛ فهذا أمر مستبعد، أو هو لا يَرِدُ على خواطرنا أصلاً!!

لما أصيب الصحابة - رضي الله عنهم - يوم أحد نزل قول الله - تعالى -: ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] فأنى لجماعة أو جيل بعد خير القرون أن تخلو من نقص وقصور؟

لقد كان مَن هُم خير منا على العكس مما نحن فيه من إحسان الظن بأنفسنا؛ فكانوا يمقتون أنفسهم في جنب الله تعالى؛ حتى لا يرى أحدهم نفسه إلا شبراً من المسلمين أجمعين.

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء - رضي الله

عنه - قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً»[1].

وقال مطرِّف - في دعائه بعرفة -: «اللهم لا تردَّ الناس لأجلي»[2].

وقال بكر بن عبد الله المزني: «لما نظرتُ إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غُفِرَ لهم لولا أني كنت فيهم»[3].

وقال أيوب السختياني: «إذا ذُكِرَ الصالحون كنت عنهم بمعزل»[4].

ولما احتُضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب، وحماد بن سلمة، فقال له حماد: «يا أبا عبد الله! أليس قد أمنتَ مما كنت تخافه، وتَقدم على من ترجوه، وهو أرحم الراحمين؟ فقال: يا أبا سلمة! أتطمع لمثلي أن ينجو من النار؟ قال: إي والله! إني لأرجو لك ذلك»[5].

وذُكر عن مسلم بن سعيد الواسطي قال: أخبرني حماد بن جعفر بن زيد أن أباه أخبره قال: «خرجنا في غزاة إلى كابل، وفي الجيش صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة، فصلوا، ثم اضطجع (صلة)، فقلت: لأرمقن عمله، فالتمس غفلة الناس، حتى إذا قُلْتُ: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبة منا، فدخلت على إثره، فتوضأ، ثم قام يصلي، وجاء أسد حتى دنا منه، فصعدت شجرة، فتراه التفت أو عدَّه جرواً؟! فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس، ثم سلم، ثم قال: أيها السبع! اطلب الرزق من مكان آخر. فولَّى وإنَّ له لزئيراً، أقول: تصدع الجبال منه. قال: فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس، فحمد الله - تعالى - بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، ومثلي يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة. قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا (يعني حيث ينامون كأنه لم يستيقظ)، وأصبحت وبي من الفزع شيء الله به عالم»[6].

وقال يونس بن عبيد: «إني لأعد مائة خصلة من خصال الخير، ما أعلم أن في نفسي منها واحدة»[7].

وروى الإمام أحمد عن مسروق قال: «دخل عبد الرحمن على أم سلمة - رضي الله عنها - فقالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من أصحابي لَمَنْ لا يراني بعد أن أموت أبداً» فخرج عبد الرحمن من عندها مذعوراً، حتى دخل على عمر - رضي الله عنه - فقال له: اسمع ما تقول أمك! فقام عمر - رضي الله عنه - حتى أتاها، فدخل عليها فسألها، ثم قال: أنشدك الله، أمنهم أنا؟ قالت: لا، ولن أبرئ بعدك أحداً»[8].

قال العلاَّمة ابن قيم الجوزية: «ومقت النفس

---

(١) رواه أحمد في (الزهد)، وابن أبي الدنيا في (محاسبة النفس)، ص ٤٦.

(٢، ٣) رواه ابن أبي الدنيا في (محاسبة النفس)، ص ٤٧.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في (محاسبة النفس)، ص ٤٧.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في (محاسبة النفس)، ص ٤٨، ٤٩.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في (محاسبة النفس)، ص ٥٠، وأبو نعيم في (الحلية) ٢/٢٤٠.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في (محاسبة النفس)، ص ٥١.

(٨) رواه أحمد (٦/٢٩٠، ٢٩٨، ٣٠٧، ٣١٢، ٣١٧)، وأبو يعلى (١٢/٤٣٦) برقم (٧٠٠٣)، والبزار (٣/١٧٢) برقم (٢٤٩٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/٧٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

في ذات الله من صفات الصدِّيقين، ويدنو العبد به من الله - تعالى - في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل»[1].

إن المسافة بين إحسان الظن بالنفس وبين مقتها في ذات الله - تعالى - هي كالمسافة بين الكبر والتواضع، بين الدعوى والحقيقة، بين الكذب والصدق، بين العلم والجهل.. ويخطئ من يحسب أن مقته لنفسه إهدار لمكانته، فيدع ذلك بدعوى اتقاء تجرؤ السفهاء، مع أن مقتها لا يكون بالضرورة جهرة بين الناس.

إننا - مع الأسف - لا نطرق مسألة المراجعات إلا وتذهب أذهاننا إلى غيرنا؛ فكل الناس يحتاجها إلا (أنا.. جماعتي.. منهجنا !!).

المعوق الثاني: الإعجاب بالعمل:

إذا نسي الناس عظمة المنعم جل وعلا، وتغافلوا عن عظيم نعمه استكثروا أعمالهم، وأعجبتهم هيئاتها!!

قال مسروق: «كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله»[2].

فمن الذي يوفق لعمل الصالحات ويهدي إليها ويعين عليها؟ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

يقول أحدنا لنفسه: ولكن جهدي في تزكية نفسي هو الذي جلب توفيق ربي!! فليجب هو نفسه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] فهو محض فضل الله - تعالى - لا غير.

فتقول النفس: ما زكيت دون كثير غيرك إلا لما في قلبك من محبة الله ومحبة طاعته!! فليقل هو لها: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

ولربما يعجب أحدنا بملكاته، وعلو مهاراته، وتفننه وإتقانه، وعلمه وعرفانه.. وإن هي إلا أرزاق مقسومة من الله لعباده؛ فإن يكن لنا في تحصيلها جهد فالعون منه - تعالى - وحده، ولا ريب أن في الخلق من يفوقنا فيها ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] وما يأمن امرؤ نعمة أنعمها الله عليه أن تسلب، لا سيما إن رآها حاصلة منه إليه.

أين تبلغ بنا هذه الأعمال - إن قبلت - بغير رحمة الله وفضله؟ والنبي المصطفى ﷺ يقول: «لن يُدخِلَ أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»[3].

إن المرء إذا لم يتجرد من الحول والقوة عند شروعه في عمله، ويلقي أحماله على توفيق ربه؛ ويستجلب المدد والعون من رحمته وفضله؛ إذا لم يكن ذلك كذلك؛ رأى نفسه هي الصانعة المبدعة، وعندئذ يوكَل إليها، وإذا وُكِلَ العبد إلى نفسه فقد وكل إلى عجز وضيعة، وفقر وفاقة، وهو ما كان يستعيذ منه رسول الله ﷺ، وبأعظم أسماء الله - جل وعلا - : «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»[4].

لقد كان الدرس يوم حنين عظيماً، العظة فيه لنا نحن؛ فجيل الصحابة استوعب الدرس وفهمه،

---

(١) إغاثة اللهفان: (ص ٩٦) ط: مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر ١٤١٦هـ.

(٢) سيأتي تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، ح/ ٦٤٦٧، مسلم، ح/ ٢٨١٦، واللفظ له.

(٤) أخرجه أحمد، المسند (٥/ ٤٢)، أبو داود، كتاب الأدب، ح/ ١٠١.

وورثنا منه العبرة والعظة، وهم خير القرون قدوة ومثلاً.. ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

وترانا نتيه بالجماهيرية والكثرة، ونفاخر بالسبق والقدم، ونزهو بتميز المنهج وتفرده، مع كوننا بهذا وبغيره لم نزل نعاني الاستضعاف والهوان ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

وثَمَّ أمور تزكي نيران العجب وتغذيها:

منها: الاعتداد بالنفس، ومشاهدة فضلها وملاحظة عطائها، وهو لون من عدم إنكار الذات، والتنكر لفضل الله ـ تعالى ـ، ونسيان فضل الغير.. ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]، ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومنها: تحقير عمل الغير، وغمط فضله، والتقليل من شأنه، وهو ـ لعمر الله ـ الكبر الذي حذر منه النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[١]، وهو هضم لحق من حقوق الأخوة في الدين فـ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»[٢].

ومنها: مغالاة الأتباع، ومدحهم لطوائفهم، وإطراؤهم لمشايخهم، وثناؤهم عليهم في وجوههم؛ ولذاك انتهاك صارخ للنهي الشرعي؛ حيث يقول ﷺ: «انثروا في وجوه المداحين التراب»[٣]؛ ذلك أن المرء إذا مُدِحَ في وجهه دخله العجب، وإذا دخله العجب هلك، لقول رسول الله: «ثلاث مهلكات..»، وذكر: «فأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه..»[٤].

وفي حديث آخر: «.... حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصة نفسك»[٥].

وهذه الخصال الأربع بينها ارتباط وصلة، وكذلك شأن أمراض القلوب، تخالها كأنها شبكة فيروسية، أو كأنها ميكروب انشطاري؛ فغالباً ما تجد الشح واتباع الهوى وإيثار الدنيا والعجب مجتمعة كلها في حالة مرضية واحدة، وقد يعافى المرء من تلك الثلاثة الأُوَل، إلا إعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فهي أشدها، وهي التي منها المعاناة عند الخلاف.

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: «الإعجاب آفة الألباب»، وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ: «علامة الجهل ثلاثة: العُجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه»، وعن مسروق: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله»، قال أبو عمر ابن عبد البر: «إنما أعرفه بعمله»[٦].

المعوق الثالث: تقديس المقدمين والمغالاة فيهم:

وهو ما نهينا عنه حتى في حق أكمل الخلق وأحبهم إلينا: رسول الله ﷺ القائل فيما صح

(١) رواه مسلم، ح/ ١٣١.

(٢) رواه مسلم، ح/ ٤٦٥٠.

(٣) رواه مسلم، ح/ ٥٣٢٢.

(٤) حديث حسن بمجموع طرقه كما ذكره المنذري في «الترغيب» (١/ ١٦٢)، والألباني في «الصحيحة» ح/١٨٠٢.

(٥) رواه الترمذي، ح/ ٢٩٨٤.

(٦) أوردها ابن عبد البر في «الجامع» وانظر «صحيح الجامع» (ص١٨٦) ط: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ١٤١٦.

عنه: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم؛ إنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله»[1]، وترانا نستنكف أن نذكر بغير ألقاب تضاف إلى أسمائنا؛ فالفضيلة والسماحة والمشيخة والأستاذية وغيرها.. لها في آذاننا رنين محبوب مرغوب!! في حين ندرج أسماء الصحب الكرام - رضي الله عنهم - بغير ألقاب..؛ فنقول: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد، وسعيد....، ولا نرضى للمعظم فينا أن يدرج اسمه غير مضاف إلى (الإمام.. العلاَّمة.. الشيخ..) وربما يُجمَع له ذلك كله وغيره!!

وإن تعجب فعجب: أن تقابل هذه المغالاة في المقدمين فينا بتفريط يضع من قدر المقدمين في غيرنا ممن هم من ذوي الفضل والسبق والعلم أيضاً!! إذن هي العصبية المقيتة، والموالاة حمية ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومما يتعلق بهذا الباب: أن يعلم أن الرجل العظيم في العلم والدين، من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أهل البيت وغيرهم، قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن، ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن كان من أولياء الله المتقين.

ومثل هذا إذا وقع يصير فتنة لطائفتين: طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل واتباعه عليه. وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته وتقواه، بل في بره وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه من الإيمان!!

وكلا الطرفين فاسد: الخوارج، والروافض، وغيرهم من أهل الأهواء، دخل عليهم الداخل من هذا، ومن سلك طريق الاعتدال عظَّم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه، فيعظِّم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم»[2].

المعوق الرابع: الجهل والهوى:

الجهل ظلمة لا تلغي وجود المعارف، ولكن تحول دوننا ودون رؤيتها، وآلة الرؤية كائنة ميسورة، ولكن لا بد لها من شعاع ضوء يعكس عليها صور المعارف وماهياتها.. وذلك هو العلم. فالعلم: هو النور، والجهل ضده. والهوى: ظلمة تحرمك الرؤية؛ وإن ملكت آلة الإبصار.. فكأن نور العلم أضعف من أن يخترق حجاب الهوى، فهو معه غير نافع لآلتك.. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الحافظ ابن قيم الجوزية: «فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها، لجهلها بمضرته لها تارة، ولفساد قصدها تارة، ولمجموعهما تارة، وقد ذم الله - تعالى - في كتابه من أجاب داعي الجهل والظلم، فقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]، فأصل كل خير: هو العلم والعدل، وأصل كل شر: هو الجهل والظلم»[3].

---

(١) رواه البخاري، ح/ ٣١٨٩.

(٢) منهاج السنة، (٤/٥٤٣ - ٥٤٥).

(٣) إغاثة اللهفان، ص ٤٩٤، طبعة: مكتبة المجلد العربي. القاهرة ١٤١٦هـ .

والجهل: ليس جهل الحرام والحلال وحسب، بل من أعظم الجهل: جهل المرء بنفسه، وبأدوائها، وبما يجب عليه في تزكيتها وإصلاحها، ومجاهدة ميولها، ومغالبة هواها، وفي الأثر: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[(١)].

والمرء عدو ما يجهله، ويأبى الهوى على صاحبه أن يوقفه أحد على أخطائه، ولا حتى أن يقف عليها هو بنفسه، يكره أن يخطأ في أعين أتباعه، فيهرب من مكاشفة نفسه، ويفر منها إليها، ولو رزق هذا التوفيق لفر منها إلى ربه.. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

قال العلاَّمة ابن القيم: «والإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولاً، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده؛ فمن أراد به الخير علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومتى لم يرد به خيراً أبقاه على أصل الخلقة، كما في المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل» [(٢)].

وقد جمع النبي ﷺ بين العلم والعدل في سؤاله الله - جل وعلا -: «اللهم ألهمنا رشدنا، وقنا شرور أنفسنا»[(٣)]؛ فالرشد هو العلم بما ينفع، وشرور النفس هو ظلمها، وهو اتباع الهوى.

وفي الحِلْم والإسلام للمرء وازع
وفي ترك أهواء الفؤاد المتيم
بصائر رشد للفتى مستبينة
وأخلاق صدق علمها بالتعلم

المعوق الخامس: الإرهاب الفكري:

يبدو لي أن أجواء القهر والاستبداد والظلم التي تعيشها أكثر بلداننا قد أصابتنا بلوثتها، فصرنا نعاني من الإرهاب الفكري حتى فيما بيننا نحن الإسلاميين!! فأنت دائماً متهم بالإفراط أو التفريط؛ ذلك بعدما صارت الوسطية أمراً نسبياً يقيسه كل من جهته، وعلى أساس من مقرراته هو.. فإذا كتبت في الاعتقاد: فأنت متزمت وهابي، أو مبتدع حشوي، وإذا كتبت في الإيمان: فأنت خارجي أزرقي، أو مرجئي جهمي، وإذا كتبت في المنهج: فأنت سلفي متعصب، أو خلفي متسيب، وهكذا..!!

وما أسهل أن تطالك أحكام جاهزة، شبه عسكرية واستثنائية، ولكن من لون آخر تعلوه مسحة شرعية، ليس في الحقيقة ولكن في إهاب يبدو كذلك؛ فتُخلَع عليك ألقاب من نحو: منافق، مبتدع، مرجف، مداهن، خارجي، مرجئ، مخرف، صوفي.... !!

فإذا كنت واحداً من هؤلاء - ولا بد - فأبشر بألوان من التشهير والتعيير والتنفير والذم والحض على الكراهية.... فما يدعونك إلا وسيرتك جثة هامدة ينأى عنها أتباعهم قابضين على أنوفهم، يريدون ليوهموا الناس أنها كريهة !!

يعلم المراجع لنفسه أنه متجه نحو هذا الكمين، فيتردد ألف مرة، يُحب أن يراجع فيقدم، ثم يتراجع.. ينمق العبارات، ويدبج الصياغات، يريد

---

(١) (الأربعون النووية)، وقال النووي: «رويناه.. بإسناد صحيح»، وقال الألباني: «إسناده ضعيف»، تحقيق كتاب السنة لابن أبي عاصم، للألباني، ١/١٢.

(٢) رواه أحمد (٢/١٧٦، ١٩٧)، والترمذي (٢٦٤٢)، وابن حبان (٦١٦٩، ٦١٧٠)، والحاكم (١/٣٠) وقال: هذا حديث صحيح تداوله الأئمة، وقد احتج بجميع رواته، ثم لم يخرجاه، ولا أعلم له علة، وقال الذهبي: على شرطهما ولا علة له.

(٣) رواه الترمذي، ح/ ٢٥٦٦.

أن يكون لوقع تراجعه أخف الوطء على نفوس هؤلاء المتحفزين، وبينما هو يهم بالتراجع مجرد همٍّ، تنهمر فوق رأسه اتهامات بالانحراف المنهجي، وعدم الثبات على الحق، والفتنة في الدين، والتخاذل والنكوص، ونكث العهود!!

ألا فلا تتردد وقد عزمت؛ فإنه متى بان لك خطأ لم يحل لك أن تتوانى أو تسوِّف في التراجع عنه، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، وثق أن رضا الناس غاية لا تدرك. قال ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤْنَة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس»[١].

المعوق السادس: خشية شماتة المخالف:

من المؤسف أننا لا نفرق بين النصيحة والتعيير، وفي الحديث: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله»[٢]، وللحافظ ابن رجب الحنبلي مصنف مفرد لهذه المسألة وحدها، موسوم بـ: «الفرق بين النصيحة والتعيير»، فما أن يرجع مخالف عن خطأ كان عليه إلا وتنهمر عليه عبارات التبكيت والتأنيب والتقريع.. ألم ننصح لك؟ ألم نبين لك خطأ ما درجت عليه؟ هل أدركت الآن أننا كنا على حق؟ ألم نقل لك إن منهجنا هو المنهج؟!! وتدبج المقالات، وترصف الأسطر الطوال، تحقر من شأن المتراجع وتزدريه، وتنعى عليه منهاجه كله، بل يظهرون الشماتة فيه، أنه قد أقر على نفسه بالخطأ، واعترف بما كان فيه من مخالفة، ولو يدري هؤلاء لعلموا أن ما يشنعون به عليه من الإقرار بالخطأ والتراجع عنه: فضيلة ومنقبة تذكر له لا عليه، ولعلهم هم أعجز من أن يرجعوا عن خطأ هُم عليه كذلك، وربما كان خطؤهم أشنع من خطئه، وعلى كل فقد تراجع هو، فأين هم من أخطائهم؟ وفي التحذير النبوي البليغ: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك»[٣].

فلماذا يشمت الشامتون؟

أليس التزام الحق هو مطلب كل صادق؟ فلِمَ إذن نرى الشامتين يتخذون من تراجع المخالف فرصة لمهاجمته، بل وللمزايدة عليه، وإظهار منهجهم على حساب التحقير من منتهاجه؟! أوَ ننسى أن الكثير منا وممن نحب ونقرب، وممن نعظم ونوقر؛ قد هداهم الله من هنات وهنات، وزلات وزلات؟ فليسمع هؤلاء وأولئك لقول الله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤].

فيا أيها العازم على الرجوع إلى الحق: امض لما عزمت؛ فإنها والله فضيلة تجعلك فوق من يحقرونك ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾. [الأحزاب: ٤٨].

المعوق السابع: توهم فتنة الأتباع إن طالعوا المخالفة:

يلقي الشيطان في روع أحدنا: أن اعترافنا بالخطأ، وإقرارنا بما كنا عليه من المخالفة سوف يفتن الأتباع، ويصدهم عن التمسك بالمنهج، وربما ينفرهم عن الطريق كله..

أفتريد يا هذا أن تكون جذوة نار تحترق لتضيء للناس الطريق؟ وقد دلَّك الله كيف تضيء لهم من الحق مصباحاً، فتهتدي ويهتدون تبعاً، وتنجو

(١) رواه الترمذي، ح/ ٢٣٣٨.

(٢) رواه الترمذي، ٣/ ٣١٨، وقال: حسن غريب، ضعيف الجامع، رقم: ٥٧٢٢، كشف الخفاء، ٢/ ٢٦٥.

(٣) رواه الترمذي، ح/ ٢٤٣٠. وقال حسن غريب. ضعيف الجامع، رقم: ٦٢٥٨، كشف الخفاء، ٢/ ٣٥٦.

وينجون جميعاً.. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

إن الرجوع إلى الحق ولزومه حيث كان: هو الدرس العظيم الذي يجب أن نعلِّمه أتباعنا، ومن كان فيه خير فسيلزم التصويب، وليس في لزوم الحق فتنة، وإنما تكون الفتنة بالنكوص المنهجي عن ثوابت الحق، والتنكر لما أثبته الدليل من غير حجة شرعية، ففرق بين الرجوع إلى الحق والتراجع عنه، والخلط بين المفهومين هو سبب هذا الغلط.

المعوق الثامن: بطر الحق وغمط الناس:

إنه الكبر.. وبذلك فسره النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[1]، هذا من جوامع كلمه ﷺ، ولله دره، بأبي هو وأمي؛ فالبطر للحق والغمط للخلق: بينهما وشيجة وصلة؛ إذ قد يحمل المرء على المكابرة في الحق والتنكر له وردِّه؛ أنه جاءه ممن يراه دونه!! كما أن بطر الحق يشتمل على نسيان فضل الغير وهضم حسناته.

والمرء إذا تسرب إلى نفسه الكبر منعه ذلك من طلب التصويب، وحال بينه وبين الحرص على التصحيح؛ فأنَّى للمتكبر الذي يحسب نفسه فوق الناس أجمعين، وأكمل من أقلَّته الأرضون؛ أن يرى به حاجة للمراجعة، فضلاً عن مظنة تلبُّسه بخطأ، أو تعثره بكبوة؟! وفي جامع الترمذي عن سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم»[2].

ثم إنه قد ينبه إلى غلط عنده، بل وقد يستشعر خللاً مَّا في عمله، ولا يقدم أبداً على مراجعته، لئلا يصير هو ومخالفه في عموم الخطأ سواءاً، ومثل هذا إن قدر له الوقوف على خطئه كره أن يقر به وإن استيقنته نفسه!! وهذا من أكبر بواعث المراء المذموم والجدال بالباطل.

فيا طالب الآخرة: هلمَّ إلى مراغمة نفسك، وضع من تعاليها؛ فذلك سبيلك إلى المراجعة، وقنطرتك إلى حسن العاقبة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

المعوق التاسع: الخطأ في مفهوم الثبات على الحق:

الحق قديم لا يبطله شيء، والثبات عليه واجب حقيقة: بالاستقامة عليه، وحكماً: بالرجوع إليه، كلما وقع انحراف عنه، قال - تعالى -: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، فرحى الإسلام دائرة، ونحن مأمورون أن ندور معها حيث دارت، وهذه المناهج والتجارب التي هي اجتهادات بشرية: تصيب وتخطئ، وتصلح وتفسد، لسنا مطالبين بالتمسك بها على كل حال؛ بل المتجرد في طلب الحق لا يتردد في تجاوز منهجه إلى ما فيه تصويب له، وتكميل لنقصه، وإصلاح لعيبه، أما أن يكون التمسك بالرأي الأول، أو المذهب الأقدم، أو المنهج الذي أقرته الطائفة واتبعت عليه؛ هو الثبات المطلوب: فتلك مغالطة كبيرة؛ وإلا كان مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان هو الأولى بالاتباع مما تبعه من مذاهب، بل لما جاز أصلاً إحداث مذهب بعده، وأحج من ذلك: أن الأئمة لم يذهبوا إلى حرمة

(١) رواه مسلم، ح/ ١٣١.

(٢) رواه الترمذي، ح/ ١٩٢٣، وقال حديث حسن.

الخروج على اجتهاداتهم، ولم يمنع فقهاؤنا من إحداث اجتهادات مخالفة للمذاهب الأربعة المقررة عند الأمة.

وقد نقل الحافظ ابن عبد البر ما يربو على عشرين أثراً في «جامع بيان العلم»[1] في اختلافات جرت بين الصحابة، أو بين التابعين كذلك، ثم قال ـ رحمه الله ـ: «هذا كثير في كتب العلماء، وكذلك اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعين ومن بعدهم من الخالفين، وما رد فيه بعضهم على بعض لا يكاد أن يحيط به كتاب، فضلاً عن أن يجمع في باب، وفيما ذكرنا منه دليل على ما عنه سكتنا، وفي رجوع أصحاب رسول الله ﷺ بعضهم إلى بعض، وردٍّ بعضهم على بعض: دليل واضح على أن اختلافهم عندهم خطأ وصواب؛ ولولا ذلك لكان يقول كل واحد منهم: جائز ما قلتَ أنت، وجائز ما قلتُ أنا، وكل نجمٌ يهتدى به، فلا علينا شيء من اختلافنا»[2].

ثم ذكر ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ آثاراً أخرى في رجوع الصحابة بعضهم إلى آراء بعض.

وتراثنا العلمي غني مكتنز بروائع من التصويبات والردود التي تداولها علماؤنا سجالاً بينهم.. ومن أمثلة ذلك:

١ - الرد على أبي حنيفة، لأبي بكر ابن أبي شيبة ـ رحمهما الله تعالى ـ، وذلك ضمن كتابه المصنف.

٢ - الرد على محمد بن الحسن الشيباني، للإمام الشافعي، رحمهما الله تعالى.

٣ - الرد على سِيَر الأوزاعي، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، رحمهما الله تعالى.

٤ - بيان خطأ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في تاريخه، لأبي محمد بن حاتم الرازي، رحمهما الله تعالى.

٥ - بيان الوهم والإيهام الواقعيْن في كتاب الأحكام لعبد الحق الإشبيلي، لابن القطان، كما نقد النقد الحافظ الذهبي، رحمهم الله أجمعين»[3].

فإذا أخطأ هؤلاء ورد عليهم أفلا يخطئ أمثالنا؟

ولكنك إذا رددت على مخطئ ـ فيما تعتقد ـ قوله أو مذهبه؛ قوبل ردك بالغضب، والعداوة، وإعلان الحرب، والدعوة إلى النزال!! وفي أحسن الأحوال: تدعى إلى الاعتذار وطلب المسامحة!!

قال ابن قتيبة الدينوري: «وقد كنا زماناً نعتذر من الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم، وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا ينكر مع تغير الزمان، وفي الله خلف وهو المستعان»[4].

والأحج من جميع ما سبق: «أن أصحاب رسول الله ﷺ ـ ورضي الله عنهم ـ، وهم قادة الأنام، ومعادن العلم، وينابيع الحكمة، وأوْلى البشر بكل فضيلة، وأقربهم من التوفيق والعصمة: ليس منهم أحد قال برأيه في الفقه إلا وفي قوله ما يأخذ به قوم، وفيه ما يرغب عنه آخرون»[5]. ا. هـ.

---

(١) جامع بيان العلم، (١٢٠١ ـ ١٢٢٤).

(٢) صحيح جامع بيان العلم وفضله: (ص ٣٥٥) طبعة: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ١٤١٦هـ.

(٣) الحوار، للصويان، ص ٧.

(٤) مقدمة «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث» لابن قتيبة الدينوري (ص٤٢ ـ ٤٧) ت: عبد الله الجبوري.

(٥) مقدمة «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث» لابن قتيبة الدينوري، (ص٤٢ ـ ٤٧) ت: عبد الله الجبوري.

المسلمون



- الولايات «غير المتحدة» الأمريكية

عبد العزيز كامل

- الانتخابات الأمريكية وأثرها في التغيير

حسن الرشيدي

- وقفة مع الخطاب الإسرائيلي والخطاب العلماني العربي

عبد الكريم بقنه

- الغرب وقضايا المسلمين

د. عبد الرحمن أمين

- مرصد الأحداث

حسن قطامش

والعالم





الولايات «غير المتحدة» الأمريكية

معالم على طريق السقوط

عبد العزيز كامل

عندما سقط الاتحاد السوفييتي السابق لم يكن أحد يتوقع أن يحدث ذلك بمثل هذه السرعة. صحيح أن سقوطه كان محتماً ولو بعد حين بحكم النظر في دورات التاريخ ومصائر الأمم المسيَّرة حسب السنن الإلهية، إلا أن النظر البشري للمحللين والمراقبين تقاصر عن استشراف الموعد المحتوم الذي كان أقرب مما يظنون.

نحن اليوم أمام حالة مشابهة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث تتتابع الشواهد الدالة على أن تلك (الإمبراطورية) الآخذة في الصعود الأحادي، إنما هي في الوقت ذاته تقترب جداً من أعلى درجات السلَّم التي تسلم كل درجة منها إلى ما بعدها حتى لا يعود بعد ذلك مجال إلا للعودة؛ فالذي يرقى مرتقىً ـ أياً كان ـ في هذه الدنيا، لا بد أن ينزل منه ولو بعد حين. فالنزول حتمي ـ وفق سنن الله ـ لكل ما علا في الأرض، وهذا ما أخبر عنه النبي ﷺ عندما قال: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[1]. والإشكال هنا ليس في حتمية النزول، ولكن في كيفيته؛ فقد يكون سقوطاً مدوياً سريعاً، وقد يكون هبوطاً تدريجياً بطيئاً، وقد يكون دحرجة وانحطاطاً يدق الأعناق ويحطم العظام.

الولايات المتحدة ستسقط حتماً ـ إن شاء الله ـ؛

(١) أخرجه البخاري، ح/ ٢٨٧٢.

فكهذا تقول السُنن، وهكذا تنبئ الأحداث، وهكذا تقول وقائع السياسات التي تنتهجها الولايات المتحدة في العقود الأخيرة؛ حيث نراها تسلك الدرب نفسه الذي سارت عليه ثم خرجت به إمبراطوريات سابقة من خارطة المجد والعلياء.

قد يقول قائل: وأين أنت من الكلمة المشهورة: «دولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة»؟! [١] وأين نحن من كلام ابن تيمية - رحمه الله - وغيره أن الله يؤيد الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ويعاقب الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة؟ أليست الولايات المتحدة مثالاً لإقامة العدل بين رعاياها؟ أوَ ليس النظام الأمريكي هو النظام الأمثل في عالم اليوم لضمان حقوق الإنسان، وعدالة القضاء، ونزاهة التمثيل والشراكة الشعبية في الحكم؟!

نقول: نعم! قد يكون أكثر هذا صحيحاً عن العدالة الأمريكية الداخلية، ولكن أين العدالة الأمريكية الخارجية؟! إن العدل قيمة لا تقبل التجزئة؛ فمن العدل أن يُلتزم العدل في كل شيء.

أما عدالة الأمريكيين (الظالمة) خارج الولايات المتحدة فإن أكثر من يُصْلَى بنارها هم العرب والمسلمون الذين يتبرع الأمريكيون ببغضهم ومضاعفة الكراهية لهم، حتى إن استطلاعاً أجراه معهد (جالوب) للإحصاء أثبت أن أكثر شعوب الأرض التي يكرهها الأمريكيون هم الباكستانيون والعراقيون والصينيون!! إننا نفهم أن يكره الأمريكيون العراقيين لارتباط العراق في ذاكرتهم الجمعية بصدَّام، ونفهم أن يكرهوا الصينيين؛ لأن الصينيين في اعتقادهم الديني هم قوم يأجوج ومأجوج، أما غير المفهوم فهو بغضهم للباكستانيين؛ مع أن الشعب الباكستاني معروف بأنه شعب مسالم!! وعلى أية حال فنحن لا نعرف شعوباً أبغض إلى الأمريكان من الشعوب العربية بعامة والإسلامية بخاصة؛ ودليل ذلك أن الكونجرس الأمريكي الصادق في تمثيله لإرادة الشعب الأمريكي ورغباته، والذي ينوب عنه في كل ما يتخذ من مواقف؛ قد درج منذ عقود طويلة على انتهاج سياسة عدائية تجاه العرب والمسلمين، وكانت المساندة البلهاء، والمحبة العمياء للدولة اليهودية - تاريخياً - هي التعبير الواضح عن (عدالة) نواب الشعب الأمريكي وشيوخه تجاه أهم قضية تهم المسلمين وهي القضية الفلسطينية.

وهذه بعض بطاقات المحبة الأمريكية لقضيتنا العربية والإسلامية:

- في عام ١٩٥١م أقر الكونجرس أول مساعدة لـ (إسرائيل)، وكانت بمبلغ ٦٥ مليون دولار لاستيعاب الناجين من المحرقة النازية، ولتوطين المهاجرين اليهود، وقد أدت هذه (المساعدة) إلى زيادة عدد اليهود في الأرض المغتصبة في ثلاث سنوات من ٦٥٠ ألفاً إلى مليون و ٢٥٠ ألف نسمة.

- وفي عام ١٩٥٥م طالب عدد كبير من أعضاء الكونجرس - تبلغ نسبتهم ثلث الأعضاء - الرئيس الأسبق (أيزنهاور) أن ترفع أمريكا الحظر عن بيع الأسلحة لـ (إسرائيل).

(١) هذه العبارة قالها بطريرك القدس لما رأى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قادماً بكل التواضع لفتح القدس. وانظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١/٢٥٧.

- وفي عام ١٩٦٥م، أعد أعضاء الكونجرس الأمريكي تشريعاً يتصدى للمقاطعة العربية لـ (إسرائيل).

- وفي عام ١٩٧٠م عارض ٦٠ عضواً في مجلس الشيوخ، و ٢٨٠ عضواً في مجلس النواب مبادرة (روجرز) وزير الخارجية الأمريكية الأسبق التي كانت تدعو لبدء مفاوضات سلام بين العرب و (إسرائيل).

- وفي عام ١٩٧٣م، صوَّت ٧١ عضواً في مجلس الشيوخ، و ٢٩٦ عضواً في مجلس النواب لإعطاء دولة اليهود منحة طارئة بمبلغ ٣,٢ مليار لمواجهة أعباء حرب أكتوبر.

- وفي أواخر السبعينيات صوَّت ٧٦ عضواً في مجلس الكونجرس، و ٢٨٨ في مجلس النواب لحرمان الاتحاد السوفييتي السابق من أي أفضلية تجارية مع الولايات المتحدة ما لم يسمح بهجرة اليهود السوفييت إلى (إسرائيل)، وقد أثمر هذا الضغط على الاتحاد السوفييتي ما أريد منه، فبلغ عدد المهاجرين منذ ذلك الوقت وحتى الآن أكثر من مليون مهاجر.

- وفي عام ١٩٨٠م صوَّت الكونجرس لإعطاء (إسرائيل) مساعدات وقروضاً بمبلغ ٤,٩ مليار دولار، إضافة إلى ثلاثة مليارات من الدولارات على سبيل أنها هبة مقطوعة.

- وفي عام ١٩٨٣م، وبعد أن صدرت مذكرة التفاهم الأمريكي التي اعتبرت (إسرائيل) حليفاً استراتيجياً للولايات المتحدة - دعا الكونجرس إلى توسيع نطاق هذه المذكرة لتشمل الاشتراك مع الإسرائيليين في تصنيع الصواريخ المضادة للصواريخ.

- وفي عام ١٩٨٥م صوَّت الكونجرس بغالبية ساحقة على اتفاق (التجارة الحرة) بين الولايات المتحدة و (إسرائيل)، وكان هذا أول اتفاق من نوعه بين أمريكا وبلد آخر.

- وفي عام ١٩٨٧م، رفض الكونجرس الأمريكي قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الداعي إلى اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، وفي العام نفسه أصدر الكونجرس قراراً بتخصيص اعتمادات مالية لـ (إسرائيل) لكي تطور صاروخاً إسرائيلياً خاصاً بها، وهو الصاروخ (آرو)، بالتعاون مع الولايات المتحدة.

- وفي عام ١٩٩١م، وافق الكونجرس الأمريكي علي إعطاء إسرائيل ٦٦٠ مليون دولار معونة طارئة؛ لمواجهة خطر الصواريخ العراقية التي أطلقت عليها أثناء حرب الخليج.

- وفي عام ١٩٩٢م، وافق الكونجرس على الطلب الذي كان قد تقدم به رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق (إسحاق شامير) لإعطاء (إسرائيل) ضمانات قروض بمبلغ عشرة مليار دولار لإسكان ٦٠٠ ألف مهاجر يهودي وإثيوبي تدفقوا على (إسرائيل) بعد تفكك الاتحاد السوفييتي.

- وفي عام ١٩٩٣م، استجابت الإدارة الأمريكية لضغوط من الكونجرس لتأسيس لجنة ثنائية بين أمريكا و (إسرائيل) لتطوير القاعدة التكنولوجية في القرن الحادي والعشرين.

- وفي عام ١٩٩٥م، أصدر الكونجرس مشروع قانون بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس في موعد أقصاه مايو ١٩٩٩م إلا إذا اقتضت مصلحة الأمن القومي

الأمريكي[1] تأجيله، وهو الموعد الذي كان مضروباً لانتهاء الفترة الانتقالية لعملية السلام على المسار الفلسطيني الإسرائيلي بموجب اتفاقية أوسلو.

- في عام ١٩٩٦م، وبعد عقد المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب [2] في شرم الشيخ أصدر الكونجرس قراراً بإعطاء (إسرائيل) مبلغ مليون دولار مقدمة لمساعدات في برنامج إسرائيل: (الإرهاب في الشرق الأوسط).

- وفي عام ١٩٩٨م، احتفل الكونجرس الأمريكي رسمياً بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشاء دولة (إسرائيل).

- وفي عام ١٩٩٩م، جدد الكونجرس الأمريكي التأكيد على القرار الملزم للرئيس الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية إلى (القدس) بدلاً من (تل أبيب).

- وفي سبتمبر ٢٠٠٠م أعلن في الولايات المتحدة أن الكونجرس يعد مشروع قانون ضد اعتراف الحكومة بدولة فلسطينية.

- وفي أكتوبر ٢٠٠٠م حمَّل أعضاء الكونجرس الفلسطينيين مسؤولية (العنف) الذي اندلع بعد (زيارة) شارون للمسجد الأقصى.

قد يقال إن هذه المواقف مجرد تعبير عن (صداقة) تربط بين شعبين تصل بينهما وشائج الأصرة الدينية المستمرة تقليدياً وتاريخياً أحدهما من الشعب الضال المحتار، والآخر وهو شعب المغضوب عليهم «المختار»، ولا علاقة لهذه الروابط الحميمية بالمشاعر العدائية تجاه العرب والمسلمين!

وهنا تأتي الحقائق من الجهة الأخرى، لتثبت أن الأمر ليس مجرد تعامل أمريكي (نزيه) مع الصديقة (إسرائيل)، بقدر ما هو انعكاس لروح العداوة العميقة ضد الشعوب العربية والإسلامية، وإنه الظلم المركب الذي ترتكبه دولة العدالة والحرية و... وحقوق الإنسان، ضد العدالة والحرية وحقوق الإنسان، وإلا؛ فماذا يعني سكوت الأمريكيين، حكومة وشعباً على هلاك ستمائة ألف طفل عراقي من جراء الحصار الظالم المستمر منذ عشر سنوات؟ وماذا يعني إقرار الأمريكيين وإصرار حكوماتهم على فرض العقوبات الاقتصادية على ثماني دول، منها ست إسلامية وعربية تشملها تلك العقوبات وهي: أفغانستان، والسودان، والعراق، و ليبيا، وأخيراً باكستان، وإيران!

إن تلك العقوبات لا تتضرر منها الحكومات - كما هو معروف - بقدر ما تتضرر منها الشعوب، ومما يبعث على الاشمئزاز أن تكون الحجة الأمريكية الجاهزة لتسويغ ذلك الظلم الواقع على الشعوب أن حكوماتها تشجع على (الإرهاب)؛ أما دولة المسالمة والسماحة (إسرائيل) فلم تشفع لها مذابح دير ياسين، ولا صابرا وشاتيلا، ولا قانا، ولا غيرها في أن تُدرَج - ولو لحظة - في قائمة الدول الراعية للإرهاب! بل لم يُدِنْها عند الأمريكيين (الأحرار) تشريد أربعة ملايين فلسطيني خارج فلسطين، وإذلال ثلاثة ملايين داخلها.

لكل ما سبق - وغيره كثير - نقول: نعم!

---

(١) الذي يُعد الأمن القومي الإسرائيلي جزءاً مهما منه.

(٢) عقد هذا المؤتمر بعد تعرض (إسرائيل) لعدد من العمليات الاستشهادية التي نفذتها منظمة حماس.

ستسقط إمبراطورية الظلم التي أسست من أول يوم على الظلم الذي أوقعه مؤسسوها على الشعوب التي أبادها الأنجلو ساكسون، وضنوا عليها بمجرد حق الحياة في القارة الأمريكية منذ قرنين ونصف!

ولكن .. أتسقط أمريكا في قاع التفكك كما سقط الاتحاد السوفييتي إلى غير بديل قوي، أم تتحول إلى كيان آخر بعد سقوطها تحت قيادة اليهود؟ كِلا الأمرين وارد، ولكن الاحتمال الثاني أقرب، ولقد أبانت تداعيات الانتخابات الأمريكية الأخيرة أن اليهود يتهيؤون لهذه المرحلة، مرحلة تسلم السلطة في أمريكا.

إن من المقولات الدارجة بين الناس أن: «من أعان ظالماً سُلِّط عليه»، ولقد تسبب اليهود في الولايات المتحدة في تمريغ كرامة أمريكا - إن كان لها كرامة - في الوحل؛ فبعد أن تفرج العالم على الفضائح المتلفزة للرجل الأول في أمريكا (بيل كلينتون) على مدى الأعوام السابقة؛ بسبب العاهرة اليهودية (مونيكا لوينسكي)، ها هو ذا العالم يقف مشدوهاً وهو يتفرج أسبوعاً بعد أسبوع إلى ما يقارب الشهر[1] على ديمقراطية الأمريكيين (المثالية) التي تحولت إلى أمثولة تترنح آيلة للسقوط بعد أن كثرت الاتهامات بين الحزبين الرئيسيين بالتزوير والخداع والسرقات الانتخابية التي لم تحسم التهم فيها إلا عن طريق القضاء. فلأول مرة منذ الحرب الأهلية الأمريكية عام (١٨٦١ - ١٨٦٥م)[2]، ينقسم الشعب الأمريكي هذا الانقسام الحاد ليس بسبب العبيد هذه المرة؛ ولكن بسبب الأسياد أو الرؤساء، ولأول مرة يتحدث كثير من المحللين والمراقبين بجدية عن احتمالات تعرض الولايات المتحدة لأزمات دستورية حقيقية، وربما نزاعات أهلية أو انقسامات شعبية تهدد وحدة الولايات المتحدة حاضراً أو مستقبلاً.

لقد انطلقت تلك الأزمة التي ستكون علامة فارقة في التاريخ الأمريكي من بقعة صغيرة جداً من الدولة الأمريكية الكبيرة جداً، إنها إقليم (بالم بيتش) الواقع في ولاية فلوريدا، ذلك الإقليم الذي تسكنه غالبية يهودية من المسنين الأثرياء، وقد قلب هذا الإقليم الطاولة في وجه المرشح الجمهوري (جورج بوش) الابن، انتصاراً لـ (ألبرت أرنولد جور) المرشح الديمقراطي، أو بالأدق لصالح السيناتور (جوزيف ليبرمان)، هذا (اليوسف) غير الصدِّيق، الذي أراد اليهود أن يجعلوه على خزائن الأرض في أعظم دولة على الأرض.

إن المعركة التي أدارها (آل جور) بعناد ضد منافسه (بوش) هي في أحد وجوهها معركة لاستشراف مستقبل قيادة اليهود للولايات المتحدة، وإمكانية أن يتسلل يهوديٌّ - حاضراً أو مستقبلاً - إلى منصب الزعامة لأكبر قوة في العالم. لقد أثبتت تلك المعركة - بغض النظر عن نتيجتها - أن نصف الشعب الأمريكي لم

(١) في وقت كتابة هذا المقال، ١٤٢١/٩/٤هـ - ٢٠٠٠/١١/٣٠م.

(٢) انقسم الأمريكيون في هذه الحرب إلى معسكرين في الشمال والجنوب، بسبب الاختلاف على إلغاء الرق الذي كانت تقوم عليه مصالح الجنوبيين، وخسر الشماليون في تلك الحرب التي استمرت أربع سنوات ٣٦٠ ألف جندي من أصل مليوني جندي شاركوا في أعمال القتال، أما الجنوبيون فقد بلغت خسارتهم حوالي ٢٥٠ ألف من الجنود، وهم يمثلون ثلث عدد مقاتليهم.

يستنكف عن التصويت الحر، والاختيار (الواعي) ليهودي أرثوذكسي متدين لكي يكون رئيساً محتملاً للولايات المتحدة إذا ما غاب (آل جور) أو غُيِّب. ولم يجد الأمريكيون النصارى غضاضة في أن يكون الرجل المتباهي دائماً بيهوديته وتدينه رئيساً لدولتهم. إن وصول الأمريكيين إلى هذه المرحلة من المهانة الدينية أمام من يعدونهم (قتلة المسيح) لم يأت مصادفة ولا دفعة واحدة، وإنما سُيِّروا فيه ضمن مسلسل التخدير الديني الذي يقوم عليه دجالو (الصهيونية والمسيحية) الذين يرون في اليهود ـ رغم كل جرائمهم ـ أمة جديرة بالسيادة وبالقيادة ما داموا سيصبحون يوماً من أتباع المسيح. مرت وجوه يهودية كثيرة على أخطر كراسي المسؤولية الأمريكية في وزارات الدفاع والخارجية والأمن القومي والزراعة وغيرها في عهد كلينتون، حتى إذا ما أنس الأمريكيون بوجوه يهودية قبيحة مثل وجوه كوهين، وأولبرايت وصمويل برجل، ودينيس روس، وغيرهم، أطل عليهم وجه آخر أقبح، ولكنهم لم يلحظوا قبحه، ولم يستغربوا قدومه وتقديمه لنفسه بأنه نائب المنقذ، الجاهز دوماً ليكون هو المنقذ إذا ما غاب من أنابه أو غُيِّب. إذن نجحت التجربة، وجربت (البروفة) سواء كان فارق الأصوات بين بوش وآل جور خمسمائة أو خمسين ألفاً؛ فالمهم أن الأمريكيين قد قبلوا بقدوم الزعامة اليهودية الخالصة، وما على اليهود إلا أن يستعدوا من الآن لتسلم الزمام.

لم ينس ليبرمان ـ وهو يحارب بصحبة آل جور لركوب كرسي الزعامة الأمريكية ـ أن يرسل رسالة جوهرية للزعامة الإسرائيلية وللشعب الإسرائيلي أيضاً، يذكِّرهم فيها أنه على العهد (القديم طبعاً)؛ فقد تعهد في إحدى خطبه الانتخابية في (٢٦/٩/٢٠٠٠م) بأنه سيدعم نقل السفارة الأمريكية إلى القدس حال استقرار الأوضاع الأمريكية بعد ظهور نتائج الانتخابات، وقال: «أنا وآل جور نعتقد أن القدس هي عاصمة إسرائيل، ويتوجب نقل السفارة الأمريكية إليها، ونأمل أن يتحقق هذا قريباً، كجزء من اتفاقية سلام نهائية بين إسرائيل والفلسطينيين».

إن تجربة (آل جور ـ ليبرمان) قابلة للتكرار؛ فما دام المال اليهودي الذي تشترى به الأصوات؛ بل تشترى به المناصب موجوداً فسيظل يهود أمريكا ويهود (إسرائيل) ويهود العالم يحلمون بسقوط أمريكا.. سقوطها في أيديهم. لكن لا بد قبل ذلك من الفراغ من تبديد وحدة أمريكا وتحويلها من ولايات متحدة خلفها زعاماتها النصرانية، إلى ولايات غير متحدة لتنقض عليها وسط فوضى الاختلاف زعامة يهودية تلمودية توراتية، متسنمة ظهر (الفيل) الجمهوري الكسول، أو (الحمار) الديمقراطي الغبي، وليتواصل إلى منتهى التاريخ ذلك التحالف غير المقدس وغير المنطقي بين أمتَي الغواية لإغواء بقية البشر.

حقاً «إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى»[1].

---

(١) حديث أخرجه أحمد في المسند (٤/٣٧٨)، الترمذي، كتاب التفسير، سورة الفاتحة.



حسن الرشيدي

مع احتدام الصراع بين فرسي سباق الرئاسة الأمريكية برز السؤال الأكثر إلحاحاً: هل هناك تغيير سوف تشهده السياسة الأمريكية وتوجهاتها؛ خاصة بالنسبة للسياسة الخارجية وما يتعلق منها بالشرق الأوسط؟

للإجابة على هذا السؤال يجب الإحاطة بكل العوامل التي من الممكن أن تؤثر في التوجهات السياسية الأمريكية، وهي في نظرنا عاملان: طبيعة الرئاسة الأمريكية نفسها ومكانتها داخل مؤسسات صنع القرار في أمريكا، والعامل الآخر الاتجاهات التي تشكل الفكر السياسي الأمريكي.

الرئيس الأمريكي ودوره في صناعة القرار السياسي الأمريكي:

تعتبر مؤسسة الرئاسة واحدة من ضمن عدة مؤسسات تتحكم في صناعة القرار السياسي الأمريكي؛ فهناك المؤسسات الدستورية (الرئاسة، والكونجرس، والجهاز القضائي)، كما توجد أيضاً الأجهزة التنفيذية (كالجهاز الإداري، ومجلس الأمن القومي، ووكالة المخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع، والجهاز الدبلوماسي)، والمجموعة الثالثة التي تتحكم في القرار السياسي الأمريكي: هي الهيئات والجماعات المؤثرة (الأحزاب السياسية والجماعات الضاغطة، والمؤسسات الاقتصادية، ووسائل الإعلام، والاتصال، والجامعات، ومراكز البحوث).

ويتحدد وضع الرئيس داخل النظام الأمريكي من عدة أمور منها التشريعي، والتاريخي، والواقع الأمريكي نفسه:

● فالدستور الأمريكي يجعل من الرئيس المؤسسة الوحيدة التي تتمتع بجميع سلطات الحكومة، وهو وحده الذي يملك سلطة

حق التقرير منطلقاً من قول (إبراهام لنكولن) الذي أعلن به قراره عندما لاحظ مخالفة وزرائه السبعة له: «إن سبعة في هذا المجلس يقولون: لا. وإن واحداً (يعني بها نفسه) يقول: نعم. إذن (نعم) تغلبت على (لا)».

وينص الدستور على أن الرئيس هو القائد الأعلى لجيش الولايات المتحدة وأسطولها، ورغم أن الكونجرس يتمتع بسلطة إعلان الحرب فإنه من الناحية العملية لم يعلن الحرب إلا في خمس مناسبات؛ بينما نفذت القوات الأمريكية - وبأوامر من الرئيس - عشرات العمليات العسكرية دون إعلان رسمي من الكونجرس، وهو ما دفع الكونجرس لإصدار قرار سلطات الحرب عام ١٩٧٤م في محاولة لكبح سلطات الرئيس في مجال إعلان الحرب، ويتضمن القرار المذكور أن يبلغ الرئيس الكونجرس في مدى ٤٨ ساعة إذا ما أرسل قوات عسكرية إلى بلد آخر، وأن يسحبها بعد ٦٠ يوماً إذا لم يقر الكونجرس مبادرة الرئيس.

«ولكن من الناحية العملية فإن القرار العسكري والعمليات الحربية التي تترتب عنه تظل بيد الرئيس إلى حد كبير؛ وذلك لأن فترة الستين يوماً كافية لتنفيذ قرار أو عمل عسكري يكون بالغ التأثير والتدبير بحكم التقدم التكنولوجي الهائل الذي تتميز به القوات المسلحة الأمريكية، كما أن الرئيس يمتلك إمكانيات تقنية وعملية لإقناع الكونجرس بأي قرار عسكري ينوي الإقدام عليه».

● وتبين التجربة التاريخية لعدد من الرؤساء الأمريكيين أن التكوين والشخصية يلعبان دوراً حاسماً في توجيه السياسة الأمريكية؛ فشخصية مثل الرئيس (روزفلت) التي تتميز بالقوة كان لها أكبر الأثر في توجهات الإدارة الأمريكية. وبالمقابل كان لشخصية الرئيس (جيمي كارتر) التي تتسم بالميل إلى عدم المواجهة سواء إزاء الخارج أو مع المساعدين - كان لها دور في بروز العجز في القدرة على التعامل مع القضايا المختلفة؛ بينما أثر التكوين الديني على شخصية الرئيس (رونالد ريجان)؛ إذ كان يطلق عبارات وتقويمات أخلاقية على الأحداث، وشهدت فترة رئاسته صدور عدة قرارات على مستوى داخلي وخارجي لتشجيع النشاط الأصولي المسيحي، وكان يرفع الإنجيل خلال حملته الانتخابية.

أما من ناحية الواقع الفعلي لسلطة الرئيس؛ فهناك جدل كبير يسود أوساط الباحثين في علوم السياسة الأمريكية؛ حيث يبرز اتجاهان:

الأول: يعتبر أن سلطة الرئيس مقيدة بكوابح الدستور التي وُضعت للحد من نزوعه للهيمنة؛ كإجراءات المراقبة، واستقلال السلطتين التنفيذية والتشريعية. كما أن الأجهزة السياسية التنفيذية رغم كونها تابعة رئاسياً لسلطته فهي في الحقيقة تعمل وفق آليات تجعلها مستقلة عن إرادته إلى حد كبير بسبب تدخل قوى ومجموعات اللوبي التي تنسج شبكة من العلاقات التحتية والخفية كالعلاقات بين أعضاء الكونجرس ومسؤولي الأجهزة البيروقراطية، والتحالفات بين جماعات سياسية واقتصادية كالمؤسسة العسكرية والشركات الكبرى وأجهزة المخابرات، وهو ما حدا بالرئيس أيزنهاور في الخمسينيات للإشارة إليه عندما تحدَّث عن وجود تحالف عسكري صناعي؛ ومما يعزز هذا الاتجاه أن الولايات المتحدة دولة ضخمة، ومن باب الاستحالة أن يتمكن شخص من الإحاطة بقضاياها الداخلية والخارجية والهيمنة على مقاليد قرارها السياسي، وهو ما يبرز بشكل خاص في إشكالية التوفيق بين السياسة الخارجية والقضايا الداخلية.

الاتجاه الثاني: يعتبر أن سلطة الرئيس هي المحور الأساسي للنظام الأمريكي، ويستند في ذلك إلى الناحية التاريخية التي ذكرناها سابقاً.

ولكن يبدو أن الرأي الأول هو الغالب بالنسبة لدارسي السياسة الأمريكية؛ حيث يؤيده الواقع الذي يبدو فيه دائماً الرئيس كحلقة ضمن إطار كبير يدور خلاله ولا يتعداه.

الفكر السياسي الأمريكي:

هناك ثلاثة مؤثرات شكلت معاً الفكر السياسي الأمريكي؛ هذه المؤثرات تداخلت فيما بينها وامتزجت لتخرج لنا نسيجاً متواصلاً تتوارثه الطبقة السياسية الأمريكية عبر العقود المختلفة بعد أن شكلت ذاكرة الأمة الأمريكية.

هذه المؤثرات هي: فكر الآباء المؤسسين - التأثير البروتستانتي في السياسة - صانعو الفكر الأمريكي.

أولاً: فكر الآباء المؤسسين:

تعتبر أمريكا دولة حديثة المنشأ؛ ورسخ لدى مؤسسيها أفكار ومبادئ استمرت حتى الآن ترمي بظلالها في الوجدان والفكر السياسي الأمريكي، ومن هذه المبادئ:

مبدأ: المصلحة الذاتية المستنيرة:

وهذا المبدأ هو المفتاح والعامل المحرر لنشاط أمريكا على الساحة العالمية؛ وهو يمثل وجهة النظر للسياسة الخارجية الأمريكية من منظور المدى الطويل، وعلى وجه التحديد؛ فلقد كانت درجة الأفضلية الممنوحة لانتصار استراتيجي طويل المدى بالنسبة إلى ميزة عابرة مرحلية هي التي اتخذت مقياساً للاستنارة والمصلحة القومية؛ فإذا تشبثت قادة دولة بمكاسب قليلة الأهمية وفورية متغاضين عن المصالح الأكثر جوهرية التي يمكن تحقيقها بواسطة التضحية بمكسب مرحلي؛ فإن معنى ذلك أنهم (ليسوا مستنيرين) بما فيه الكفاية، وأن معرفتهم بالأهداف العظمى للطبقة الحاكمة في السياسة الخارجية ضئيلة، وهم لهذا يُخفقون في تطبيق مبدأ (المصلحة المستنيرة)، وحينما تترجم مسلَّمة (المصلحة الخاصة المستنيرة) في السياسة الخارجية إلى لغة الاستراتيجية؛ فإنها تعني الاحتفاظ بحرية المناورة للولايات المتحدة في أي ظرف من الظروف. ويقول جورج واشنطن مطوراً مفهوم حرية المناورة: «لماذا نترك أرضنا لكي نقف على أرض أجنبية؟ لماذا نعرقل سلامنا ورخاءنا بحبائل ومعاداة مصالح أوروبا ومنافساتها في مصالحها وأمزجتها وأهوائها إذا جعلنا مضيرنا ملتحماً بأي جزء من أوروبا؟ إن سياستنا الحقة هي أن نوجه سفينتنا بعيداً عن التحالفات الدائمة مع أي جزء من العالم الأجنبي». ويمضي قائلاً: «إنه يجب اعتبار أي تحالف مع دولة أجنبية مؤقتاً، أي لا تلتزم به الولايات المتحدة إلا إذا كان هذا التحالف مفيداً لتنمية مصالحها، ولكن بمجرد أن يصير هذا التحالف عبئاً على الولايات المتحدة ويزج بها في غمار الصراع من أجل المصالح الأجنبية؛ فإن من الواجب تصفيته وإحلال تحالف آخر مكانه إذا كان ذلك ضرورياً؛ حتى ولو كان ذلك مع عدو الأمس إذا دعت الحاجة إليه للدفاع عن مصالح الولايات المتحدة الخاصة».

مبدأ «القدر المرموق»:

أو المصير الذي سبق به القضاء، أو قضاء الله السابق.

في هذا المبدأ تتجلى العقيدة الدينية النصرانية في السياسة الأمريكية؛ حيث تصور النموذج الأمريكي على أنه (رسالة إلهية إلى العالمين)!

لقد كان الآباء المؤسسون للولايات المتحدة شديدي التدين، وقد وجدوا بالإضافة إلى تسويغ أفعالهم باعتبارات العقل والضرورة الاقتصادية.. إلخ - أن من الواجب التصديق على أن كل ما أنجزته الثورة الأمريكية من جانب سلطة إلهية غير أرضية هي إرادة الخالق، وكل ذلك أدى إلى ولادة مبدأ: (القدر المرموق).

وبما أن الجمهورية الأمريكية - أي النظام الأمريكي وفقاً لتعاليم (الآباء المؤسسين) - أفضل ما تم إيجاده قبل هذه الجمهورية أو النظام؛ فلا بد أن تكون في رأي هؤلاء الآباء نموذجاً ومثالاً لسائر الجنس البشري، نموذجاً على جميع الأمم أن تقتدي به.

ويؤكد (مورجنتاو) بناءاً على ذلك قائلاً: «وهنا يمتزج المفهوم التنصيري عن العلاقة بين وضعنا الداخلي وبين سياستنا الخارجية ليشكلا شيئاً ثالثاً هو الحملات الصليبية؛ فنحن باعتبارنا (مبشرين) برسالة التجربة الأمريكية كنا نقدم مساعدتنا للآخرين وهم أحرار في قبولها أو رفضها. أما نحن وباعتبارنا فرساناً

طيبين فسنفرضها فرضاً على بقية العالم بالنار والسيف إذا كان ذلك ضرورياً، وستكون الحدود العقلية لهذه الحملة الصليبية هي حدود القوة الأمريكية؛ فإن حدودها الممكنة ستكون حدود الكرة الأرضية. لقد تحوّل النموذج الأمريكي إلى صيغة فكرية للخلاص الشامل ستلتزم بها الأمم ذات التفكير الصحيح طوعاً. أما الأمم الأخرى فيجب أن تخضع لها كرهاً».

ومن الحقائق الفعلية كما يسلم (مورجنتاو): «أن فكرة الرسالة الأمريكية إلى شعوب العالم الأقل حظاً، هي بكل تأكيد أيديولوجية سياسية أي هي إضفاء طابع عقلاني وتسويغي على السياسات التي تجري ممارستها لأسباب أخرى هي أسباب أنانية في المحل الأول».

ويقول المؤرخ الأمريكي البارز (جوليوس وبرات) ـ بمزيد من التخصيص ـ: «إن (القَدَر المرسوق) أصبح تسويغاً لأي استيلاء على أرض إضافية يكون لدى الولايات المتحدة النية والقدرة على أخذها».

مبدأ الحرب العادلة:

هذا المبدأ نشأ عن مفهوم إشباع حاجات الشعوب الأخرى من خلال جذبها إلى طريقة الحياة الأمريكية بقوة السلاح؛ فوفقاً لنظرية الرسالة الأمريكية يتم القيام بهذه الأفعال لا لأي غرض آخر سوى تحرير هذه الشعوب؛ ولذلك فأي حرب ـ على وجه الإطلاق ـ تخوضها الولايات المتحدة هي من وجهة النظر الأمريكية حرب تحرير؛ ولذلك فهي حرب عادلة. يقول البروفيسور (روبرت تكر) ـ من جامعة جون هوبكنز ـ: «يمكن اعتبار أي استعمال للعنف وأي وحشية حرباً عادلة».

مبدأ (مونرو):

في عام ١٨٢٣م في رسالة الرئيس (مونرو) إلى الكونجرس قال: «إنه من الآن فصاعداً؛ فإن بلاد القارة الأمريكية لا يمكن اعتبارها موضوعاً للاستعمار من جانب أي دولة أوروبية، ومن حقنا ألا ننظر إلى أي تدخل يستهدف إخضاعها أوالتحكم بأي طريقة أخرى في مصيرها من جانب أي دولة أوروبية إلا في ضوء أنه انعكاس لنوايا غير ودية تجاه الولايات المتحدة».

كان هذا المبدأ أول بداية حقيقية عملية لتدخل أمريكا في العالم، وإن اقتصر على قارتي أمريكا أو نصف الكرة الغربي؛ فإنه طبق المبادئ السابقة باعتبارها نتيجة لها، وأظهر السياسة التي تتبعها الولايات المتحدة عندما تنظر إلى أي جزء من العالم وكأنها منطقة نفوذ لها.

خطاب (مسيرة الراية):

في ١٦ سبتمبر ١٨٩٨م أُلقي خطاب ممتلئ بالحماسة في مدينة (انديانا بوليس) دفاعاً عن السياسة الجديدة للولايات المتحدة، وقد عرف هذا الخطاب في التاريخ الأمريكي باسم: (مسيرة الراية) وكان مُعد هذا الخطاب هو (ألبرت بفريدج) الذي كان مرشحاً لمجلس الشيوخ في انتخابات ذلك العام؛ وكان يعتمد على تأييد الدوائر الصناعية والمالية ذات النفوذ، وقد أعلن: «أن مسألة التوسع الاقتصادي أكبر من أن تكون مسألة حزبية؛ إنها مسألة أمريكية تقول: هل سيواصل الشعب الأمريكي زحفه نحو السيادة التجارية على العالم؟ وهل سنحتل أسواقاً جديدة لما ينتجه مزارعونا، وما تصنعه مصانعنا، وما يبيعه تجارنا؟ إننا اليوم ننتج أكثر مما نستطيع استهلاكه، ونصنع أكثر مما نستطيع استعماله؛ ولذلك يجب أن نجد أسواقاً جديدة لمنتجاتنا».

لقد كان مستقبل السياسة الاقتصادية الأمريكية حيوياً بالنسبة إلى دائرة رجال الأعمال، وفي الشهر نفسه في ذلك العام ظهر في المجلة الأمريكية الشمالية مقال بقلم (تشارلس كونانت) في مجلة نيويورك للتجارة عنوانه: (الأساس الاقتصادي) جاء فيه: «إن الميل الذي لا تمكن مقاومته إلى التوسع الذي يؤدي بالشجرة النامية إلى أن تفجر أي حاجز هو الميل الذي ساق القوط والوندال والساكسون في موجات متعاقبة لا يمكن مقاومتها للتغلب على أقاليم روما المتدهورة. هذا الميل يبدو الآن فعالاً مرة ثانية؛ ولذلك فلا بد من منافذ جديدة لرأس المال الأمريكي، ولفرص جديدة للمشروع الأمريكي. إن قانون المحافظة على النفس وكذلك قانون

البقاء للأصلح يدفعان شعبنا في طريق هو بلا جدال تحوُّل عن سياسة الماضي؛ ولكنه طريق لا يحيد عن أن ترسم حدوده شروط الحاضر ومتطلباته».

استنتاج روزفلت:

في عام ١٩٠٤م أتى (تيودور روزفلت) نظرية العلاقة بين الدول الأمريكية بتفسيره الخاص لمذهب (مونرو)، وقد عرف هذا التفسير في التاريخ باسم: (استنتاج روزفلت) أعلن فيه: «إن تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لأمريكا اللاتينية سيعتبر أمراً مسوغاً قانونياً إذا وجدت هذه البلاد نفسها عاجزة عن القيام بحل مشكلاتها الداخلية، أو إذا قامت من جانبها بأفعال قد تؤدي إلى تدخل الدول الأوروبية في شؤون بلدان في القارة الأمريكية، وإن أي بلد يحسن شعبه السلوك يستطيع أن يعتمد على صداقتنا المخلصة القوية، فإذا أظهرت إحدى الأمم أنها تعرف كيف تسلك بكفاءة ولياقة معقولتين في المسائل الاجتماعية والسياسية، وإذا حافظت على النظام وأدت التزاماتها فهي ليست بحاجة إلى أن تخشى تدخلاً من الولايات المتحدة. أما ارتكاب الأخطاء على نحو متكرر أو حدوث عجز ينجم عنه تحلل لروابط المجتمع المتحضر فقد يتطلب في أمريكا كما يتطلب في أي مكان آخر تدخلاً في النهاية تقوم به أمة متحضرة، كما يتطلب في نصف الكرة الغربي تمسك الولايات المتحدة ـ مهما يكن ذلك على كره منها ـ بأن تلعب دور قوة شرطة عالمية في الحالات الصارخة من ارتكاب الخطأ أو العجز».

هذا الاستنتاج الخطير يؤكد أن الولايات المتحدة هي الوحيدة التي لها الحق المطلق في تحديد شرعية أية أفعال معينة تصدر عن بلاد تكون للولايات المتحدة مصلحة فيها!!

ثانياً: التأثير البروتستانتي في السياسة الأمريكية:

مع نشأة حركة الإصلاح الديني التي قادها (مارتن لوثر) في القرن السادس عشر ضد الكنيسة الكاثوليكية في روما حدث تغيير جوهري للنصارى في موقفهم من اليهود؛ ولذلك يصف بعضهم هذه الحركة بأنها ساهمت في بعث اليهود من جديد. فلقد دعا (لوتر) إلى وجوب إقامة الحقيقة الدينية على أساس الفهم الشخصي دون الخضوع لفهم رجال الدين لها، فأصبح كل بروتستانتي حراً في دراسة الكتاب المقدس وفهمه وتفسيره؛ وفي ظل هذا الفهم ازداد الاهتمام بالعهد القديم (التوراة) تحت شعار العودة إلى الكتاب المقدس باعتباره مصدر العقيدة النقية، مع عدم الاعتراف بالإلهامات والتعاليم غير المكتوبة التي يتناولها البابوات الواحد عن الآخر والتي تعتبر مصدراً مهماً من مصادر العقيدة المسيحية، وهكذا أصبح العهد القديم يشكل جزءًا مهمًا من مصادر العقيدة البروتستانتية وأصبح هو المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد، ومصدرًا للتعاليم الخلقية والمعلومات التاريخية.

ومن المعلوم أن أغلب التوراة هي عبارة عن سجل لتاريخ بني إسرائيل في فلسطين؛ وبذلك بدا الذهن البروتستانتي مهيأً للاعتقاد بأنه لم يكن في فلسطين إلا الأساطير والقصص التاريخية الواردة في العهد القديم والتي منها ارتباط اليهود بفلسطين وضرورة عودتهم إليها.

وعندما بدأ الاستيطان الأوروبي لأمريكا كان معظم المهاجرين الجدد من البروتستانت الذين فروا من الاضطهاد الديني الذي ساد أوروبا في ذلك الوقت، وكان هؤلاء يحملون معهم تراثهم الديني مستمداً من العهد القديم الذي أخذ يلعب دوراً رئيساً في تشكيل الفكر الأمريكي في ذلك الوقت، ومما قوى من أهمية هذا الدور هو ربط هؤلاء المستوطنين بين تجاربهم التي مروا بها منذ رحيلهم من أوروبا وإنجلترا ـ بالذات ـ وبين التجارب التي مر بها اليهود القدماء عندما فروا من ظلم فرعون إلى أرض فلسطين؛ فهم مثلهم مثل اليهود فروا من الظلم بحثاً عن الأرض الموعودة التي تدر لبناً وعسلاً، وجابهوا الصعاب في رحلتهم عبر المحيط كما حدث لليهود في صحراء سيناء؛ كما أنهم جُوبهوا بمقاومة السكان الأصليين كما جُوبه اليهود بمقاومة أهل

فلسطين، وعندما كانوا يعلنون الحرب على أصحاب البلاد الأصليين كانوا يستحضرون العهد القديم؛ حيث ثمة تشابه بين تجاربهم في حربهم مع الهنود الحمر وتجربة اليهود في حربهم ضد الفلسطينيين.

لقد عانوا من الانقسام ومن تجارب الحرب الأهلية المريرة كما حدث مع اليهود القدماء عندما انقسمت مملكتهم إلى مملكتين: إحداهما في الشمال، والأخرى في الجنوب. لقد كان هؤلاء المستوطنون يعلمون أن الأرض التي استولوا عليها من سكانها الأصليين ليست أرضهم؛ كما أنهم يعلمون أن ما يقومون به من عمليات اضطهاد وقتل وتشريد للسكان الأصليين يتنافى مع أبسط المبادئ الأخلاقية؛ فكانوا لذلك بحاجة إلى شيء يسوِّغ لهم أفعالهم هذه، ويضفي عليها نوعاً من الشرعية والأخلاقية ولو مزيفة، فلم يجدوا لها التسويغ إلا في العهد القديم.

فكما أن اليهود القدماء سوَّغوا احتلالهم لفلسطين بالادعاء بأنها الأرض الموعودة التي وهبها الله لشعبه المختار كما يقولون؛ فإن هؤلاء المستوطنين فعلوا الشيء نفسه بالادعاء بأن الله اختار العنصر الأنجلوسكسوني الأبيض لقيادة العالم. ويكتب (هيرمان ملفيل) في بداية القرن التاسع عشر متحدثاً عن الشعب الأمريكي؛ حيث قال: «نحن ـ الأمريكيين ـ شعب خاص، شعب مختار، وإسرائيل العصر الحاضر».

وفي الثمانينيات من القرن العشرين تنامى التيار المسيحي المؤيد لليهود؛ خاصة بعد أن امتد نفوذه إلى عقول الملايين وجيوبهم، وامتلك شبكات تلفزيونية وإذاعية هائلة وبتقنية متقدمة للغاية استخدم معها أساليب الاستعراض التلفزيوني فيما أطلق عليه: (الكنيسة التلفزيونية) أو: (الديانة في الأوقات المناسبة).

وعندما عقدت منظمة (إيباك) اليهودية مؤتمرها السياسي السنوي في عام ١٩٨١م ألقى السيناتور (روجر جبسون) كلمة أمام المؤتمر قال فيها: «إن من أسباب تأييدي الحيوي الذي لا يتغير لإسرائيل هو ديني المسيحي... إن المسيحيين وبخاصة الإنجيليين هم أفضل أصدقاء إسرائيل منذ ولادتها الجديدة عام ١٩٤٨م، أعتقد أن أسباب البركة في أمريكا عبر السنين أننا أكرمنا اليهود الذين لجؤوا إلى هذه البلاد، وبورك فينا؛ لأننا دافعنا عن إسرائيل بانتظام، وبورك فينا؛ لأننا اعترفنا بحق إسرائيل في الأرض».

وهذا أيضا (جيري فالويل) ـ زعيم منظمة الأغلبية الأخلاقية، والصديق الشخصي لمناحيم بيجين وإسحاق شامير ـ يجسد الصلة المتنامية بين البروتستانتية واليهودية حين قال في كتاب صدر له بعنوان: (جيري فالويل واليهود): «إن إسرائيل تحتل الآن مكان الصدارة في نبوآت الكتاب المقدس، وإني أؤمن أن عهد الوثنيين ـ يقصد المسلمين ـ قد ولى بسيطرة اليهود على الأرض المقدسة في عام ١٩٦٧م، وإني على قناعة بأن معجزة إنشاء دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨م كان بفضل العناية الإلهية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وأن الإله وعد مراراً في العهد القديم بأنه سيجمع الشعب اليهودي في الأرض التي وعدها إبراهيم، وأعني بها أرض إسرائيل الآن، ولقد أوفى الإله بعهده».

و(جيري فالويل) هذا يقوم بإنتاج برنامج ديني اسمه ـ ساعة من أزمان الإنجيل ـ يتم إذاعته من ٣٩٢ محطة تلفزيونية، ومن حوالي ٥٠٠٠ محطة إذاعية كل أسبوع، كما أنه يقوم بتنظيم رحلات إلى إسرائيل للمسيحيين الذين ولدوا من جديد كما يزعم.

لقد نجح هذا التيار المسيحي في الحصول على ما يريد في أغلب الأحيان بسبب تنظيمه وتوحيد جهوده من خلال منظمات وجمعيات منتشرة في طول أمريكا وعرضها يزيد عددها على أكثر من ٢٥٠ منظمة وجمعية، من أبرزها منظمة (الأغلبية الأخلاقية)، ومؤسسات (روبرتسون) الإعلامية التي تمتلك محطة تلفزيون الشرق الأوسط في جنوب لبنان، ومؤسسة (السفارة المسيحية الدولية)، ومؤسسة (المعبد)، وجماعة (حق الدين)، وغيرها.

ولم يقتصر الدعم الأمريكي لإسرائيل على المستوى الشعبي، بل امتد إلى المؤسسات الصانعة للقرار السياسي وعلى رأسها مؤسسة (الرئاسة).

فهذا الرئيس (توماس جيفرسون) واضع وثيقة استقلال أمريكا يقترح أن يمثل رمز الولايات المتحدة الأمريكية على شكل أبناء إسرائيل تقودهم في النهار غيمة، وفي الليل عمود من النار بدلاً من الرمز المعمول به حالياً؛ وواضح من هذا الشكل المقترح أنه يتفق مع النص الوارد في التوراة الذي يقول: [كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب يهديهم في الطريق، وليلاً في عمود نور ليضيء لهم].

ولعب الرئيس (ويلسون) دوراً رئيساً في صدور وعد بلفور؛ حيث شارك في الاتصالات التي سبقت صدور الوعد، وفي عام ١٩١٨م قال (ويلسون): «أعتقد أن الأمم الحليفة قد قررت وضع حجر الأساس للدولة اليهودية في فلسطين بتأييد تام من حكومتنا وشعبنا»، كما بعث برسالة إلى الحاخام (ستيفان وايز) رحب فيها بالتقدم الذي أحرزته الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي البلدان الحليفة، وكان يقول دائماً: «إن ربيب بيت القسيس (يقصد نفسه) ينبغي أن يكون قادراً على المساعدة في إعادة الأرض المقدسة إلى أهلها».

لم يرافق التأييدَ الشعبيَّ الأمريكي الجارف للحركة اليهودية موقفٌ عملي واضح للحكومة الأمريكية؛ لأنه في الفترة قبل الحرب العالمية الثانية كانت بريطانيا تقدم كافة التسهيلات والمساعدات لليهود على أكمل وجه، ولكن (روزفلت) رئيس أمريكا أبدى في هذه الفترة تعاطفاً مع اليهود؛ فقد اتخذ نجمة داود شعاراً رسمياً للبريد والخوذات التي يلبسها الجنود وعلى أختام البحرية الأمريكية، وعندما تولى (ترومان) منصب الرئاسة خلفاً لروزفلت طلب من رئيس الوزراء البريطاني إدخال مائة ألف يهودي إلى فلسطين، وفي عام ١٩٤٦م قال ترومان: «إن تأييد وطن قومي لليهود كان دائماً من صلب السياسة الأمريكية المنسجمة مع نفسها».

وكان (ترومان) هذا أول من اعترف بدولة إسرائيل بعد دقيقة من قيامها، وتوالى بعد ذلك الدعم والمساعدات، فعلى سبيل المثال بلغت المنح التي قدمتها أمريكا لإسرائيل - من عام ١٩٥٠م وحتى ١٩٥٩م -: (٤٠٣٥ مليون دولار، وقروضاً بلغت ٣٦٩ مليون دولار، ومساعدات فنية بـ ٣٥ مليون دولار، وأجهزة علمية قيمتها ١٠ ملايين دولار، واستثمارات بـ ٩٥ مليون دولار، وحصيلة بيع السندات الإسرائيلية وصلت إلى ٣٤٧ مليون دولار)، هذا عدا الإعفاءات من الضرائب والرسوم التي تمنحها الحكومة الأمريكية على ما يصل من اليهود، وما يتم جمعه عن طريق الجمعيات والمنظمات الأمريكية المؤيدة لإسرائيل.

وبينما نلاحظ أن فترة الرئيس كنيدي كانت من الفترات النادرة التي تم فيها ضبط السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي، حيث كان يرى: «أن الانحياز الأمريكي في الصراع العربي الإسرائيلي لا يهدد الولايات المتحدة فحسب؛ بل يهدد العالم بأسره»، والتفسير المنطقي لهذا أن الرئيس كنيدي كان الرئيس الكاثوليكي الوحيد في تاريخ أمريكا.

وفي عهد (جونسون) حصلت إسرائيل على صفقات كبيرة من الأسلحة والمعدات التي مكنتها من هزيمة الجيوش العربية في عام ١٩٦٧م، وفي عام ١٩٦٨م صرح جونسون أمام جمعية (بنات برث) قائلاً: «إن بعضكم إن لم يكن كلكم لديكم روابط عميقة بأرض إسرائيل مثلي تماماً؛ لأن إيماني المسيحي ينبع منكم، وقصص التوراة منقوشة في ذاكرتي تماماً؛ مثل قصص الكفاح البطولي ليهود العصر الحديث من أجل الخلاص من القهر والاضطهاد».

لقد ساهم انتصار اليهود في حرب ١٩٦٧م في تزايد التيار البروتستانتي المؤيد لإسرائيل باعتبار أن ما حدث على أرض فلسطين ليس سوى تحقيق لنبوآت توراتية ولمشيئة إلهية؛ فانظر مثلاً لعناوين صحف أمريكا في هذه الفترة: (وانتصروا في اليوم السابع)، (حرب

إسرائيل المقدسة)، (عملية السيف البتار)، (داود وجوليات) (اضربي يا صهيون).

وبالرغم من أن اليهود لم يعطوا نيكسون سوى ١٧٪ من أصواتهم أثناء انتخابات الرئاسة؛ فقد كان من المتأثرين بالأفكار والنبوآت التوراتية إلى حد أن قال: إنه مستعد أن ينتحر سياسياً أكثر من أن يستعد لإلحاق أي ضرر بإسرائيل.

وعندما وصل (كارتر) لحكم أمريكا كان أول ما صرح به هو التزامه بأمن إسرائيل؛ ففي مؤتمر صحفي عام ١٩٧٧م، قال: «إن لنا علاقة خاصة مع إسرائيل، وإنه من المهم للغاية أنه لا يوجد أحد في بلادنا أو في العالم أصبح يشك في أن التزامنا الأول في الشرق الأوسط إنما هو في حماية إسرائيل في الوجود.. الوجود إلى الأبد.... والوجود بسلام؛ إنها بالفعل علاقة خاصة».

وفي عام ١٩٧٩م فسَّر كارتر الخصوصية في هذه العلاقة؛ حيث قال: «إن علاقة أمريكا بإسرائيل أكثر من علاقة خاصة؛ لقد كانت وما زالت علاقة فريدة لا يمكن تقويضها؛ لأنها متأصلة في وجدان الشعب الأمريكي نفسه وفي أخلاقه وديانته ومعتقداته».

وفي احتفال أقامته - على شرفه - جامعة تل أبيب وضَّح هذا الأمر أكثر بقوله: «إنه بوصفه مسيحياً مؤمناً بالله يؤمن أيضاً بأن هناك أمراً إلهياً بإنشاء دولة اسرائيل». لقد كان كارتر معلماً وشماساً في مدرسة الأحد، ويساهم كل أسبوع لإيقاظ الروح الدينية في المجتمع.

أما ريجان فقد صرح بأنه كان يشعر عند الانتخابات الأمريكية بأن المسيح يأخذ بيده، وأنه سوف ينجح ليقود معركة (الأرماجيدون) التي يعتقد أنها ستقع خلال الجيل الحالي في منطقة الشرق الأوسط.

وحين وجه خطاباً إلى يهود أمريكا قال لهم: «حينما أتطلع إلى نبوآتكم القديمة في العهد القديم وإلى العلامات المنبئة بمعركة أرماجيدون - أي نهاية العالم - أجد نفسي متسائلاً عما إذا كنا نحن الجيل الذي سيرى ذلك لاحقاً، ولا أدري إذا كنت قد لاحظت مؤخراً أياً من هذه النبوآت، ولكن صدقني إنها تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه».

وعندما جاء (كلينتون) أثرت خلفياته الدينية على موقفه من إسرائيل؛ فهو يحكي تأثره كثيراً بموت أحد رجال الدين النصارى حيث كان هذا القس تحدث إلى كلينتون قبل موته قائلاً: «إنه - أي القس - يأمل في أن يصبح كلينتون رئيساً للولايات المتحدة؛ ولكن يجب عليه المحافظة على إسرائيل»، لقد وضح التحالف البروتستانتي اليهودي جلياً خلال محادثات كامب ديفيد الأخيرة؛ حيث ذكرت الصحف قول كلينتون لعرفات: «إن المسيحيين في العالم كله يقدسون جبل الهيكل»، ويقصد به مكان المسجد الأقصى، وكان ذلك ردًا على عرفات الذي ادعى أنه لا يستطيع التنازل عن الأقصى؛ لأنه مقدس عند المسلمين.

إن علاقة الرؤساء الأمريكيين بإسرائيل يصدق عليها قول الكاتب اليهودي الأمريكي جون بيتي الذي قال: «إن الرؤساء الأمريكيين ومعاونيهم ينحنون أمام اليهود كما ينحني المؤمن أمام قبر مقدس».

أما (جورج بوش الابن) فحضر وزوجته قداساً في مدينة (جاكسونفيل)؛ حيث حصل على تأييد علني من أحد مشاهير رجال الدين الأمريكيين ويدعى (بيلي جراهام)، ويقول بوش: «إن الفضل يرجع لجراهام في هدايته وإقناعه بالتمسك بتعاليم الديانة المسيحية في عقد السبعينيات».

وقال جور - عندما بدأ حملته - بأنه ينوي حمل قيمه الإيمانية، وحرصه على الترابط الأسري معه إلى سدة الرئاسة.

ثالثاً: التأثير الفلسفي على السياسة الأمريكية:

لقد تبنى الأمريكيون نهجاً براجماتياً في السياسة والحياة؛ حيث الغاية والنجاح فيها هما الحَكَم والفيصل؛

ولم تكن السياسة ـ من الناحية العملية وليست النظرية ـ أبداً معركة بين الخير والشر، بل هي صراع مصالح والمصالح متغيرة، ولذا فإن السياسة شانها شان التجارة والأعمال لا تلتزم بمبادئ ثابتة، بل تلتزم بالمصلحة؛ فجورج بوش الابن على الرغم من محافظته الشديدة فهو يحاول جاهدًا أن يستقطب الجهات الأخرى من خلال تسمية نفسه بـ «المحافظ المتعاطف»، وفي هذه التسمية إشارة إلى أنه سيكون لينًا ومتعاطفًا عندما يستلزم الأمر. فمثلاً، بخصوص موضوع زواج الشذوذ يُظهر بوش اعتراضه الشديد ورفضه القاطع لمثل هذه المسالة، ولكنه في الوقت نفسه يُظهر «تعاطفه» عندما يُضيف قائلاً: «إن كل إنسان لا بد أن يُعامل باحترام وكرامة». وهكذا «يتحايل» بوش بحذق ومهارة كي يكسب المعركة ضد خصمه آل جور؛ فهو ـ أولاً وأخيرًا ـ يرغب في الفوز.

والحقيقة الثابتة في الفكر السياسي الأمريكي أنه إذا ما اقتضت السياسة الخارجية تعديلاً في المبدأ السياسي الداخلي؛ فإن هذا التعديل سرعان ما يتحقق؛ وهذه حقيقة عبر عنها جيفرسون قائلاً: «إن ما هو عملي يجب أن تكون له الغلبة والسيطرة على النظرية الخالصة».

لقد حاول كثير من الفلاسفة الأمريكيين صياغة الفكر الأمريكي وخاصة السياسي منه، فكان أشهرهم (شارلز بيرس، ووليم جيمس، وسكينر)، هؤلاء الثلاثة صاغوا نظريات استمدت من المذهب البراجماتي أساساً لها، وسار عليها أغلب صناع السياسة الأمريكية.

فبيرس يتساءل: «ما هي أهمية فكرة ما؟» ويجيب عليها: «طريقة السلوك المتولدة عنها» أي النتائج العملية المتولدة عنها؛ فالسلوك أو المصلحة إذا تحققت كانت الفكرة جيدة، ولكن: «كيف نمنع الناس من التفكير الخاطئ؟» يقول بيرس: «لندع الدولة تعمل بدلاً من إرادة الفرد، ولننشئ مؤسسة هدفها أن تضع نصب أعين الناس مذاهب صحيحة تجعلهم يرددونها دائما وأبداً ودون انقطاع، ونلقنها للصغار، وأن تكون لها في الوقت نفسه القدرة على حظر تعليم أي مبادئ معارضة.... ولنجعل كل أولئك الذين ينبذون الفكر الرسمي للسلطة يلزمون جانب الصمت في هلع، ولندفع بالناس لكي يمزقوا هؤلاء أو لنجري تحريات وتحقيقات عن طريق تفكير المشتبه فيهم؛ وإذا تبين أنهم مذنبون وآمنوا بمعتقدات محظورة فلنوقع عليهم عقوبة ما، وإذا لم ننجح في ذلك فلنبدأ مذبحة عامة لكل من لم يفكر على هذا النحو»، ولنا أن نسأل: أليست هذه البضاعة الأمريكية التي استوردتها بعض سلطات عالمنا الإسلامي لتثبيت الأفكار الأمريكية؟!

أما (وليم جيمس) فهو في نظر الشعب الأمريكي صاحب نظرية الحرية؛ ولكن أي حرية يريدها جيمس؟ إنه يوضح أن الحرية هي الفوضى؛ فما يراه الفرد مصلحة له فله أن يفعله، وما تراه أمة أنها مصلحتها فلها مطلق الحرية في جلبها دون مراعاة مصالح الآخرين، وهذه المصلحة ليست رهناً بالحقوق أوالوثائق أو وقائع التاريخ، بل هي رهن بالمنفعة، فمثلاً إذا رأت إسرائيل أن منفعتها ومصلحتها في إنكار أي قيمة للشعب الفلسطيني؛ فإن ما تقوله صواب، وهو أيضاً الخير.

ويجيء في الختام (سكينر) الذي تبلورت على يديه النظرية الفلسفية كاملة؛ فعند (بيرس) يمكن التحكم في سلوك الناس بجعل السلوك الذي نريده منهم عادة، وجاء (جيمس) لينقلنا خطوة أخرى؛ حيث ذكر أن الإنسان كالحيوان عبارة عن حزمة من العادات؛ والعادات التي يكون ثمة ميل فطري لها نحوها تسمى غرائز. أما بعض منها مما يرجع إلى التعلم فيسمى أفعال عقل.

وأخيراً فقد وضع (سكينر) القواعد التي يمكن بها الإجابة عن سؤال: كيف يمكن التأثير في عادات العقل للناس للتحكم في سلوكهم؟ أجاب سكينر عن ذلك بما يسمى تكنولوجيا السلوك التي هي عنده: «أداة لتغيير الإنسان من الخارج؛ فهو الربط بين المثوبة والعقوبة

لتكوين ذخيرة سلوكية لدى الإنسان على نحو ما نرى في التجارب على الحيوانات»، وهذا ما يطبق بالفعل في نظام الإعلانات التي تتكرر لترسخ اسم سلعة في الأذهان وتتحول إلى وسواس يدفع المشاهد قهراً إلى الشراء والاقتناء، أو على ما نرى في عمليات غسيل المخ من خلال التعذيب والدعايات المتكررة في مجال الأمن السياسي، وهي أساليب دعمتها وسائل التطور التكنولوجي التي يطلق عليها الآن اسم: برمجة الأفكار.

هناك ما يبدو تناقضاً في الفكر بين التأثير الديني البروتستانتي، وبين هذا الفكر الفلسفي القائم على البراجماتية، وهذا بلا شك يحدث تناقضاً وصراعاً بين هذين النقيضين في عقلية السياسي الأمريكي، ولكن عند التأمل في القرار السياسي الأمريكي نجد التأثير الديني يتركز في صياغة الغايات والأهداف، أما البراجماتية فهي عند التطبيق العملي واستخدام الوسائل الموصلة لتلك الغايات.

من خلال استعراض موقع الرئاسة الأمريكي في صياغة عملية صنع القرار السياسي، وخصائص الفكر السياسي الأمريكي، والمؤثرات التي تعمل فيه يمكن اعتبار عدة ثوابت تتحكم في توجهات الرئيس الذي يتولى زمام الأمور في البيت الأبيض؛ بصرف النظر عن انتماءاته لأي من الحزبين الجمهوري أو الديموقراطي:

- أن الرئاسة مرتبطة بمؤسسات تتحكم في عملية اتخاذ القرار في الولايات المتحدة، وإن كانت الرئاسة لها دور كبير، ولكنها تبقى في النهاية مؤسسة ضمن غيرها تشارك في صنع القرار السياسي الأمريكي، ولذلك يمكن إجمالاً عدم تصور حدوث تغيير ذي أثر في مجمل السياسة الأمريكية.

- التأييد الأمريكي لإسرائيل ليس مرتبطا بتأثير اليهود في أمريكا بقدر ما هو مرتبط بالعقيدة البروتستانتية نفسها التي يعتنقها غالبية الشعب الأمريكي؛ وعلى هذا فإن اختيار ليبرمان اليهودي نائباً لجور لا يمكن أن نستنتج منه أن بوش سيكون أقل انحيازاً لإسرائيل؛ فالسياسة الأمريكية في هذه المسألة بالذات يغلب عليها المفهوم البروتستانتي، ولكن ربما يزيد التأييد المسيحي لجور نتيجة لوجود ليبرمان إلى جواره؛ حيث المصلحة البروتستانتية المعروفة في التمكين لليهود في فلسطين.

- أن الفكر السياسي الأمريكي البراجماتي في تعامله مع شعوب العالم الثالث لن يتغير؛ لاستناده لأسس فلسفية ذات جذور في الفكر الأمريكي؛ فهذا الفكر في ممارساته يعتمد على المصلحة حيثما وجدت.

المراجع:

١ - النظم السياسية المعاصرة - عبد الهادي أبو طالب - دار الكتاب - الدار البيضاء.

٢ - صناعة القرار السياسي الأمريكي - منصف السليمي - مركز الدراسات العربي الأوروبي.

٣ - العقل الأمريكي يفكر - شوقي جلال - سينا للنشر .

٤ - تاريخ التدخلات الأمريكية المسلحة - المجلد الأول والثاني - ي. جريجوريفتش - ترجمة سعد الفيشاوي - دار العالم الجديد - القاهرة.

٥ - الصليبيون الجدد - الحملة الثامنة - دراسة في أسباب التحيز البريطاني لإسرائيل - يوسف العاصي الطويل - مكتبة المدبولي.

٦ - جذورالبلاء - عبدالله التل.

٧ - الولايات المتحدة وإسرائيل - برنارد ريتش - ترجمة مصطفى كمال.

٨ - القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني - مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

٩ - قبل أن يهدم الأقصى، عبد العزيز مصطفى.

وقفة بين الخطاب الإسرائيلي والخطاب العلماني العربي

عبد الكريم بن عبد الله بقنه

يلاحظ المتابع للساحة العربية والإسلامية أن (الخطاب الإسرائيلي) يتطابق مع الخطاب العلماني العربي في مسألة تبدو مهمة بل هي غاية في الأهمية؛ إذ تتعلق بازدراء الجماهير الإسلامية واعتبارها جحافل من الدهماء التي تستجيب لخطاب «التطرف» والعنف و «الأصولية» أكثر من استجابتها للخطاب «الحضاري» و «العقلاني» الرافض للأصولية من جهة والمنسجم مع خطاب العولمة أو «الأمركة» بتعبير أكثر دقة وتحديداً؛ حيث إن العولمة أصبحت تعني ديكتاتورية النموذج الأمريكي وهيمنته على العالم، كما يذهب الفرنسي (رجاء جارودي)؛ فالخطاب الأمريكي الإسرائيلي يعتبر الجماهير العربية لا تبدو منسجمة ومتوافقة مع منظومة السلام في الشرق الأوسط؛ فإذن لا بد من الضرب على يديها ومن ثم ترويضها بعد ذلك لقبول خطاب «السلام».

ففي الدول العربية على الحكومة أن تبادر إلى فرض توجهات التطبيع على الشارع العربي، وعدم ترك هذا الشارع لمشاعره الذاتية «تلك التي تحركه في اتجاه الرفض»؛ فعلى النظام أن يلجم التوجهات الرافضة بالقوة بوصفها واقعاً لا بد من القبول به تحت كل الظروف، ومن

جهة أخرى على السلطة الفلسطينية مثلاً ألاّ تسمح بالتوجهات الرافضة والمعارضة بالتعبير عن نفسها بحرية، بل ملاحقتها بضرب بنيتها التحتية وزج ناشطيها في المعتقلات ما دام ذلك ضرورياً لبناء وَهم السلام والثقة المزعومة!

ولكن هل يحدث مثل ذلك في (الجانب الإسرائيلي)؟ بالطبع لا. فإذا تحدث أحد المجاهدين في غزة عن الجهاد باعتباره حلاً وحيداً للتعامل مع (إسرائيل) نجده يصبح قضية ثابتة على أجندة أحاديث كلينتون وأولبرايت، وعلى قادة السلطة اعتقاله دون محاكمة، وذلك بصفته شخصاً خطيراً على تقدم عملية السلام. أما عندما يطالب (حاخام كبير) بالقيام بعمليات انتحارية ضد الفلسطينيين واستحلال دمهم، بعد استحلال أرضهم ومقدساتهم، وعندما تكون ثمة عصابات وجمعيات علنية بعضها موجود في الولايات المتحدة تتحدث عن العنف ونسف عملية السلام، ونسف المقدسات وبناء الهيكل وغير ذلك فإننا لا نجد أحداً يطالب بقمع هؤلاء وفتح باب السجون لهم.

والخطاب العلماني العربي تجده - بوعي أو بغير وعي - ينحو في هذه القضية المنحى الأمريكي الإسرائيلي ذاته؛ فهو يرى أن الجماهير العربية تملك استعداداً وافراً للاستجابة للخطاب الأصولي «المتطرف»، ولا تتوقف القضية عند موضوع التعاطي مع (الشأن الإسرائيلي)، وإنما يمتد إلى الشؤون الأخرى؛ وإلا فكيف يفسر انحياز الشارع العربي أو جزء كبير منه إلى الخطاب الإسلامي وإدارة ظهره للخطاب العلماني «التنويري»؟!

الإشكالية أن الفريقين يتبنيان الدعوة إلى الديمقراطية، وهذه الأخيرة تقول بالقبول برأي الأغلبية؛ فإذا كانت الأغلبية رافضة وتنحاز بالضرورة إلى الرافضين الإسلاميين فما العمل؟

الطرف (الأمريكي - الإسرائيلي) في هذه الحالة لا يبدو حريصاً على القيم الديمقراطية ما دامت القضية عندهم تعني «المصلحة العليا» لهم.

لكن ماذا يفعل الطرف التابع «الطرف العلماني»؟ إنه يجد نفسه ينحاز إلى المهرولين للسلام! بشيء من التأويل وقمع القوانين، بل صياغة قوانين تناسب المرحلة أو تصادر حق الغالبية في تقرير مصيرها، ولكن من خلال صياغة قوانين انتخابية وغير انتخابية تحجم رأي الغالبية بالإكراه.

إنها إذن عملية جر للجماهير إلى مربع «التنوير المزعوم» بالسلاسل، والإبقاء بكل الوسائل على سيوف الناس في جهة وقلوبهم في جهة أخرى؛ غير أن من المستحيل الوصول إلى حالة جعل سيوف الناس وقلوبهم معاً ضد الحق؛ فالجماهير قد تستكين لسلطات القمع، وقد تحمل سيفه عندما تختل موازين القوى، غير أن قلوبها ستظل في الطرف الآخر؛ فمتى يعلم أصحاب الطرح العلماني أن تلك معادلة مستحيلة؟



سياسات الكيل بمكيالين ومـوقف الغـرب من قـضـايا المسلمين

د. عبد الرحمن أمين

حفل القرن الحالي بقضايا ومآسٍ كثيرة غالبها - إن لم يكن كلها - كانت تدور على أرض المسلمين؛ فمأساة فلسطين ما زالت تتفاعل في حنايا كل مسلم ومشاعره؛ كيف لا، وهي أرض معراج نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - وأرض الأنبياء، وأولى القبلتين، وفيها المسجد الأقصى؛ حيث الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة؟ هذه الأرض المباركة سقطت أسيرة في أيدي اليهود الذين قال عنهم الله - سبحانه - : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢]، فما هو موقف الغرب من هذه القضية؟ فالغرب الذي يدَّعي الحضارة والتطور والديمقراطية والانفتاح وقف وقفة ظالمة منذ أن بدأت هذه القضية تظهر على مسرح أحداث العصر الحديث، وبدلاً من الانتصار للحق ونصرة المظلوم راح وبكل الوسائل يفرض سياسة الأمر الواقع على أصحاب الأرض الحقيقيين، وينتصر لمغتصب الأرض ابتداءاً من وعد بلفور المشؤوم، ومروراً بالحروب التي دارت بين اليهود وجيرانهم من العرب، حتى آلَ الحال إلى ما هو عليه الآن، والبقية معروفة للجميع.

الصراع مع الهندوس:

ثم برزت بعد ذلك قضايا إسلامية أخرى وفي مناطق أخرى من الأرض الإسلامية من أبرزها قضية كشمير، وفي هذه المرة فإن الصراع ليس بين اليهود والمسلمين، وإنما بين الهندوس والمسلمين؛ فما كان من الغرب إلا المسارعة للوقوف بجانب عبدة البقر مع وجود الفارق الكبير بين الحضارتين؛ ولا سيما أن أهل الغرب محسوبون على أهل الكتاب، والهندوس عبدة أوثان.

ثم طلعت علينا قضية أخرى أحداثها هذه المرة تدور في قلب أوروبا وهي قضية البوسنة.

قضية أخرى بل مأساة؛ فما أن استطاع المسلمون الإفلات من قيد الشيوعية الذي دام أكثر من سبعين عاماً حتى وجدوا أنفسهم أمام عالم لا يهمه سوى المصالح المشتركة ودائماً على حساب الطرف الأضعف وهم المسلمون للأسف، ولم يقترف مسلمو البوسنة أي ذنب سوى رغبتهم في العودة إلى دينهم واسترداد هويتهم المسلوبة من قِبَل أعدائهم، فجاءهم الرد كالصاعقة: لا للإسلام في أوروبا ولا سيما إذا كان هذا الإسلام بصورة دولة أو تجمُّع أو كيان؛ فأخذ الصرب الأرثوذكس على عاتقهم مهمة تصفية شعب بأكمله وسحقه على مرأى ومسمع من أدعياء الحضارة والتمدن في بلاد الغرب، فاستمرت خطة القتل والإبادة ثلاث سنوات ولغ فيها الحاقدون في دماء الأبرياء العزل، ولما انتفض المسلمون ليدافعوا عن دينهم وأعراضهم وبدؤوا يحققون الانتصارات وجد الغرب نفسه في حرج شديد؛ فهنا لا بد أن يتدخل ليحسم الأمر قبل أن ينفلت الزمام وينقلب السحر على الساحر، فأوقفوا الحرب؛ ولكن بعد أن ارتوت وديان البوسنة وسهولها بدماء الأبرياء من النساء والأطفال، وبعد أن هتكت أعراض الآلاف من المسلمات وهن يندبن حظهن وينتظرن معتصماً ليثأر لهن، ولكن أين نحن من زمان استأسد فيه الفأر ونام فيه الأسد؟ وأين نحن ممن هان على كثيرين دينهم؛ فهان عليهم كل شيء؟ وصدق الشاعر حينما قال:

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلام

والغريب في الأمر أن طريقة الأعداء في معاملة المسلمين هي نفسها، سواء كانت في البوسنة أو كشمير؛ فقتل الأبرياء وهتك الأعراض وارتكاب المجازر هي السمة المشتركة للقضيتين.

جرح كوسوفا والموقف نفسه:

ثم جاءت قضية كوسوفا، وبدا الغرب هذه المرة أكثر جدية من سابقتها، واستعمل طريقة جديدة في معاملة الصرب وهو الضرب عن بعد، ولكنه رفض أن يتدخل على الأرض حتى أكمل الصرب مخططهم في إذلال مسلمي كوسوفا وكسر شوكتهم بذات الطريقة التي استعملها في البوسنة، وفي نهاية المطاف قال الغرب كلمته: لا لدولة مسلمة في كوسوفا ولا للاستقلال؛ فبقيت قضية كوسوفا كقضية البوسنة معوَّمة ضائعة، وبالمقابل فتحت الأبواب أمام المنظمات التنصيرية لغزوها بعد أن غزتها جيوشهم؛ فما داموا هم لا يريدون دولة مسلمة في أوروبا فلعلها تكون دولة نصرانية وحينها يكون لكل حادث حديث.

انتصار لنصارى إندونيسيا:

وفي هذه الأثناء برزت إلى السطح قضية جديدة ولكن من نمط آخر؛ فالأرض أرض مسلمة، ولكن أبطالها هذه المرة نصارى.. إنها تيمور الشرقية التابعة لدولة إندونيسيا المسلمة؛ فبعد أن تنازلت عنها البرتغال رجع الغرب ليطالب بانفصالها واستقلالها عن إندونيسيا، وهنا يبرز وبكل وضوح لا مراء فيه منهاج الكيل بمكيالين الذي يزن به الغرب أمور المسلمين؛ فهذه المرة بادر الغرب وبسرعة متناهية فأصدر القرارات تلو القرارات لاستقلال هذه البقعة عن إندونيسيا، وأصر على استقلال تيمور الشرقية وبأي ثمن. وللعلم فقط؛ فإن النصارى في تيمور الشرقية كانوا طيلة الفترة السابقة يشنون حرباً منظمة ضد إندونيسيا حتى ظفروا بمرادهم وأنشؤوا دولتهم في قلب أكبر بلد مسلم.

مأساة الشيشان وهمجية الروس:

هكذا تتوالى الأحداث وتتسارع، وفي كل مرة

نسمع عن قضية جديدة: مرة في الشرق، وأخرى في الغرب. والغريب دوماً أن الضحية هم المسلمون، فجاءت قضية الشيشان لتتوج هذه الأحداث؛ فبعد أن طالب شعب بأكمله بالاستقلال عن دولة متهرئة متمزقة ومتقطعة الأوصال، وحينما بدأ يحكم نفسه بنفسه وجد أن أمر الاستقلال بعيد بُعد المشرقين في موازين الغربيين؛ فإنه لا يتناسب مع نظريتهم القائلة: لا لدولة إسلامية في أرض أوروبا؛ ففي الوقت الذي ساعد الغرب على إقامة دول نصرانية في بقايا الاتحاد السوفييتي وقف وقفة صارمة رافضة لأي فكرة مبناها إقامة دولة مسلمة في إحدى بلدان القوقاز المسلم، وماذا كان موقف الغرب الحضاري حامي حمى العدل والحرية من الحرب الأخيرة التي تشن ضد الشيشان، وهو يذبح بالإيعاز من زعيم أرثوذكسي مخمور؟ لم يكن موقفه سوى إشارات هزيلة باهتة تدعو إلى عدم الإكثار من استعمال الأسلحة المحرمة؛ لأنه يتنافى مع الاتفاقيات المعقودة سابقاً! وها نحن نعيش مأساة جديدة من مآسي المسلمين، يذبح فيها الأطفال والنساء والشيوخ ذبح النعاج ليثبت الغرب وبكل جدارة أنه أمثل من يجيد لعب دور المتفرج في قضايا المسلمين، وأفضل من يطبق شعار الكيل بمكيالين في حق الشعوب المسلمة. ولكني أرجع فأقول: إن هذه المواقف سيكتبها التاريخ حتماً، والأيام دول، والله ـ تعالى ـ خالق الخلق، ومالك الملك ومدبر الأمر هو القائل ـ جل وعلا ـ: ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فما علينا ـ نحن المسلمين ـ إلا التحلي بالصبر والعودة إلى الدين، والأخذ بأسباب النصر والتمكين، والعمل بكتاب الله وسنة نبيه الأمين ـ عليه الصلاة والسلام ـ واللجوء إلى مفرج الكربات وقاضي الحاجات ربِّ العزة والجلال؛ أما قال عنهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠] فلا ننتظر منهم إنصافاً أو إحقاقاً لحق وإن زعموا أو تظاهروا بغير ذلك.

إن الأحداث سالفة الذكر وغيرها من الأحداث هزَّت وما زالت تهزُّ كيان الأمة ووجدانها، وصارت تؤرق المخلصين منها وتقض مضاجعهم وهم يحاولون أن يجدوا حلاً لما آل إليه حالها باحثين عن الأسباب التي أدت إلى تمكن عدوهم منهم وإدالته عليهم بعد أن كانت الدولة لهم. ولكن علينا الأخذ بالحذر الشديد ولا سيما في مثل هذه الظروف الصعبة من دخول الشيطان علينا محاولاً ـ كعادته ـ تثبيط العزائم، وإضعاف الهمم، وزرع اليأس والقنوط في نفوس أبنائنا وهم يرون حال الضعف والهوان التي تمر بنا؛ فما تمر الأمة المسلمة به الآن هو حلقة من حلقات التاريخ الإسلامي الحافل بالأمجاد والبطولات والنصر المؤزر، ولقد مرت في ماضي عهدها بظروف صعبة وقاسية، ما لبثت أن خرجت منها وهي أقوى عوداً وأصلب عزيمة وأكثر تفاؤلاً بتحقيق الأمل المنشود؛ وهنا أتركك أخي القارئ مع كلمات لإمام كان له يوماً شرف المشاركة في إيقاظ همم الأمة والخروج بها من ظروفها الحالكة، ولنسمع ولنصغ إلى تفسيره لمثل هذا الواقع، وكيف يجيب عن التساؤلات التي قد تخطر ببال أحدنا لنزداد يقيناً بأن مصير الأمة بيد بارئها، وأن أقدار الله لا محالة نازلة، وحِكَمه نافذة، والله غالب على أمره، وأن العاقبة للمتقين ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه وغلبته له، وأذاه في بعض الأحيان أمر لازم لا بد منه وهو كالحر الشديد والبرد الشديد والأمراض والهموم والغموم؛ فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة

الإنسانية في هذه الدار حتى للأطفال والبهائم لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين»[1].

فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر والنفع، وعن الضر واللذة، وعن الألم لكان ذلك عالماً غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار؛ وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار؛ كما قال - تعالى -: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحياناً فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله - عز وجل - فمنها استخراج عبوديتهم وذلهم لله، وانكسارهم له، وافتقارهم إليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائماً منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا، ولو كانوا دائماً مقهورين مغلوبين منصوراً عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة ولا كانت للحق دولة.

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن صرّفهم بين غلبهم تارة وكونهم مغلوبين تارة، فإذا غُلبوا تضرعوا إلى ربهم وأنابوا إليه، وخضعوا له، وانكسروا له، وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوه ونصروا أولياءه. ومنها أنهم لو كانوا دائماً منصورين غالبين قاهرين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول؛ فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدُّولة تارة، وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه، وقال ابن القيم أيضاً: «ومنها أن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم، ويهذبهم كما قال الله - تعالى - في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤٢]». ثم قال ابن القيم أيضاً: «ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء؛ فإن الشهادة درجة عالية عنده ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه وأنفعها للعبد، ثم أخبر - سبحانه - أنه يريد تمحيص المؤمنين أي تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم بالعدو، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم إذا انتصروا. ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم ودخول الجنة بغير جهاد ولا صبر، وإن حكمته تأبى ذلك؛ فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائماً منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم. فهذه بعض حكمه في نصرة عدوهم عليهم وإدالته في بعض الأحيان».

والحمد لله رب العالمين

(١) إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، ج ٢، ص ٢٧٢ - ٢٧٥.

يرصدها: حسن قطامش
qatamish100@hotmail.com

الصورة الخلفية للانتفاضة

على مدى ٤٠ يوماً، منذ بدايتها خلفت انتفاضة الأقصى أكثر من ٢٠٥ قتلى، و٨ آلاف جريح؛ منهم ثلاثة آلاف يعانون من عاهات دائمة أقعدتهم عن العمل مدى الحياة؛ نتيجة بتر أعضاء وأطراف، وتهشيم عظام؛ خاصة أن غالبية هؤلاء من العمال الذين تتطلب طبيعة أعمالهم قدرات بدنية عالية، وهذا العدد مرجح للتصاعد مع استمرار انتفاضة الأقصى التي يتوقع أن تتواصل لسنوات أو حتى تحقق أهدافها بالاستقلال والانسحاب الإسرائيلي.

وخلال الأيام الماضية لوَّح رئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك باستعداد جيشه لقتل ما يزيد عن ألفي مواطن فلسطيني إن كان ذلك سيوقف الانتفاضة. وهذا يعني سقوط عشرات الآلاف من الجرحى، ويعني أيضاً أن مزيداً من الأسر الفلسطينية ستفقد مُعيليها.

تضاف إلى ذلك حالة الخنق الاقتصادي التي تفرضها سلطات الاحتلال على مجمل الضفة الغربية وقطاع غزة حيث ينتقل منهما يومياً ـ قبل الانتفاضة ـ حوالي ١٥٠ ألف عامل للعمل في إسرائيل، ومع هذا الحصار فقدت عشرات الآلاف من الأسر الفلسطينية مصدر رزقها؛ فزاد ذلك من عدد العاطلين وعدد الأسر التي باتت على حافة المجاعة، ويشكل الحصار عبئاً على الاقتصاد الفلسطيني الضعيف أصلاً.

يقول الدكتور حسن الخريشة عضو المجلس التشريعي: «لدينا الآن في مناطق السلطة الفلسطينية حالة يمكن تسميتها بـ «الجوع الصامت»؛ فغالبية الأسر ترفض الحديث عن معيشتها؛ لأن المسألة ترتبط بكرامة الأسرة، وأنا أعرف عشرات الحالات من الذين يجدون صعوبة في توفير لقمة العيش والأمور الحياتية الأساسية، ويرفضون تلقي أي مساعدة من أي جهة رغم ظروفهم القاسية، وهم الذين قد يحسبهم البعض أغنياء».

وقال: «إن الوضع العام هو أن غالبية الأسر الفلسطينية ـ باستثناء فئة معينة ـ تعيش على الكفاف، وترفض أن تفصح عن حقيقة ظروفها، ويمكن أن نقول إنها تعيش حالة الجوع الصامت».

ويقول الدكتور واصل أبو يوسف، عضو المجلس المركزي الفلسطيني: «نجد في المخيمات الفلسطينية بشكل عام ظروفاً معيشية قاسية للغاية، فغالبية سكان المخيمات هم فئات محرومة تعيش دون خط الفقر، ومصادر دخلهم غير ثابتة، وهذا لا يعني أن الفقر والاحتياج مسألة تخص المخيمات فقط، وإنما توجد في المدن والقرى الفلسطينية حالات كثيرة تعيش ظروفاً ماساوية».

وأضاف الدكتور أبو يوسف: «البطالة تتزايد، فحتى الذين يعملون في مصانع ومنشآت فلسطينية تم فصل جزء كبير منهم، بسبب توقف هذه المصانع؛ نظراً لعدم وصول المواد الخام التي تصل عادة عن طريق الموانئ الإسرائيلية، أي أن المشكلة معقدة وتحتاج إلى حلول جذرية؛ فالأرقام تشير إلى أن المشكلة تشمل ٣٠٠ ألف عامل يعملون في إسرائيل ومناطق السلطة».

[جريدة الشرق الأوسط، العدد: (٨٠٢٨)]

ومع ذلك.. تتفاوضون!!

أكد رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية السيد فاروق القدومي أنه بعد سبع سنوات من المفاوضات لم تتراجع إسرائيل عن عمليات القتل والعنف والإرهاب والمماطلة وتعطيل ما تم الاتفاق عليه، وأنهم مستمرون في بناء المستوطنات ومصادرة الأراضي.

وتحدث عن خطة إسرائيلية للتحرش بالشعب الفلسطيني واستفزازه، لافتاً إلى أن هذه الخطة يتم تنفيذها من عهد رئيس الوزراء الأسبق (إسحاق رابين) الذي ارتكب مجزرة الخليل، ثم جاء (بنيامين نتنياهو) وافتتح النفق في الأقصى، والآن يقوم (باراك) باستفزازنا بالسماح (لشارون) بدخول المسجد الأقصى. وأشار إلى أنهم يريدون احتواء الضفة والقطاع وليس الخروج منها، وأن المستوطنات تُبنى الآن بكثافة. وقال: إن رئيس وزراء إسرائيل إيهود باراك رفض التوقيع على ورقة اقترحها الرئيس الأمريكي بيل كلينتون من أجل وقف المذابح التي ارتكبتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني. وقال: إن ما تم في شرم الشيخ هو مذكرة تفاهم فقط من دون توقيع أي طرف من الأطراف، وهي مناشدة للطرفين لوقف العنف. ودعا قدومي الدول العربية إلى تجميد العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل، واستقطاب الرأي العام العالمي ليقوم بإجراءات ضدها في مجلس الأمن والأمم المتحدة، وطالب الدول العربية بتعزيز تضامنها مع الشعب الفلسطيني؛ مشيراً إلى أن القيادة الفلسطينية طلبت من العرب أن تتولى الأمم المتحدة مسؤولية حماية الشعب الفلسطيني بشكل دائم. [جريدة الحياة، العدد : (١٣٧٤٣)]

حصاد جهاد الشعب

أفادت مؤسسة حقوقية أن السلطات الإسرائيلية أصابت قرابة ٧٠ ألف فلسطيني بالأعيرة النارية والمطاطية منذ اندلاع الانتفاضة الأولى في الثامن من ديسمبر عام ١٩٨٧م وحتى ١١نوفمبر ٢٠٠٠م، من بينهم ٦٢٥٠ مواطناً أصيبوا منذ اندلاع انتفاضة الأقصى في الثامن والعشرين من سبتمبر ٢٠٠٠م. وقال مركز غزة للحقوق والقانون في إحصائية حديثة: إن عدد المصابين الذين جرحوا منذ ٨ ديسمبر ١٩٨٧م، وهو اليوم الأول لاندلاع الانتفاضة الأولى، وحتى نهاية عام ١٩٨٨م بلغ ٢٢٢٥٦ مصاباً، وأنه خلال عامي ١٩٨٩م، ١٩٩٠م أصيب ١٧٢٣٠ فلسطينياً، وفي عام ١٩٩١م بلغ عدد المصابين ٩٧٠٩ فلسطينيين، وفي ١٩٩٢م بلغ عددهم ٥٨٠٦ فلسطينيين، كما سجل في عام ١٩٩٣م إصابة ٤٦٤٩ فلسطينياً. وأشار إلى أنه في عام ١٩٩٤م الذي دخلت في منتصفه السلطة الوطنية الفلسطينية إلى قطاع غزة وأريحا ـ سجل إصابة ١٣٦٩ فلسطينياً وأن هذا العدد انخفض في عام ١٩٩٥م إلى ٩٨ جريحاً، وعاد ليرتفع في عام ١٩٩٦م إلى ٢٠٩٠ جريحاً؛ إذ اندلعت في سبتمبر من العام ذاته «هبة الأقصى» حينما أعلن عن افتتاح الكيان الصهيوني نفقاً تحت المسجد الأقصى المبارك، ليعود العدد وينخفض إلى ٢١٧ في عام ١٩٩٧م، كما سجل في عام ١٩٩٨م إصابة ٢٣٨ فلسطينياً، انخفض في العام ١٩٩٩م إلى ٧٣ جريحاً، ليعود هذا العام ويرتفع مسجلاً ٦٢٥٠ جريحاً حتى منتصف نوفمبر ٢٠٠٠م؛ ليكون بذلك إجمالي كل المصابين الفلسطينيين ٦٩٩٨٥ جريحاً منذ بداية الانتفاضة الأولى.

[السبيل الأردنية، العدد : (٣٦١)]

وجهاد رجال السلطة!!

قالت صحيفة معاريف الإسرائيلية إن نحو ٥٠ شخصية كبيرة في السلطة الفلسطينية هرّبوا عائلاتهم إلى خارج البلاد، ونقلوا حساباتهم المصرفية إلى فروع في دول أخرى لم تذكرها نقلاً عن حسام خضر عضو المجلس التشريعي الفلسطيني خلال برنامج تلفزيوني يقدمه مروان كنفاني أحد كبار مستشاري عرفات. وذكر خضر الذي يعتبر من المعارضة داخل فتح أن عرفات يعرف كل شيء عن الكبار الذين أرسلوا نساءهم وأولادهم إلى خارج البلاد. وأضافت معاريف أنه قُدمت لعرفات مؤخراً قائمة لعائلات مسؤولين كبار غادروا الضفة الغربية من أجل البحث عن (حياة أفضل) في الخارج. وقالت مصادر في الضفة: «إن رجال تونس الذين لم يخوضوا تجربة الانتفاضة الأولى غير قادرين على الصمود في وجه ضغط النضال». [السبيل الأردنية، العدد : (٣٦١)]

هل نسيتم الشيشان؟!

منظمة «أطباء بلا حدود»، ومنظمات إنسانية أخرى تصف الخراب الذي خلفته الحرب في الشيشان؛ حيث يعيش الناس في أكواخ بلا ماء ولا كهرباء، وحيث المستشفيات أو ما تبقى منها تعاني من نقص الأدوية والأدوات الطبية الأخرى، في بلد أكثر من نصف سكانه مهجرون تتفشى بينهم الأمراض والأوبئة.

تواجه المنظمات الإنسانية العاملة في الشيشان وضعاً كارثياً: في القرى المدمَّرة التي تفتقد إلى برامج لإعادة إعمارها، وفي أعداد الجرحى، إضافة إلى آلاف المهجرين، ويتوج كل ذلك بانعدام الأمن.

وأفادت منظمة «أطباء بلا حدود» التي عادت إلى الشيشان في يوليو الماضي بعد غياب استمر ثلاث سنوات أنه نظراً إلى تعدد نقاط التفتيش والحواجز، وخوفاً من المضايقات والابتزاز أو الاعتقال، يتردد السكان ـ خصوصاً الشبان منهم ـ في التنقل حتى من أجل تلقي عناية طبية. وأضافت: «يشجع الخطاب الروسي اللاجئين على العودة؛ لكن ماذا يفعلون عندما يشاهدون منازلهم التي لم يبق منها شيء؟». وفي مناطق الوسط والجنوب حيث خلفت المعارك دماراً، لا وجود لأي مشروع لإعادة الإعمار. فلم يبق شيء في وسط مدينة غروزني؛ حيث أزيلت جميع المباني، وانتقل ما بين ٤٠ و ١٨٠ ألف شخص، إلى ضواحي العاصمة؛ حيث يعيشون في سيارات أو في مبان نصف مهدمة من دون كهرباء أو ماء، وفي كل مكان يعمد أطباء محليون إلى إقامة غرف عمليات جراحية في الأقبية، أو نصب خيم في الحدائق، ويتلقون معدات طبية من منظمتي «أطباء بلا حدود»، و «أطباء العالم»، إضافة إلى «مساعدات» طبية روسية. وأشار عضو بالمنظمة إلى عينة مساعدات أرسلتها وزارة الصحة إلى مستشفى غوديرميس (قوتها ٣٠٠ سرير)؛ وهي عبارة عن كرتونة واحدة في حين يحتاج المستشفى إلى ثلاث شاحنات.

وبالإضافة إلى هذا الوضع ازدادت نسبة الاحتياجات الطبية؛ فهناك آلاف المرضى الذين يحتاجون إلى عمليات أو عناية، و «الدفق مستمر» من ضحايا الحرب والمدنيين المصابين بانفجار الألغام، فضلاً عن المشاكل الصحية العادية والعقلية، والالتهابات التنفسية، والسل الذي من المحتمل انتشار عدواه. وتعترف «أطباء بلا حدود» أن وجود المنظمات الإنسانية «باهت» قياساً إلى حجم الدمار؛ مشيرة إلى أن «المشكلة سياسية في الأساس».

وبدوره، قال كيني غوليك ـ مسؤول «أطباء بلا حدود» فرع هولندا، في اتصال هاتفي من نزران (أنغوشيا) ـ: «إن الكارثة الإنسانية الحقيقية هي الطريقة التي يعامل بها المدنيون من الجرحى، والمعاملة السيئة في السجون، والناس الذين يقتلون». وأضاف: «قبل ستة أشهر استمر الأطباء في العمل في الظلام والصقيع، والفارق الوحيد اليوم هو إقرارهم بفقدان الأمل».

[جريدة الحياة، العدد : (١٣٧٤٥)]

متى يحين.. ومتى تحنو؟!

أعلنت مسؤولة الأمم المتحدة لشؤون تنسيق المساعدات الإنسانية (كارولاين ماكاسكي) في موسكو لدى عودتها من مهمة أنه لم يحن الوقت بعد للمنظمة الدولية للعمل في الشيشان لأسباب أمنية، وقالت ماكاسكي في مؤتمر صحافي: بالنظر إلى الوضع الأمني الحالي، لا أوصي بتواجد الأمم المتحدة في الشيشان. وروت كيف انتقلت إلى الجمهورية برفقة مسلحين من دون أن تتمكن من التحدث بحرية مع السكان، وخلصت إلى القول: لم يحن الوقت بعد للأمم المتحدة للعمل في الشيشان بحرية. وأشارت المسؤولة إلى أن اللاجئين الشيشان في جمهورية أنجوشيا الحدودية غير متحمسين لفكرة العودة إلى ديارهم، وقالت ماكاسكي: إن الشعور العام لدى اللاجئين في أنجوشيا هو أنه ليس بوسعهم العودة إلى ديارهم بسبب فقدان الأمن والمساكن.

[جريدة البيان الإماراتية، العدد : (٧٤٦٦)]

تونس المنسية

روى أربعة طلاب تونسيين أن (الصفع واللكم والركل والتعليق والحرق والصدمات الكهربائية والخنق والاغتصاب) ممارسات شبه يومية في مراكز الشرطة والسجون التونسية. وأوضحت إيمان درويش ـ طالبة العلوم الاقتصادية، خلال مؤتمر صحافي للجنة الدفاع عن الحريات وحقوق الإنسان في تونس، وجمعيات للدفاع عن حقوق الإنسان في المقر الفرنسي للبرلمان الأوروبي ـ: أن «التعذيب ممارسة منهجية تنطبق على الرجال والنساء كحد سواء، في النهار كما في الليل، وهي منتشرة في إدارات الأمن الوطني في العاصمة وكل أنحاء البلاد، ومراكز الشرطة والسجون». وروت درويش وزملاؤها زهير عيساوي، ونور الدين بنتيشا، ونزار شعري: كيفية «استقبال» الموقوفين في مقر إدارة الأمن الوطني «حيث كل طابق مجهز بتقنيات خاصة وعاملين مختصين»، وأوضحت درويش التي أوقفت في ١٩٩٨/٣/٤م لمشاركتها في إضراب مرخص له للجامعة حول مطالب طلابية ـ : أنها تعرضت بعد الضرب، وسيل الإهانات، والبصق، وفقدانها لوعيها؛ للاغتصاب. وأضافت: «إن الهدف عادة من الاغتصاب الذي يصوره رجال الشرطة على الفيديو هو تحطيم سمعة النساء في المجتمع التونسي»، وأعلنت ممثلة عن الاتحاد الدولي لرابطات الدفاع عن حقوق الإنسان أن لجنة الدفاع عن حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تنتظر منذ أكثر من عام الحصول على تقرير من الحكومة التونسية حول التعذيب.

[جريدة الحياة، العدد : (١٣٧٥١)]

صافرة إنذار... من صفير!!

أكد البطريريك الماروني الكاردينال (نصر الله صفير) أن وجود المسيحيين في الشرق على عتبة الألف الثالثة هو موضوع حياة أو موت بالنسبة إلى المسيحيين، وهو موضوع بقاء أو رحيل؛ ولو أثار مثل هذا التعبير الهواجس والمخاوف.

وأضاف: «هذه هي الحقيقة ـ وإن كانت مُرة ـ إذ ليس في الإمكان تجاهلها». وسأل: «كيف نتجاهلها عندما نرى هذا النزف المتواصل الذي يقتلع أبناءنا من قراهم ومدنهم ومواقعهم ليجرفهم إلى المجهول؟». وأعطى (صفير) مثالاً على ذلك (لبنان) الذي هاجر من أبنائه في السنوات العشر الأخيرة مليونا لبناني، ولا يزال يغادره كل شهر ما يزيد على خمسة عشر ألف مواطن معظمهم من الشباب حملة الشهادات العليا. وقال: «إن هذا الأمر ينسحب على باقي بلدان هذا الشرق التي يغادرها المسيحيون خصوصاً؛ فيتناقص عددهم يوماً بعد يوم بعدما كان هذا الشرق بأكمله مسيحياً»، مؤكداً أن: «المسيحيين متشبثون بهذه الأرض أياً تكن المخاطر». كلام (صفير) جاء خلال افتتاح اجتماع رؤساء الكنائس أعماله في الصرح البطريركي في (بكركي) تحت عنوان: «المسيحية في الشرق على عتبة الألف الثالث». وسأل: «هل تكون هذه هي إرادة الله أن يفرغ الشرق المسيحي من مسيحييه، بعد أن كان كله مسيحياً؟».

[جريدة الحياة، العدد (١٣٧٦٨)]

قرابين تركية لأوروبا

قالت مصادر تركية مطلعة: إن الحملة التي يقودها وزير التعليم التركي لمنع تدريس كتب دينية في المدارس التركية قد استمرت هذا العام (٢٠٠٠م)، حيث تشير إحصائيات العام الماضي إلى أن عدد الكتب المحظورة التي تم جمعها من المدارس قد وصل عددها إلى ثلاثمائة كتاب، وجميعها كتب دينية.

فقد أصدر وزير التربية والتعليم التركي «بوسطانجي أوغلو» قراراً جديداً يحظر تدريس كتاب «الأحاديث الأربعين» في المدارس، والعمل على عدم تداوله بها بأي شكل من الأشكال. وألغى بذلك التوصية التي كانت قد أصدرتها لجنة التربية والتعليم بالوزارة من قبل؛ وحثت على تدريس هذا الكتاب الذي أعده الشيخ أحمد نعيم واعتمدته وزارة الشؤون الدينية وتولت إصداره.

[مجلة الإصلاح، العدد : (٤٣٤)]




وجه صربيا القبيح

١ – س: ليس خافياً أن صورة الصرب أصبحت سوداء عند غالبية العرب والمسلمين بسبب أحداث البوسنة وكوسوفا، فهل لديكم توجه لسبب ذلك؟

ج: أرجو أن يثق قراء صحيفتكم، بأن الصرب طيبون، ولكن ذنبهم أنهم واجهوا ظروفاً صعبة معلومة، وأؤكد أن من أهداف الرئيس (فويسلاف كوستونيتشا) تصحيح صورة الصرب في أنحاء العالم، وخصوصاً عند العرب والمسلمين الذين للصرب مصالح كثيرة متبادلة معهم، سياسية واجتماعية واقتصادية وتاريخية. [وزيرة الإعلام الصربية، جريدة الحياة، العدد: (١٣٧٥٠)]

٢ – أعلن الرئيس اليوغسلافي الجديد (فويسلاف كوستونيتشا) أنه سيكون أول رئيس صربي في التاريخ يقيم علاقات مع إسرائيل ويزورها. وقال (كوستونيتشا) للإذاعة العبرية: «من المفارقات أن هناك دولاً بعيدة عن بعضها جغرافياً لكنها في الوقت نفسه قريبة جداً من بعضها». وتابع: «أعتقد أن هذه الحالة تنطبق على يوغسلافيا، والجبل الأسود، وإسرائيل»، وقال: «إنه يعتزم زيارة الدولة العبرية بصفته أول رئيس يوغسلافي يزور إسرائيل منذ إنشائها في العام ١٩٤٨م». [جريدة البيان الإماراتية، العدد: (١١/١١/٢٠٠٠م)]

٣ – قال الرئيس اليوغسلافي (فويسلاف كوستونيتشا) ـ أمام المشاركين في قمة زغرب (الأوروبية ـ البلقانية) ـ: «إن الوضع في كوسوفا يمثل المشكلة الأبرز في أوروبا، وإنه قد يتسبب بإثارة نزاعات أخرى في المنطقة».

وأضاف: «إن كوسوفا تمثل بالطبع المشكلة الأبرز في أوروبا، وقد تتسبب بإثارة نزاعات أخرى عديدة يُعتقد أنها هدأت، في البلقان وفي مناطق أخرى»، وقال: «إن كوسوفا هي المنطقة الوحيدة في العالم التي يسيطر عليها الرعب، ويتم فيها إجلاء شعب بكامله من أرض أجداده»؛ في إشارة إلى أعمال العنف المناهضة للصرب في الإقليم اليوغسلافي ذي الغالبية من الألبان. [جريدة الشرق الأوسط، العدد: ٨٠٣٣)]

هي بدعة.. وهذه ثمراتها!!

للمرة الألف نقولها ـ ولن نمل من تكرارها ـ ما يحدث ونراه من تجاوزات في الاحتفالات بموالد الأولياء سلوكيات لا يقبلها الإسلام ولا تقرها شريعته.

ولو أننا عدنا إلى سيرة هؤلاء الأولياء، وتدارسنا منهجهم؛ لعلمنا أنهم ما كانوا ليقبلوا هذه الأفعال غير المعقولة التي تحدث من رواد هذه الموالد.

فالثابت أنها تتحول إلى سوق تجاري كبير: للحمص، والحلوى، والبمب، وفتح عينك تاكل ملبن، وألعاب القمار، ويجد المتسولون الذين يفترشون مداخل ومخارج المساجد والأضرحة سوقاً رابحة لهم. ناهيك عن الاختلاط المرفوض بين الرجال والنساء، وقعدات الشيشة في ساحات المساجد، وبهذا فهي تخرج عن مضمونها والهدف المنشود منها، ولا أبالغ إن قلت: إنها عدوان صريح على حرمة مساجدنا، وآن الأوان لموقف حازم يتخذ لوقف هذا الاعتداء الصارخ. آخر هذه الموالد التي تم الاحتفال بها مولد العارف بالله السيد أحمد البدوي بطنطا الذي استمر أسبوعاً كاملاً . ومن بعده بدأت الاستعدادات لمولد السيدة زينب رضي الله عنها، ثم مولد إبراهيم الدسوقي. وهكذا تتوالى علينا الموالد ـ واحداً بعد الآخر ـ والآلاف من المواطنين يتركون منازلهم ومصالحهم، ويلهثون وراء هذه الموالد من قرية إلى مدينة، وحتى العزب والكفور لا تكاد تخلو واحدة من مولد أو ضريح. قال الشيخ عبد الشكور أحمد عيسى إمام المسجد الأحمدي: «يجب على كل رواد المولد التخلق بأخلاق الولي الذي جئنا من أجل المشاركة في الاحتفال بمولده؛ فقد كان متحملاً لأذى الناس، صبوراً على ما يبدر منهم، أما ما يحدث في المولد من بعض المظاهر التي تخالف هذه الأخلاق؛ فهي ليست راجعة إلى تقصير الولي في حق نفسه أو ربه؛ وإنما هي ذنب المقصرين فيما طلبه الإسلام منهم من واجبات وآداب وأخلاقيات وسلوكيات حميدة يجب أن يتمسك بها الناس».

[جريدة عقيدتي، العدد: (٤١٥) تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم القاهرية]

لو كان القاتل إسلامياً؟!

ما زالت الحرب احتمالاً بعيداً، لكن الحديث عن إمكانية اندلاعها يكاد ينافس الحديث عن إمكانية «اندلاع» مفاوضات السلام مرة أخرى تحت وطأة «تخجيل» كلينتون لعرفات.

الأنظمة لا تريد أن تحارب، وهي تعتقد أن الحرب ليست في مصلحة العرب حالياً، ليس لأن الجيوش علاها الصدأ فحسب، ولكن لأن منطق الأنظمة يختلف كلياً عن منطق الانتفاضة؛ بل يختلف عن منطق الشارع العربي الذي يزداد حسرة وألماً وغضباً أمام المشهد التلفزيوني المفجع والمثير للحمية والتعاطف. لقد أحكمت الأنظمة حماية نفسها خلال بقائها الطويل في السلطة، وفرضت نوعاً من «سلام الرعب والردع» على المجتمعات التي تحكمها، ولم تعد تخشى غدر الجيوش وانقلاباتها الليلية؛ فقد باتت تعددية الأجهزة الأمنية المخيفة أقوى من الأحزاب والجيوش، بل تم تحويل هذه الجيوش من مهمة الدفاع عن الوطن إلى مهمة أمنية بحتة؛ هي مهمة الدفاع عن الدولة والنظام. وفي موازاة هذه العلاقة الخارجية الظاهرة والخفية، تمكنت الأنظمة المحيطة بإسرائيل من تشكيل قاعدة اجتماعية تستند إليها، قاعدة ضيقة لكنها نافذة وقوية ومعارضة بشدة للحرب. فهناك اليوم حلف المصلحة بين النظام (الأمني ـ العسكري) والشرائح البورجوازية التي تدفع لشرائح النظام ضريبة باهظة من أرباحها المتزايدة مع «الانفتاح» الاقتصادي العشوائي. هذه المكاسب الداخلية والخارجية هي من الوفرة والثراء بحيث يصعب التخلي عنها، وعن التنعم والتمتع بها، وخوض حرب غير مأمونة مع إسرائيل قد تنتهي بانكسار النظام أو سقوطه. [غسان الإمام، جريدة الشرق الأوسط، العدد : (٨٠٢٢)]

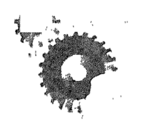
جهود هندوسية

بعد التقارب الهندوسي الأمريكي والهندوسي الصهيوني خلال الأشهر الماضية جاء الدور على التقارب الهندوسي الروسي ليكمل الخطة الهندوسية في مواجهة الإسلاميين في كشمير وغيرها فلم يتأخر الرئيس الروسي فلادمير بوتين وقام بزيارة سريعة ومخطط لها عقب عودة رئيس الحكومة الهندوسية من أمريكا والاستقبال الرسمي والشعبي الذي لقيه فيها.

وكان (أتال بهاري فاجباي) قد عقد عدة صفقات مهمة خلال وجوده في أمريكا، منها المعلنة ومنها غير المعلنة.

هذا التقارب (الأمريكي ـ الهندي) لم يعجب روسيا؛ لأن ذلك من شأنه أن يعرقل إنجاز العديد من المشاريع الروسية في المنطقة، وبسط نفوذها في آسيا الوسطى وجنوبها، ويجعلها معزولة عن مناطقها الاستراتيجية، ولجأت إلى عقد عدة مشاريع شراكة، واتفاقيات عسكرية وأمنية واقتصادية بلغت نحو ١٥ مليار دولار، ومن دون أن يعلن الجانبان؛ فإنهما قد أنشآ تحالفاً عسكرياً وأمنياً يهدف إلى ردع الجيران، ومن بينهم الصين وباكستان، وهذا ما دفع أمريكا وباكستان إلى إصدار بيانات تعرب عن قلقهما من هذا التعاون. وتوصل الطرفان أيضاً إلى إنشاء لجنة لمكافحة الإرهاب، وتبادل المعلومات الأمنية، واعتبار أفغانستان مصدر الإرهابيين الضالعين في العمليات العسكرية بكشمير والشيشان. وتوصل كذلك الطرفان إلى ميثاق شراكة استراتيجية بينهما تقضي بعدم انخراط أي منهما في عمل معادي للدولة الأخرى، وعدم الانضمام إلى أي تكتل عسكري أو اقتصادي أو محوري قد يهدد مصالح البلد الآخر. وبتعاون البلدين العسكري والأمني واستخدام أجهزتهما الاستخباراتية لتعقب المقاتلين في الشيشان وكشمير، يحاول البلدان القفز على مطالب الشعب الكشميري الداعية إلى تقرير المصير التي كفلتها له الأمم المتحدة قبل (٥٣) سنة، وعلى مطالب الاستقلاليين في الشيشان المطالبين بحريتهم ودولتهم مثل الجمهوريات الأخرى. وكانت ألفاظ بوتين واضحة حينما تحدث عن التطورات في كشمير؛ إذ أيد بشكل علني القبضة الحديدية الهندية في كشمير، ودعا إلى تشكيل جبهة موحدة ضد الإرهاب، ودعا إلى التعاون مع دعاة الانفصال في إشارة واضحة لتشجيع الهند على قمع دعاة الاستقلال في كشمير، واستعداد بلاده لمد الهند بالمساعدات المطلوبة في سبيل ذلك. [مجلة سياحة الأمة الكشميرية، العدد : (٣٤)]





مقومات نجاح السياسات الإصلاحية في الدول والمجتمعات

من خلال نموذج الخليفة عمر بن عبد العزيز الإصلاحي

ياسين بن طه بن سعيد الشرجبي

يكثر الحديث في وقتنا الراهن عن تبني السياسات الإصلاحية سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو القانوني أو الثقافي أو غير ذلك، وتؤكد الأحاديث على أهمية تبنيها، ومتابعة أنشطتها، والتغني بأدنى نجاح لها؛ وتحتل ساحتنا الإسلامية مساحة أكبر في الدعوة إلى هذه الإصلاحات والاهتمام بتطبيقها وتنفيذ بنودها، وترتفع أصوات سدنة النظام الدولي الجديد ناصحة ـ أو بالأصح آمرة ـ بضرورة التغيير للأوضاع القائمة التي أصبحت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم في كل مجالات الحياة.

إصلاح مفسد:

إن ما يتحدث به الغربيون وصنائعهم عن الأحوال المتردية في عالمنا الإسلامي هو جزء من كلمة حق يراد بها كل الباطل؛ فهم حينما يشيرون إلى مساوئ الأنظمة السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها لا يبتغون من ذلك أن نعود إلى ديننا وشرعة ربنا وتاريخ أمتنا لنصحح الأوضاع على أسسها مع الاستفادة من معطيات العصر، بل إنهم يخططون ويمكرون ليتم التغيير وفق رؤاهم وتبعاً للحلول التي يلزمون بها بعض ولاة المسلمين وحكوماتهم رغبة ورهبة.

إذا أردنا أن نستعرض وصفاتهم لعلاج الأوضاع السياسية فإننا نجدهم يحثون على تبني الديمقراطية أولاً، ثم الاستسلام للعدو الصهيوني والتطبيع معه ثانياً، ومع ذلك فمن حقنا أن نتساءل: أي ديمقراطية يريدون؟ إنها تلك الصورة التي تمكّن السفهاء والعملاء والأذيال من آن يتربعوا على عروش أمتنا دون أن يكون للأمة أي فرصة للاحتجاج أو الرفض وإلا اتهمت بالعداء للديمقراطية، حتى نموذجهم في الديمقراطية لا يجرؤون على تصديره إلينا وتطبيقه عندنا؛ لأنهم يخشون ظهور الإسلاميين وصعودهم إلى سدة الحكم؛ وإذا حدث ما لا يتوقع في ظل الديمقراطية الزائفة وانتصر الإسلاميون في بلد ما، فإنهم لا يخجلون من موقف الصمت وغض الطرف عمًّا يحدث

من التفاف على نتائج الديمقراطية ولا يصفونه بالعداء لها، هذا إذا لم يكونوا هم من دبر الانقلاب وخطط للالتفاف ومصادرة صوت الأمة.

أما الحل الذي يقضي بارتماء أمتنا في أتون الاستسلام وجحيم التطبيع مع اليهود فإن آثاره على العقيدة والدين والمقدسات والأخلاق والعقول والاقتصاد والثقافة وكل جوانب الحياة أصبحت معلومة من الواقع بالضرورة، وبادية واضحة لا نحتاج فيها إلى مزيد بيان.

وإذا أردنا أن ننظر في معالجتهم لاقتصادنا وجدناها إصلاحاً لاقتصادهم وضخاً إلى بنوكهم ورعاية لاستثماراتهم، بينما تحصد أمتنا مزيداً من الأعباء والديون والفقر وإضاعة الثروات والانشغال بالقوت الضروري، والعديد من المشاكل والأزمات.

وفي مجال الإصلاح القانوني والقضائي تجد أن الحل يتم بالقضاء على ما تبقى من حكم الشريعة في جوانب الأحوال الشخصية وما شابهها، وجعل الحكم لغير ما أنزل الله من تعاليم وقوانين الجاهلية المعاصرة.

أما في المجال الثقافي فالعلاج أن يدين الناس جميعاً بالتصورات الغربية، وأن تصاغ عقول أمتنا الإسلامية من خلال مفردات الحضارة الغربية وتعاليمها القائمة على الخروج على كل ما هو رباني، والسير بالبشر نحو حيوانية سافرة؛ وإن كان من ضرورة روحية واعتناق لديانة فلتكن المسيحية المتهوِّدة.

إلا أنت أمة الإسلام:

ليس غريباً أن ترى الأمم وأتباع الديانات الباطلة المنحرفة يستجيبون لداعي الحضارة الغربية ويسيرون خلفها حذو القذة بالقذة تدخل بهم جحر الضباع وأوكار التيه، بل المستغرب المحزن أن ترى في الركب الضال فئاماً كثيرة من المنتسبين لدين الإسلام.

من اليسير أن نتوقع إذعاناً فخرياً لأمم الأرض تجاه القوة المادية الغربية، وأن نتوقع خضوعاً ذليلاً منها نحو ثقافة الغرب وحضارته؛ لكنه ليس من اليسير أن يتوقع ذلك من أمة الإسلام التي تمتلك ما لا تملكه أمةٌ غيرها من مقومات القيادة والريادة والخيرية، ومن أسس العيش بأمن وطمأنينة ورفاه، ومن أركان الحياة الطيبة المهتدية، ومن أسباب القوة المادية والمعنوية.

إن أمتنا تملك العقيدة الإسلامية السليمة والدين الحق والملة القويمة، وهي تملك الإرث المجيد والتاريخ التليد، وهي تملك النظرة السوية للإنسان والكون والحياة، وهي - بفضل الله - تملك الكثير من مقومات القوة المادية متمثلة بالتعداد السكاني والثروات الهائلة والمواقع الاستراتيجية، بل المستقبل الواعد بالتمكين والخلافة. لذا فإننا نربأ بأمتنا العظيمة أن تتردى في مهاوي التبعية للضالين، وأن تهوي في سحيق البُعد عن هداية الله، ونهتف بها أن تنظر في واقعها، وأن تفكر جدّياً في إصلاح حالها، ثم تستنفر كل جهودها لإحداث التغيير مستهدية بنور الوحي والشريعة ومستفيدة من تاريخها المشرق.

صفحات من التاريخ:

لنقلب معاً صفحات بيضاء من ماضي أمتنا المجيد، ننظر في ثناياها إلى واحدٍ من النماذج المتميزة في إدارة إصلاح الدول والمجتمعات، نموذج لم تُعق القائمين عليه قلة الإيرادات ولا قصر الفترة ولا استشراء الفساد، مَثّل من أمثلة الإدارة الناجحة للأزمات الكبرى وتحقيق الإنجازات العظمى، ودرس من دروس الإفاقة الحكيمة لاستعادة النقاء الغابر واسترجاع السداد المنسي.

إن نموذج خلافة عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وإصلاحاته الشاملة وصفه المؤرخون بأنه كان تجديداً للدين، واعتبروا أن الخليفة عمر كان مجدداً ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ: «إن الله

يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

ومن أسباب اختيار هذا النموذج أنه حدث في فترة بعيدة نسبياً عن المرحلة النبوية والخلافة الراشدة، وكان الفساد قد ظهر في جوانب عدة بسبب ما طرأ على مسيرة الحكم الإسلامي من تغيير إلى الملك العضوض، وكثرة سفك الدماء وإضاعة الأموال والتعلق بالدنيا وطغيان الشهوات، مع وجود جوانب خير متمثلة في تنمية القدرات الإسلامية على الجهاد، وكثرة الفتوحات وتوسيع رقعة الإسلام، إضافة إلى ذلك فإن الفترة الزمنية التي تحققت فيها نجاحات عمر لم تكن طويلة بل قصيرة جداً بالمقارنة مع حياة الأمم والدول، فهي لم تتعدَّ السنتين والنصف، كل هذه الميزات تجعل هذا النموذج جديراً بالدراسة والمقارنة غير الكاملة مع أوضاعنا الراهنة.

وهدف هذا المقال استنباط المقومات والأسس التي كانت - بعد فضل الله - من أسباب نجاح الخليفة عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - في إدارته للسياسات الإصلاحية إبان خلافته، والاختصاصيون مدعوون لإثراء مثل هذه الجوانب وربط الماضي بالحاضر وترشيد مسيرة الأمة.

أما المقومات التي يمكن استنباطها واعتبارها أساساً لنجاح السياسات الإصلاحية في المجتمعات فيمكن إيراد بعضها كما يلي:

١ - خلفية الإصلاحات:

من المعلوم أن لكل سياسة إصلاحية خلفية عقائدية فكرية (أيديولوجية) تشكل أساساً لها وتتحكم في صورة أهدافها، ووسائلها، ونوعية الأشخاص الذين يقومون بها، وسمات العمليات الإدارية التي تمر بها من تخطيط وتنفيذ ومراقبة ومتابعة.

والإصلاحات الإسلامية تنطلق من عقيدة القرآن والسنة، والنظرة الشاملة للإنسان والكون والحياة، وشمولية التغيير والإصلاح، وسعة الأهداف التي تتخطى حاجز المكان والزمان المقيد بالدنيا وحواجزها، كما تتميز بوسائلها الشرعية الطاهرة، وصفات المتولين لتنفيذ سياستها؛ وهذا بالضبط ما يجعلها تنفرد عن غيرها من خلال اتصالها بالله واتصافها بالربانية التي تحميها من قصور البشر وأهوائهم وجهلهم وأخطائهم، ولا تحصر نفسها في معالجة الأسباب المادية الظاهرة فقط؛ بل هي تعترف بالأسباب المعنوية المتمثلة في تقصير البشر في الأخذ بالأسباب والاستقامة على أمر الله وارتكابهم للمعاصي، ثم هي لا تعترف بمعالجات جزئية مبتورة تمسُّ جانباً دون الآخر بل تأخذ الإصلاح والدين كُلاًّ لا عِضين.

والقائمون على الإصلاحات الإسلامية الشاملة يستمدون العون من الله؛ ولذا فهم لا يرجون إلا الله، ولا يخافون إلا الله، ولا يسعون لإرضاء أحد أو يخشون غضب أحد إلا الله، يعبدونه ويعبِّدون الناس له، ولذا تراهم من أكثر الناس عبادة، وأزهدهم في الدنيا، وأشدهم طلباً للآخرة، وأوفرهم نشاطاً وعملاً وسهراً وتعباً.

هكذا كان عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - وهكذا أعلن من أوائل أيام خلافته: «يا أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل إليكم كتاب؛ فما أحل الله على لسان نبيه ﷺ فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبيه ﷺ فهو حرام إلى يوم القيامة. ألا إني لست بقاض، وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع، يا أيها الناس إن أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم»[2].

(١) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب الملاحم، ح/١، وسنده صحيح.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص ٤١ - ٤٢، نقلاً عن التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، للدكتور عبد العزيز الحميدي، المجلد الثامن، ص ٣٥.

بينت خطبته الخط السياسي الذي انتهجه، ولذا كان عاملاً بالشرع لا يحيد عنه، ولم يتخذ من الوسائل ما تتعارض معه، بل اهتم بالوسائل الشرعية مثل الزكاة في حل المشكلة الاقتصادية فأغناه الله بها، ولم يرض بأخذ الجزية ممن أعلن إسلامه بالرغم من إلحاح بعض الولاة وتخوفهم من أن تنضب موارد الدولة إن رفعت الجزية عن الداخلين إلى الإسلام، وقال قولته المشهورة: «إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً» كما أنه رفع الضرائب عن الأمة وهي ما تسمى بالمكس؛ وتحكي سيرة عمر بن عبد العزيز أنه كان من أشد الناس خوفاً من الله وأكثرهم قياماً في الليل وبكاءاً من خشية الله، ولم يكن يخشى في الله لومة لائم، وزهد في الدنيا بل زهد في حقه الشرعي وأخذ نفسه بالشدة وطلب الآخرة؛ وكان لا يرتاح إلا قليلاً.

٢ - التخطيط:

كان عمر - رضي الله عنه - قد شارك في إدارة شؤون الخلافة والياً ومستشاراً، فتوفرت لديه معلومات كافية عن شؤون الدولة وأخطاء الحكام، وهذه المعلومات الشاملة الدقيقة ساعدته على اتخاذ القرارات المناسبة، وعلى الرغم من هذا لم يكتف بذلك، بل نقل عنه ابن عبد الحكم أنه: «احتجب عن الناس ثلاثاً لا يدخل عليه أحد، ووجوه بني مروان وبني أمية وأشراف الجنود والعرب والقواد ببابه ينظرون ما يخرج به عليهم منه، فجلس للناس بعد ثلاث وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها، فردَّ المظالم، وأحيا الكتاب والسنة»[(١)].

اختلى بنفسه ليخطط ويبني سياساته القادمة، ولم ينس أن يجعلها متدرجة ومرحلية كما ظهر من حديثه مع ابنه عبد الملك حينما استعجله على تطبيقها[(٢)].

٣ - البدء بالنفس وتقديم القدوة:

من هراء القول ومن كاذبات الأماني أن يتوقع القائمون على أمر الإصلاحات من أفراد شعوبهم أو شيعهم استجابة صادقة وصبراً وتضحية وحماسة مندفعة في الأخذ بالإجراءات المتخذة للقيام بالإصلاح، بينما يرون قيادتهم وريادتهم تخالف ذلك وترفل في ثياب النعيم؛ بل التبذير والعبث بأموال الأمة، وإضاعة أقوات رعاياهم في إشباع رغباتهم وشهواتهم.

بل إن هذا الموقف المشين ليولِّد النقمة والحقد ويدفع إلى فقدان الانتماء وانتهاز الفرص للانتقام والعمل على عدم نجاح سياسة الولاة، ويحث على التسابق على الكسب الحرام والسلوك الخاطئ.

إن مما يعارض العقل والعُرف لا الشرع فقط، أن يطالب كبراء الناس صغراءهم بربط الأحزمة ووضع الحجارة على البطون والصبر على اللأواء من جراء تبعات سياسات الإصلاح، ثم يختالون - أي الكبراء - أمام أعينهم بمظاهر الترف والبذخ، ويسلكون سبيل السفهاء في التعامل مع مقدرات الأمة.

عمر يقدم القدوة:

أعطى عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - من نفسه القدوة السامقة والأسوة الرائعة؛ فقد بدأ بنفسه وأخذها بأكثر مما هو مطلوب؛ إذ تبنى معها كل القسوة وألزمها العنت، ونأى بها حتى عن حقوق وضروريات؛ كل ذلك لأنه علم أنه لا يمكن أن يحدث الانقلاب في دولته ما لم يحدث انقلاباً سابقاً في نفسه يدفع الآخرين إلى احترامه والإذعان لسياسته، وقد تجلّى هذا الأمر في عدد من المواقف نقتطف منها ما يلي:

- لما دفن الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك، وقام عمر قُرِّبت إليه المراكب، قال: ما هذه؟ قالوا:

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي، مواقف وعبر، المجلد الثامن، ص ٥١، ٥٢، ٦٧.

مراكب لم تُركب قطُّ يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم، ضمَّ هذا إلى بيت مال المسلمين. ثم فعل مثل ذلك مع السُّرادقات والحُجر التي نصبت له، ثم انصرف إلى الفراش والوطاء الذي فرش له وجعل يدفعه برجله حتى أفضى إلى الحصير. ثم تآمر عليه الوزراء في عرض الجواري لعلّهم يجدون منه ضعفاً أو ثغرة يستغلونها فيه، فلما عُرضن عليه كأمثال الدُّمى سألهن عن أصلهن، وأمر بردّهن إلى أهليهن، فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق[1].

● دخل عليه أحد أصدقائه (عنبسة بن سعيد) يريد الحصول على مبلغ كبير من المال كان قد أعطيه من الخليفة السابق، ولم يبق من إجراءات التسلُّم سوى القبض بعد أن انتهت إلى ديوان الختم، فأبى عمر وبين له أن المبلغ يُغني آلافاً من بيوت المسلمين وليس له فيه حق، فما كان من عنبسة إلا أن ألح إلى قطيعة لعمر أعطيه قبل خلافته؛ إذ قال: «فما بال جبل الورس؟ فقال له عمر: ذكرتني الطعن وكنت ناسياً (مثلاً سائراً)، يا غلام، هات ذلك القفص! فأُتي بقفص فيه قطائع بني عبد العزيز، فقال: يا غلام اقرأ عليَّ! فكلما قرأ قطيعة قال: شقها. حتى لم يبق في القفص شيء إلا شقه»[2].

فخرج صديقه بعد ذلك ليخبر من كان في الباب من بني أمية يطلبون مصالحهم، فلما أعلمهم بذلك، قالوا: «ليس بعد هذا شيء!!» ثم طلبوا منه أن يأذن لهم بأن يلحقوا بالبلدان (يعملون في التجارة) بعد أن يئسوا من أموال المسلمين، فأذن لهم.

● عندما بدأ بردِّ المظالم قال: «إنه لينبغي ألاَّ أبدأ بأول من نفسي. فنظر إلى ما في يديه من أرض أو متاع فخرج منه، حتى نظر إلى فص خاتم، فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاء به من أرض المغرب، فخرج منه»[3].

٤ - اختيار البطانة الصالحة:

شاء الله أن يختص ذاته بالكمال، وأراد بحكمته أن يكون لدى الإنسان مثالب وجوانب قصور مهما بلغ من العلم والتقوى والورع والنجابة والحكمة، وهذا ما يجعله في حاجة إلى من يشركه أمره ويشد به أزره، وأحوج الناس إلى ذلك هم أصحاب الأمانات الكبرى والولايات العظمى، حتى الأنبياء - رضوان الله عليهم - مع عصمتهم وتأييدهم بالوحي، احتاجوا إلى الحواريين والأصحاب والبطانة الصالحة.

عند البخاري من حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله»[4].

وعند أبي داود بإسناد جيد من حديث عائشة قول رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكّره، وإن ذكر لم يعنه»[5].

لذا فإن القائمين على شؤون الأمة بحاجة إلى من يعينهم على حمل المسؤولية، ومن يبصرهم

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص ٣٨ - ٤٠، نقلاً عن التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، ص ١٩١، ١٩٢وهو المرجع الرئيس.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص ٥٨.

(٣) طبقات ابن سعد، ٥/٣٤١.

(٤) أخرجه البخاري (٩٣) كتاب الأحكام (٤٢) باب بطانة الإمام وأهل مشورته.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الإمارة باب (٤).

السداد، ويأخذ على أيديهم عند الخطل، ويحجزهم عن الغواية والظلم، ويقدم لهم المشورة الحكيمة؛ أما اتخاذ بطانة النفاق والسوء الذين تتقشر أكفهم من كثرة التصفيق، وتبح أصواتهم من وفرة الحديث عن المنجزات، فإنهم لا يزيدون الخلفاء والسلاطين إلا خبالاً، ولا يهدونهم إلا سوء السبيل، وتظل تخدعهم بما ترتضيه نفوسهم من زخرف القول والعمل، ثم يستيقظون على خزي الدنيا والآخرة.

اهتم عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - من أول يوم بتوفير البطانة الصالحة؛ فقد ورد في سيرته أنه قال لعمرو بن مهاجر: «إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يديك في تلبابي: ثم هُزني ثم قل: يا عمر ما تصنع؟»[1].

كما جاء في سيرته أنه لما استخلف قال: انظروا إلى رجلين من أفضل مَنْ تجدون؛ فجيء برجلين، فكان إذا جلس مجلس الإمارة ألقى لهما وسادة قباله فقال لهما: إنه مجلس شرة وفتنة، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إليّ، فإذا رأيتما مني شيئاً لا يوافق الحق فخوِّفاني وذكراني بالله عز وجل»[2].

إضافة إلى ذلك فقد سخَّر الله له من أهل بيته من أعانه على تحقيق ما أراد من إصلاح أمور المسلمين؛ فقد كانت زوجته فاطمة نعم الصابرة والمحتسبة والمضحية، وكان ابنه عبد الملك من أكثر أهل بيته شداً لأزره وتقديماً للنصح ودفعاً إلى الخير وموافقة له عليه، ومما يذكر في هذا المقام موقفه في أول أيام الخلافة بعد أن أعلن أبوه عن رد المظالم، ذهب الخليفة عمر يتبوأ مقيلاً، فقال له ابنه عبد الملك: «تقيل ولا ترد المظالم؟ قال: أي بني! قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر رددت المظالم، فقال له: من أين لك أن تعيش إلى الظهر؟ فخرج عمر ولم يقل، وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة فليرفعها. ولابنه عبد الملك مواقف تبتغى في مظانها»[3].

كما أن عمر نادى في الأمة أن تعينه على الخير، وتقدم له الآراء والمقترحات، ووعدها على ذلك المكافأة الجزيلة؛ إذ كتب لهم: «أما بعد: فأيما رجل قدم علينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار بقدر ما يُرى من الحسبة وبُعد الشقة، رحم الله امرأً لم يتكاءده بُعدُ سفر، لعلّ الله يحيي به حقاً، أو يميت به باطلاً، أو يفتح من ورائه خيراً»[4].

٥ - اصطفاء الولاة الأكفاء:

القائمون على تنفيذ السياسات الإصلاحية هم دوماً بُعدٌ أساس في أي عملية إصلاحية، ولا يمكن لسياسات الإصلاح أن تكون ذات شأن وأن تحقق أهدافها دون أن تعتمد على الأكفاء، ودون أن تسند مهامها العامة والتفصيلية إلى كل ذي قوة مكين أمين، خاصة عندما تكون المهام ذات علاقة بالمال وبأوعية الإيرادات المالية مباشرة، وما أجمل المثل الذي حكاه الله - تعالى - لنا في سورة يوسف: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [**يوسف**: ٥٥].

وليس المقصود أن يولّى مَنْ ظاهره العبادة والنسك الضعيف أمام إغراء المال والحريص على تولي الإمارة، أو العابد الزاهد الذي لا يمتلك الخبرة

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء، ٥/٢٩٢.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ٨٦، ٨٩، وانظر حلية الأولياء، ٥/٢٨١، تاريخ دمشق، ٤٥/١٧٩، ١٨٠.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ص ١٣٧.

والدراية والقوة اللازمة ، أو القوي الذي يفتقر إلى تقوى تحجزه عن إتيان ما لا يليق ، بل المقصود القوي المكين الأمين ظاهراً وباطناً .

أعطى الخليفة عمر بن عبد العزيز هذا الجانب أهمية قصوى ، وتمكن - بفضل الله - من تأمينه من خلال العمل على أربعة محاور هي :

أ - عزل ولاة السوء. ب - تولية الأكفاء.
ج - الاختبار ثم المراقبة. د - إعطاؤهم ما يكفيهم.

أ - عزل ولاة السوء: كان من أوائل ما قام به عمر بن عبد العزيز أنه عزل اثنين من ولاة السوء ، وقد جاء أنه كتب كتابَيْ عزلهما بعد دفن الخليفة السابق مباشرة ، وقد بدأ بعزل أسامة بن زيد التنوخي الذي كان على خراج مصر ، وأمر بحبسه في كل جندٍ سنة نكالاً به ؛ لأنه كان غاشماً ظلوماً معتدياً ؛ كما عزل يزيد ابن أبي مسلم الذي كان ينفذ سياسة جور ومخالفة للحق مع إظهار التعبد والتأله(١).

ب - تولية الأكفاء: كان في ذهن عمر أن خير الولاة هم العلماء الذين يعرفون أحكام الشرع ، على أنه حين لا يجد بين العلماء من يصلح للإمارة فإنه يختار أشخاصاً نزيهين أمناء عاقلين حكماء ، وكان يثق في الفقهاء ؛ ويحكى أنه كان يقول دائماً : ولُّوا الفقهاء . فإن قيل : قد وليناهم فخانوا ، رُدَّ عليهم : إن خان الفقهاء فغيرهم أخون . واعتمد في الولايات أيضاً على القضاة ، ويعتقد أن القاضي يلي الوالي في الأهمية ، واختار العمال الصالحين على الخراج .

ج - الاختبار ثم المراقبة: لم يكن الخليفة عمر ينخدع مباشرة بالمظهر الناسك للناس ، فقد تعلَّم ألاَّ يفعل ذلك ، ولذا كان يتخذ مبدأ الاختبار قبل الإقرار ، وقد مكنه ذلك من التخلص من بعض المتظاهرين ، وقد ذكر الشيخ أبو حفص عمر الملاء واقعة مفادها أن بلال بن أبي بردة دخل على عمر وعليه ثياب وسيماء الصلاح ، وعندما كلمه وجد فيه رجلاً راجح العقل سديد الرأي ، فأراد أن يوليه غير أنه رأى اختباره أولاً ، فأوعز بذلك إلى مولاه مزاحم ، فجاء مزاحم إلى الرجل وأظهر له أنه يستطيع السعي لتوليته أحد العراقين غير أنه يريد ثمناً مقابلاً لذلك ؛ فعرض الرجل مبلغاً كبيراً ينقده منه حالاً ثم يسلم الباقي عند تولي الإمارة ؛ فعاد مزاحم إلى خليفته يقول له : عدو الله لص . وأخبره الخبر ، فقال عمر : والله! إن كاد ليغرني بسجدته وعمامته ، ثم حذَّر منه الولاة(٢).

أما المراقبة فكانت تتم من خلال الزيارات ، وسؤال القادمين ، وهي التي مكنته من التخلص من بعض من اغتر بهم أولاً كما حدث من عامله على مكة عروة بن عياض الذي شكا منه مظلوم أخذ ماله وتخويفه ، فلما ثبت الأمر له أشار بالخيزران إلى سجدته وقال له : هذه غرتني منك . ثم أنصف المظلوم(٣) ؛ وما حدث كذلك من أمره والي المدينة بالاقتصاد في الوقود والورق(٤).

د - إعطاؤهم ما يكفيهم: فقد ورد في سيرته أنه كان يعطي عماله ثلاثمائة دينار ، فلما سئل عن ذلك ، قال : أردت أن أغنيهم عن الخيانة(٥).

٦ - الاستفادة من الخبرات السابقة:

ليس من المقبول أن يبدأ المصلحون من حيث بدأ مَنْ قبلهم ، بل من حيث انتهوا ؛ إذ إن جهود سياسات الإصلاح وخبراتها ونجاحاتها تتراكم

(١) انظر : التاريخ الإسلامي ، مواقف وعبر ، ص ٣١ ، ٣٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩ .
(٤) انظر : سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، ص ٦٤ - ٦٥ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

لتكون إرثاً ثرياً، ولا يقتصر ذلك على الساحة الإسلامية، بل إن الإنجازات الإنسانية في مجال إدارة الدول والمجتمعات تعدُّ حكمة، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، والكَيِّس من استفاد ممن سبقوه، من أولئك الذين يشاركونه عقيدته وشريعته أولاً، ثم من غيرهم، وفي تاريخ الإسلام إبان النبوة والخلافة الراشدة دلالات واضحات على الاستفادة من المعرفة الإنسانية سواء من الروم أو الفرس أو غيرهم، بما لا يتعارض مع التوجه الإيماني المتميز للمسلمين؛ وليس شرطاً أن يكون الاحتذاء كاملاً، بل يمكن الاستفادة من التجارب السابقة جزئياً في إحدى جوانبها وتفصيلاتها دون الجوانب الأخرى.

وفي نموذج عمر بن عبد العزيز نجد أنه - رضي الله عنه - أراد الاستفادة من نموذج مثالي قريب منه وهو نموذج جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد أخرج الإمام أحمد في الزهد أنه كتب إلى سالم ابن عبد الله بن عمر ما يلي: «أما بعد فإن الله - عز وجل - ابتلاني بما ابتلاني به من هذا الأمر من غير مشورة ولا طلب له، ولكن كان ما قدَّر الله عز وجل، فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إليَّ بكتب عمر ابن الخطاب وقضائه وسيرته في أهل العهد والذمة؛ فإني متبع أثره وسائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك، والسلام»[1].

٧ - التوعية:

الجميع يذعن لأهمية العلم والفقه الراشد والوعي السديد أساساً للعمل الناجح والتصرف السوي؛ ولذلك كثرت في تعاليم الإسلام النصوص التي تحث على طلب العلم واكتساب الفقه واعتباره شرطاً لالتزام سبيل المسلم المؤمن المحسن، وقد أدركت الدول المتقدمة أهمية العلم بل اعتبرته ربًا، وأدركت كذلك أثر الإعلام والتوعية في صياغة الرأي العام وتطبيع الناس على تقبل ما تريد تنفيذه من سياسات، فأخذت به واحتفلت بأجهزته وسخرته أيما تسخير لإقناع شعوبها بما تبغي.

لذا كان لزاماً على ولاة الأمر القائمين على سياسات الإصلاح التمهيد لها بالتوعية الكاملة المقنعة التي توضح الأسباب والمسوغات، وتبين النتائج والثمرات، حتى تكون الأمة على اطلاع، وحتى تندفع للموافقة والمشاركة بعلم ووعي.

أما إجراءات تطبيق السياسات التي تصاحبها مواقف الإلزام والجبر، وتُقدَّم فيها معلومات مضلِّلة، ومعاذير واهية، وتعتمد سلطة القمع والتخويف، فإن الواقع يحكم عليها بالوأد أو عدم تحقيق نجاحات تذكر. لا يفوت هنا التأكيد على أن توعية الأمة يجب أن يستند على تعريفها بدينها أولاً، ثم بمتطلبات عصرها بما لا يتعارض مع دينها، على ألاَّ تكون هذه التوعية مقصورة على الواجبات دون الحقوق، ولا تكون مرتبطة بظروف تجبر عليها، بل تكون سياسة دائمة نحو تربية الأمة ورفع قدراتها لتؤدي دوراً حاضراً مؤثراً في واقع حياتها.

كان لدى الخليفة عمر بن عبد العزيز من الفقه الشرعي والعلم بأمور إدارة الخلافة ما مكَّنه من الانتباه إلى هذا الأمر الحيوي والأخذ به؛ ولذلك اهتم بتوعية الأمة ونشر العلم فيها، وبعث من يعلِّم الناس الإسلام في أنحاء الدولة الإسلامية، وكان يوصي الأمراء والعامة (بحسب إمكاناته الإعلامية المتوفرة)، وأمر بجلوس العلماء في المساجد وإظهار العلم، وأكد على أن العلم لا يموت حتى يكون سراً.

(١) انظر نص الرسالة كاملة والرد عليها في: التاريخ الإسلامي، مواقف وعبر، ص ٣٨.

٨ - الحزم مع المخالفين:

لا يخلو مجتمع من المارقين أصحاب القلوب المريضة والطباع الجفولة الذين يعارضون بل ويحاربون سياسات الإصلاح إرضاءاً لرغباتهم وخوفاً على مصالحهم الأنانية التي يرونها مقدمة على مصالح الأمة؛ وهناك عدد غير قليل من هؤلاء لا تنفع معهم وسائل التوعية والإقناع وتقديم الأسوة الحسنة؛ فهم لا يرون الحق إلا من خلال هواهم وأطماعهم؛ ولذا كان لا بد من اتخاذ موقف صارم مع أمثالهم وأَطْرِهم على الحق أَطْراً، وإلزامهم سواء السبيل بوسائل التهديد والوعيد ثم العقاب الملائم.

هكذا فعل الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ مع أضرابهم من الخارجين عن تنفيذ أوامره واتباع سياسته، وكان ذلك مع الأقربين قبل الأبعدين، ومما ترويه كتب السيرة في ذلك أنه: «أتى عمر بن عبد العزيز كتابٌ من بعض بني مروان فأغضبه، ثم قال: إن لله في بني مروان ذبحاً، وايم الله! لئن كان الذبح على يدي... فلما بلغهم ذلك كفوا، وكانوا يعلمون صرامته وأنه إن وقع في أمرٍ مضى فيه»[١].

أما خبره مع ابن عمه (روح بن الوليد بن عبد الملك) فيقصه علينا ابن عبد الحكم: «أن ابن عمه (روحاً) تخاصم مع بعض المسلمين من حمص في حوانيت أقطعه إياها أبوه الوليد بن عبد الملك، فردها إليهم عمر بعد أن تحاكموا إليه، فلما قام روح توعد خصمه الحمصي، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بذلك، فقال عمر لكعب بن حامد الذي كان على حرسه: اخرج إلى روح يا كعب؛ فإن سلَّم إليه حوانيته فذلك، وإن لم يفعل فائتني برأسه.

فأخبر روح بذلك فانخلع فؤاده، وخرج إليه كعب وقد سل من السيف شبراً، فقال له: قم، فخلِّ له حوانيته، قال روح: نعم! نعم! فخلى له حوانيته»[٢].

وهكذا كان يفعل مع الولاة المخالفين، حتى قال عنه أحد الشعراء:

ينهى الولاة بحد السيف عن سرف
كفى بذاك لهم من زاجر ناهي

٩ - إصلاح أخطاء الماضي:

لم يخدع عمر بن عبد العزيز نفسه بأن ما سبق من أخطاء يتحملها غيره، وأنه لا يشترك في وزرها؛ وعلى ذلك فإنه لا يعد مسؤولاً عن تلافيها، بل كان يرى أنه وليّ ذلك وصاحب المسؤولية فيه. ينقل عنه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في محاوراته للذين أرادوه التخلي عمَّن سبقوه وما وُلُّوا من خير أو شر، وأنه أجابهم بقوله: «إني وجدت كتاب الله الأقدم؛ فأنا حاملٌ عليه من أتاني ممن تحت يدي؛ فإني وجدت كثيراً ممن قبلي من الولاة عزُّوا الناس بقوتهم وسلطانهم، وعزهم بها أتباعهم، فلما وليت أتوني بذلك، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوي، وعلى المستضعف من الشريف»[٣].

هكذا لم يشأ الخليفة عمر ـ بمشيئة الله ـ أن يبني على شفا جرف هار، بل أراد أن يصحح الأوضاع ليبني على أساس متين من العدل والإنصاف.

يضاف إلى ما سبق: إصلاح الاختلالات الفكرية من خلال التعامل مع الخوارج، وكذا العصبيات الجاهلية التي ظهرت، وإزالة المنكرات[٤].

ثمرة السياسة الناجحة:

كان من كرم الله ومنته ثم من جراء السياسات الناجحة لعمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ في إدارة شؤون الدولة الإسلامية في الفترة من (٩٩هـ) إلى (١٠١ هـ) أن تحققت نجاحات عظيمة إذا ما قورنت بقصر الفترة المتاحة واستشراء الفساد

(١) حلية الأولياء: الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، ٥/٢٨١.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، ٦٠ ـ ٦١.

(٣) حلية الأولياء، ٥/٢٨٢، وانظر التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٤) انظر التاريخ الإسلامي من مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، المجلد الثامن، ص ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٠٨، ١١١، ١٢٨.

السابق، ومن ذلك أن عطاء الدولة للأمة كان أكثر من جبايتها، فسعدت الأمة بذلك، وزال الفقر عن فقرائها في مدة وجيزة، وأقيمت الخدمات العامة، وفاض المال عند الولاة حتى أرسلوا يستشيرون أمير المؤمنين في كيفية صرف المال الفائض.

ذكر ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى واليه على الكوفة يقول له: «كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد، والسلام».

ثم بعد أن كتب له الوالي: إنه قد بقي عندنا بعد ذلك، كتب له عمر: «أن قوِّ أهل الذمة؛ فإنا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين»[1].

وكان الفقراء حين يُؤتى لهم بالزكاة يقولون: قد أغنانا (كفانا) الله من فضله، وكذلك فعل السُّؤَّال، بسبب عطاياه؛ ولم يكن هذا النجاح مقصوراً على الجانب المالي، بل تعدى إلى الجانب الأخلاقي؛ فقد صلح حال العديد من الولايات التي كانت تشتهر بالفساد والظلم، ومن ذلك بلاد الموصل التي اشتكى واليها إلى عمر فأرشده باتباع الشرع في إصلاحها، ففعل الوالي، فكان نتيجة ذلك ما حكاه الوالي بنفسه قائلاً: «فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقباً».

وبلغ من نجاحه في إدارة الأمور ونشر العدل ورعايته للضعفاء من المسلمين ولأهل الذمة أن ترحَّم عليه حتى أولئك الذين تضرروا من سياسته، بل ترحم عليه ملوك الروم وأثنوا على سيرته، ومن ذلك ما ذكره الحافظ أبو نعيم الأصفهاني أن رجلاً جاء إلى هشام بن عبد الملك (الخليفة اللاحق) فقال: يا أمير المؤمنين! إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى إذا استخلف عمر - رحمه الله - نزعها، فاستعاد منه هشام المقالة فكرر الترحم على عمر، فقال له: والله! إن فيك لعجباً، إنك تذكر من أقطع جدك قطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليهم، وتذكر من نزعها فتترحم عليه!»[2].

كما أورد أبو نعيم: «أن عمر أرسل من يفادي أسرى المسلمين بأسارى من الروم، فلما دخل على ملك الروم وجده جالساً على الأرض مكتئباً حزيناً، قال: فقلت: ما شأن الملك؟ قال: وما تدري ما حدث؟ قلت: وما حدث؟ قال: مات الرجل الصالح. قلت: من؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: ثم قال ملك الروم: لأحسب أن لو كان أحدٌ يحيي الموتى بعد عيسى - عليه السلام - لأحياهم عمر بن عبد العزيز[3]. ثم قال: لست أعجب من الراهب أغلق بابه ورفض الدنيا وتعبد، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه فرفضها ثم ترهب»[4].

وشهد له الآخرون وبجلوه، كتب (أرنولد سير توماس) في كتابه: (الدعوة إلى الإسلام) أن أحد كتاب النساطرة كان يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم الرسول وإلى أسماء الخلفاء الأول كلما عرض ذكرهم، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[5].

خاتمة:

لا يسعنا في نهاية هذا التطواف الماتع في ثنايا سيرة عطرة لأحد الخلفاء الصالحين إلا أن نستنزل شآبيب الرحمة عليهم جميعاً، ونسأل الله لولاة أمر المسلمين أن يهديهم الله طريق سلفهم الصالح، وأن يرزقهم العمل بشريعته.

(١) سيرة ابن عبد الحكم، ص ٦٨، وانظر طبقات ابن سعد، ٥/٣٧٤.

(٢) حلية الأولياء، ٥/ ٢٤٥.

(٣) في الكلام مبالغة فيها شطط، وما كان عيسى يفعل ذلك إلا بإذن الله.

(٤) حلية الأولياء، ٥/ ٢٩٠.

(٥) نقلاً عن تاريخ الإسلام، د. حسن إبراهيم، ١/ ٢٦٨.



الازدواجية اللغوية.. والمرض الثقافي

خميس بن عاشور(*)

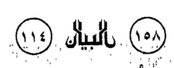
ما من شك في أن العلاقة بين اللغة والثقافة تكاد أن تكون عضوية أو ترادفية؛ فالثقافة هي مجموعة المعارف المكتسبة في مجالات العلم والدين والفن التي يتميز بها المجتمع، وأما اللغة وعلى الرغم من اعتبارها وسيلة وأداة للتوصيل فهي العنصر الأساسي في التركيبة الثقافية؛ إذ لا يعقل وجود ثقافة من غير لغة مهما كانت صفة هذه اللغة بوصفها أداة للتوصيل والاكتساب المعرفي بالإضافة إلى أن اللغة هي مخزن للثقافة.

وقد يبدو من الوهلة الأولى أن الازدواجية اللغوية هي تدعيم للثقافة وإثراء لها؛ وهذا من الناحية الصورية صحيح، ولكن من الوجهة الواقعية نرى أن الاختلال الحاصل على نطاق عريض يجعل من هذه الازدواجية المزعومة أداة هدم لا بناء؛ ولا سيما في حالة عدم حصول توازن من حيث الإجادة والاتقان للُغة الأم؛ ففي هذه الحالة تُحدث الازدواجية صراعاً خطيراً قد يؤدي إلى الانفصام الثقافي أو الانسلاخ الثقافي مثلما هو حاصل في بعض الأقطار المغاربية كالجزائر على الخصوص؛ حيث ينص دستورها وقوانينها على أن العربية هي اللغة الوطنية الرسمية؛ ومع ذلك فإن اللغة الفرنسية لا تزال تحتل الصدارة على المستويين الرسمي والعرفي، ومثل هذه الازدواجية المختلة تتسبب في إذكاء ذلك الصراع والتناقض بين القيم الثقافية التي تتضمنها كل لغة بالضرورة؛ فنجد على سبيل المثال تعارض قيم الحرية المسؤولة في الثقافة العربية مع قيم الإباحية والتهتك في الثقافة الفرنسية الحديثة، وقيم الإيمان بالألوهية مع قيم الإلحاد!

إن الشخصية في علم النفس التحليلي تتكون من جانب موروث وجانب مكتسب. وفيما يتعلق بالشخصية الجمعية وشخصية الأمم فإن الجانب الموروث هو التراث؛ فإذا كانت اللغة الدخيلة - أي الاستعمارية - تعمل جاهدة على تشويه التراث وإزاحته عن الميدان؛ فإنها بذلك تعمل على إذكاء ذلك الصراع الذي يهدف إلى تدمير حصون المقاومة حتى يتحقق لها الانتشار والسيادة. واليوم وقد رحل الاستعمار عسكرياً فإن الصراع الثقافي لا يزال مستعراً؛ ومن أهم مظاهره تلك الازدواجية اللغوية المختلة، ومن ثَمَّ المرض الثقافي؛ حيث ينعدم ذلك التوازن المطلوب الذي يعطي اللغة الأم حق السيادة في عقر دارها.

إن أشهر العلماء والمفكرين والأدباء قديماً وحديثاً كانوا يكتبون ويفكرون بلغة واحدة رغم

(*) باحث وكاتب جزائري.



احتمال معرفة الكثير منهم بلغات أخرى؛ فهل عُرف «كونفشيوس» بغير لغته الصينية؟ وهل عُرف «سقراط» و«أرسطو» و«أفلاطون» بغير اللغة اليونانية؟ أم هل عُرف «ابن رشد» و«ابن تيمية» و«ابن خلدون» بغير اللغة العربية؟ وفي العصور الحديثة: هل عُرف «كانط» و«ماكس فيبر» بغير الألمانية؟ وهل عرف «ديكارت» و«روسو» بغير الفرنسية؟ أم هل عرف «باكون»، و«وليام جيمس»، و«جورج أورويل» بغير اللغة الإنجليزية؟ أما نحن في ثقافتنا المريضة بالفصام فإنه يفرض علينا أن نستوعب لغة غيرنا وثقافته حتى وإن كنا لم نستوعب الحد الأدنى من لغتنا وثقافتنا الثرية والأصيلة.

إن مثقفينا يحملون لواء الدفاع عن الازدواجية اللغوية والثقافية على الرغم من عدم براءة هذه الدعوة؛ وحتى الدول التي تشجعنا على ذلك لا تؤمن بها في بلدها مثل فرنسا؛ مع العلم أن كل الفرنسيين الذين تلقوا دراسة حكومية منتظمة يلمُّون باللغة الإنجليزية على الأقل؛ فالازدواجية عندهم وظيفية وبذلك لا تعتبر مرضاً ثقافياً كما هو الحال عندنا. ومع افتراض بعض المحاسن من هذه الازدواجية فإن الترجمة كفيلة بتحقيقها على أحس وجه دون مخاطر الوقوع في المرض الثقافي أو الانسلاخ الثقافي؛ فالترجمة كان من المفروض أن تكون هدفاً لهذه الازدواجية.

ولكن الحقيقة المؤسفة أن هؤلاء المزدوجين - ولا سيما في الدول المغاربية - لم يحققوا ذلك الهدف، بل صاروا يكتبون ويفكرون باللغة الاستعمارية أي الفرنسية حتى إن بعضهم اعتبر الفرنسية غنيمة حربٍ! ولنا أن نتساءل: كيف تكون غنيمة حرب عند مَنْ فَقَدَ روحه؟ فالترجمة هي الوسيلة الصحيحة التي تدعم الثقافة الأم؛ وليست هذه الازدواجية المفروضة إلا مظهراً من مظاهر المرض الثقافي، والعبرة في النتائج، والأعمال بخواتيمها؛ فقد أصبح العديد من الأدباء المغاربيين رُواداً في الأدب الفرانكفوني المعاصر، ولذلك فإن المستفيد من ذلك هو الأدب الفرنسي والثقافة الفرنسية. ومع ذلك فإن بعضهم قد شعر بوخز الضمير، فكان دائماً يستحضر هذه العقدة عقدة الكتابة بغير اللغة الأم، ومنهم من آب ورجع بعد جهد جهيد إلى أحضان لغته وثقافته العريقة في ثرائها وتنوعها؛ في حين ارتد بعض آخر وصار يكتب باللغة الأخرى وخاصة الفرنسية التي سحرتهم بما تختزنه من ثقافة لائيكية، هذه الثقافة التي تعتبر نادرة إن لم تكن منعدمة في الثقافة العربية.

إن الترجمة مدعوة اليوم لأن تكون العلاج الفعال للمرض الثقافي؛ وذلك عن طريق التركيز على نقل المعارف الإنسانية والعلوم النافعة التي تخدم استراتيجيتنا الثقافية لا أن تساهم في تعميق مرضنا الثقافي والحضاري المستشري، وفي إطار هذه الاستراتيجية فهي مدعوة أيضاً إلى نقل ثقافتنا إلى الغير؛ لأن لها وزناً يوجب علينا المساهمة في تطوير الفكر الإنساني والقيم البشرية وتحقيق الواجب من الدعوة نحو الشعوب والقبائل والأمم الأخرى.

والغريب في الأمر هنا أن أُولى التراجم لصحيح البخاري لم يقم بها مسلمون، بل قام بها رجل دين مسيحي أسلم هو «ليوبولد فايس» «محمد أسد»

وأن أول فهرسة لألفاظ الحديث النبوي الشريف في العصر الحديث قام بها جماعة من المستشرقين الغربيين؛ وهذا دليل ساطع على قوة الثقافة العربية الإسلامية حتى في أزمنة الانحطاط هذه التي يسمونها: عصر النهضة عصر الاستعمار والاحتكاك المباشر بالثقافة الغربية بإيجابياتها وسلبياتها. وكلنا يتذكر تلك البعثات التي كان الفرنسيون والألمان والإنجليز يحرصون على إرسالها إلى جامعاتهم من أبناء البلاد المستعمَرة لتعلُّم القوانين الفرنسية والإنجليزية والآداب والفنون اللاتينية؛ فماذا كانت النتيجة؟ لقد تعرضت هذه النخب إلى عمليات غسل مخ ثقافي، وعند رجوعهم إلى الأوطان عملوا على تخفيف المؤونة التي أنفقها الاستعمار المباشر بتنفيذ مقاصده وفلسفته في الميدان، ولذلك فإن أول ما عرفناه من مؤلفات مترجمة إلى العربية هي كتب القانون والفلسفة والآداب الغربية بالإضافة إلى كتب المستشرقين، ومَنْ من الباحثين لا يعرف كتاب «العقيدة والشريعة» لـ «جولد زيهر» أو كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لـ: «كارل بروكلمان» أو «دائرة المعارف الإسلامية البريطانية» وما فيها من اعتداء علىَ المنهجية العلمية وعلى تراثنا الإسلامي العريق؟

إن أول خطوة يتحتم علينا القيام بها اليوم هي الاعتراف الرسمي بالذنب الذي ارتكبته النخب المثقفة والنخب الحاكمة في عالمنا العربي والإسلامي؛ فهؤلاء ذهبوا بأنظارهم بعيداً مع أن زادهم قليل قليل في رحلة الاستغراب والخراب الفكري، فبحثوا في حقائب الغير كأنهم لصوص، واستوعبوا ما أريد لهم أن يستوعبوا، ولبسوا ما أريد لهم أن يلبسوا من أثواب الزيغ والعقوق، وركبوا كل المراكب التي تسخط الرحمن وترضي شياطين الفكر الغربي وساسته؛ وبعد ذلك ظنوا أنهم قد وصلوا، ففرحوا بما عندهم من العلم، وعندما نظروا ذات مرة إلى مواطئ أقدامهم قالوا: من نحن؟ فمنهم الذين أدركوا أنهم قد وقعوا في شراك أُجِيدَ حبكها في دوائر الغزو الثقافي ومراكز الاستدمار الفكري، ولكنهم أدركوا بعد حين من الدهر أن ثعالب الاستغراب أرادوا لهم أن يكونوا لقطاء مع أن نسبهم شريف.

إن الخدمات التي قدمتها هذه النخب المستغربة بثقافتها المهجَّنة لم تحظَ حتى باعتراف أولئك الذين يفترض أن يباركوا هذه المجهودات الانسلاخية؛ فهذا زعيم الوجودية الفرنسي «جان بول سارتر» يصف الإنتاج الأدبي لهؤلاء المهجَّنين والمدجَّنين فكرياً بقوله: «هذه بضاعتنا ردت إلينا» وكان الأجدر أن يضيف كلمة: «مشوهة».

ومع ذلك لنا أن نتساءل: لماذا منحت جائزة «نوبل» للآداب لأديب مصري كبير هو «نجيب محفوظ» سنة ١٩٨٨م، ولم تُمنح لطه حسين(*) الذي توفي سنة ١٩٧٣م والذي يعتبر في رأي

(*) حتى طه حسين لم يسلم من المآخذ والأخطاء التي تطعن في الإسلام، ومن ذلك مقولته في انتحال الشعر الجاهلي، وادعاؤه أن ذكر قصة إبراهيم - عليه السلام - في القرآن لا يعني أنها حقيقية، وهي مسألة نوقشت في حينه من فطاحل العلماء؛ حيث سفهوا رأيه أمثال (محمد الخضر حسين، ومحمد عرفة، وغيرهم).

جمهور النقاد عميد الأدب العربي المعاصر؟ فهل كان الوقت لم يحن بعدُ؛ لأن العرب لم يخرجوا من طور الحضانة؟ أم أن هناك حسابات أخرى؟ ففي سنة ١٩٥٥م كتب الشيخ «محمد الغزالي» - رحمه الله - مع ثلاثة أزهريين تقريراً ودفعوه إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» ذكروا فيه أن رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ التي كانت جريدة «الأهرام» تنشرها آنذاك متسلسلة تنال من الذات الإلهية، فما كان من الرئيس إلا أن أمر بسحب الرواية ومصادرتها وانتهت القضية.

ولكن غضب الأزهريين سجلته خلايا مؤسسة «ألفريد نوبل» واحتفظت به إلى غاية سنة ١٩٨٨م بعد وفاة عميد الأدب العربي. لقد نال «نجيب محفوظ» الجائزة؛ لأنه مؤلفها أولاً، ومجَّد الفراعنة ثانياً، وثالثاً: لأنه كان يدعو إلى رفع درجة الأقباط من مرتبة الأقلية الدينية إلى مرتبة الشريك المقاسم. لقد كوفئ لأنه ساهم في تنفيذ الخطة التفكيكية للوحدة السياسية والثقافية للأمة العربية الإسلامية؛ فقد حظي بدخول جحر الضب ولم يحظ «طه حسين» بذلك رغم استغرابه الفرنسي؛ لأن سليقته العربية تغلبت على مرضه الثقافي.. ومع ذلك نجد أكبر الأدباء الفرنسيين وهو «سارتر» يترفع عن استلام جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٦٤م؛ لأن هذه «الضفدعة اليائسة» كانت ترفض نفاق الثقافة الغربية وإنسانيتها الكاذبة أمام أعين أطفال آسيا وإفريقيا وبطونهم الجائعة عكس أخيه في فلسفة اليأس «الوجودية» «ألبير كامو» الذي لم يستطع أن يخالف عقله وقلبه عندما طرح سؤاله الجوهري: «هل الحياة تستحق منا أن نعيشها أم لا؟» فقد استلم جائزة نوبل سنة ١٩٥٧م؛ إنه أراد أن يعيش؛ لأن ذلك من طبيعة «الأقدام السود» (مصطلح يقصد به في الجزائر المستوطنين الغربيين) ولا عبرة عنده بمن اختار الانتحار انتقاماً من هذه الجبرية الوجودية. هذا «الكامو» عندما سئل عن رأيه في استقلال الجزائر أجاب إجابة ذكية بقوله: لو خُيرت بين الحرية وأمي لاخترت أمي. أي فرنسا.

واليوم وفي خضم مرضنا الثقافي يطل علينا الغرب بمشروع العولمة الاقتصادية والثقافية، وهو بذلك يريد استغلال قوته الحالية التي قد لا تدوم طويلاً من أجل تحقيق مآربه القريبة والبعيدة معاً، وأصبحنا نسمع كثيراً عن فكرة نهاية التاريخ والحوار بين الأديان والثقافات، وقد علمنا أن الحوار لا يكون ناجحاً إلا إذا كان بين أطراف متكافئة، ونحن وإن كنا أقوياء فعلاً بثقافتنا العربية الإسلامية فإننا ضعفاء إلى درجة فقدان السيادة بسلوكنا المنحرف عن الصراط المستقيم الذي هو المقياس الوحيد لرشدنا الثقافي.

وأمام هذه العولمة الجارفة فلا نملك إلا أن نقول: لا بيعة لمكرَه، إننا نرفض النفاق؛ لأن ذلك ليس من شيم قيمنا الثقافية، وأمام ضعفنا المفتعل فلا يمكن أن نقابل مثل هذه الدعوات إلا بعين الريبة والشك؛ فالاستعمار العسكري بعد أن تحول إلى استعمار اقتصادي ها هو اليوم يبدل ملابسه القذرة ليخرج إلينا في طبعة ثالثة أنيقة في ظاهرها متوحشة في باطنها هي العولمة الشاملة؛ وهذا موضوع قد ييسر الله معالجته لاحقاً. والله الموفق.



من سمات كُتَّاب الضلالة

محمد بن عبد الله الهبدان

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى والهادي المجتبى ومن سار على نهجه واقتفى. أما بعد:

فإن الصراع بين الحق والباطل صراع مستمر إلى قيام الساعة؛ فأعداء الإسلام لا يزالون يتربصون بأهل الإسلام الدوائر، ويسعون في الأرض فساداً، وكلما نفضوا أيديهم من مكيدة بدؤوا يعدون لمكيدة أخرى، ويزداد الأمر خطورة، ويعظم الأمر خطباً حينما يكون أولئك ممن يتسمَّوْن بأسمائنا، ويتكلمون بلغتنا، وهم من أبناء جلدتنا، ولكنهم جندوا أنفسهم لهدم مجتمعاتهم، ونشر الفاحشة بينهم، وبذر الشر والفساد فيما يكتبون ويطالبون، فسخروا أقلامهم لإفساد الأمة عامة والمرأة على جهة الخصوص، فأفرزت صدورهم نفثات حقد دفين، وفاحت كتاباتهم العفنة بمقالات نتنة، وشَرِقت صدورهم لـمَّا رأوا من انتشار الصلاح في أوساط النساء، ومحافظتهن على الحشمة والحياء، والطهر والنقاء، فلَمَّا رأوا ذلك قامت الدنيا ولم تقعد، فأجلبوا بخيلهم ورجلهم، وأحيوا ليلهم، وشمروا عن ساعد الجد، فكتبوا ونعقوا، فتارة يلوِّحون، وتارة يصرِّحون، فلا تخلو كتاباتهم من شبهة فاسدة، أو مطالبة فاضحة، أو دعوة حاقدة، وقد امتلأت أعمدة الصحافة في العالم الإسلامي من أقلامهم المسمومة، وأفكارهم الموبوءة؛ ولكي تكون منهم على حذر فإني أذكر لك أبرز سماتهم التي تكشف حقيقتهم، وإنما اقتصرت على ذكر السمات دون الأسماء؛ لأن الأسماء تتغير وتتبدل، أما السمات فإنها ثابتة لا تتغير منذ ظهور المنافقين وحتى قيام الساعة:

١ - أنهم يتفقون على إثارة قضية من القضايا، ويتواصون فيما بينهم على الكتابة فيها، والمطالبة بتنفيذها، فتشعر أن الأمر قد حِيكَ بليل، وعملوا على تنفيذه، وهذا أمر لا يخفى على صغار الناس فضلاً عن كبارهم وفضلائهم.

٢ - أنهم يجعلون لمطالباتهم ومقالاتهم عناوين براقة، وبخط بارز عظيم، وفي الصفحة الأولى أو الأخيرة، فيغتر العامي من الموحدين بمثل هذه العناوين، ومن طيب نفسه قد يوافقهم على رغباتهم، ويؤيدهم في توجهاتهم، وما علم المسكين أنهم ذئاب بشرية همهم الأول تحقيق مطامعهم الشهوانية، ونزواتهم البهيمية.

٣ - أنهم كثيراً ما يتحدثون عن قضية المرأة، وهذه القضية هي التي يراهن عليها أعداء الإسلام عموماً، لعلمهم أن القضاء على الدين يبدأ من إفساد المرأة، وإخراجها من حصنها الحصين، وفي هذا يقول أحدهم: «علينا أن نكسب المرأة؛ ففي أي يوم مدت إلينا أيديها فُزْنا بالحرام، وتبدد جيش المنتصرين للدين». وكلامهم يدور على محورين:



الأول: نزع حياء المرأة والقضاء على الحجاب الإسلامي؛ فكثيراً ما يلمزونه في كتاباتهم شعراً ونثراً، ومن ذلك قول أحدهم: «عيشي كما تشائين، كوني كما تريدين، انزعي الألم!! ازرعي الأمل، حطمي القيود، اخلعي القيود، سافري بلا حدود».

وقول أحدهم: «تيه وأوهام وأقنعة تدار، وعلى الجميع على الجميع الانتظار».

والثاني: إلغاء القوامة التي منحها الله للرجل على المرأة، والدعوة إلى المساواة بين الجنسين في كل شيء، وهذه الدعوة الخبيثة تبدأ بالدعوة إلى استقلال المرأة عن وليّها بحجج واهية، لتكون وليّة نفسها، ولتتمكن من التمرد على وليّها متى أرادت.

٤ - أنهم أحياناً يستضيفون بعض العلماء لطرح بعض القضايا عليهم، ثم تُطْرح عليهم الأسئلة وتصاغ بطريقة ماكرة حتى يجيب العالم بجواب يريدونه فيقتطعون من جوابه ما يريدون، ويُكتب بخط واضح عريض في الصفحة الأولى: العالم الفلاني يقول كذا..!! فيلبسون بذلك على الناس، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

٥ - تتبّع الرخص والآراء الشاذة والضعيفة لبعض العلماء وبثها والإشادة بها وبأصحابها، مع تجاهل الأقوال الصائبة التي لا تخدم أفكارهم وتوجهاتهم، وقد كتبت إحداهن مقالاً في إحدى الصحف تشيد فيه بأحد المنتسبين للعلم بسبب أنه أباح للمرأة أن تتولى أعلى المناصب، وأن تكشف وجهها، وأباح الغناء. وصحفي آخر كتب مقالاً يثني فيه على هذا العالم نفسه؛ لأنه تبنى المنهج العقلي في تفسير النصوص والحكم عليها. وهكذا. نسأل الله أن يكفي المسلمين شرهم بما يشاء إنه هو السميع العليم.

٦ - أنهم يؤيد بعضهم بعضاً، فإذا كتب أحدهم مقالة أشاد الجميع بقوة مقاله، وجودة أفكاره، وحسن أسلوبه، وجمال عباراته، وهكذا من سلسلة المدح والثناء، لذلك المقال، والذي لو تأمله صغار طلاب العلم لتبين له ضحالة الفكر، وسوء الأسلوب، ولكنهم كما أخبر القرآن: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١]، خاصة إذا كان الكاتب ممن صُنع على أيديهم، وتربى في أحضانهم فيجعلونه فُوَّهة لهم، من خلاله يبثون سمومهم في المجتمع؛ فهي خطوات متتابعة: كاتب ناشئ، ثم ما يلبث حتى يكون ذلك الناشئ لامعاً بسبب تأييدهم لمقالته، وفي النهاية يكون مُنَظِّراً مثلهم.

٧ - أنهم أحياناً يتقمصون شخصيات العلماء؛ فتارة تجده من الفقهاء، وتارة من المحدثين، وتارة تجده من علماء الأصول والتفسير، وهكذا، فتُجرى مع هذا المتعالم مقابلة، فيتخلل تلك المناقشة أسئلة شرعية تتعلق بقضايا عقدية أو فقهية أو اجتماعية لو طرحت على عمر - رضي الله عنه - لجمع أهل بدر لها، بينما ترى ذلك الذي صدَّر نفسه عالماً، وليس له من علوم الشريعة فتيل ولا قطمير، أطلق للسانه العنان في التحليل والاستنباط، حتى كأنه إمام زمانه، ووحيد قرنه، وفريد عصره؛ وهذه - والله - من عجائب الدهر.. والله المستعان.

٨ - أنهم يُضمِّنون كتاباتهم بعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية التي توافق أهواءهم، وهم مع ذلك لا يميزون بين النصوص الشرعية والأمثال والحكم، وهذه سمة بارزة في كتاباتهم. وقد أرادت إحداهن أن تستشهد بآية فعجزت عن استحضارها مع سهولة الرجوع إلى المصحف أو المعجم، فقالت: «قال الله بما معناه..»!!، وآخر

ـ وهو دكتور ـ ذكر حديثاً نبوياً متفقاً عل صحته، فقال ـ قبل إيراده ـ : «وفي المثل العربي»!!، وهم لا يميزون بين صحيح الحديث من سقيمه، ولا يعرِّجون على الأدلة التي تخالف مذهبهم وتبطل آراءهم، فيسهبون حول حديث ما، ويعيدون ويكررون، كل ذلك تغريراً بعامة الموحدين، وإعطاء آرائهم صبغة دينية، وصورة شرعية، وهذه طريقة يهود كما قال الله ـ تعالى ـ في القرآن: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ [البقرة: ٨٥]، وطريقة أهل الزيغ الذين قال الله فيهم: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ [آل عمران: ٧]. قال ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم»[1].

٩ ـ أنهم في غالب الأحايين يستشهدون بأقوال مفكري الغرب أو الشرق، من أمثال: (بودلير) و (بلزاك) و (سومرت موم)، وكذا الاستشهاد بأقوال الزنادقة والضالين من أبناء هذه الأمة من أمثال الشاعر الفلسطيني (محمود درويش)، والشاعر السوري (أدونيس)[2]. فتراهم يأخذون أقوال أولئك وكأنها نصوص من الوحي الكريم، فيبدأ أحدهم بالشرح والتفصيل، والمدح والتبجيل، ومن ثم يطالب بترجمة تلك الأقوال ترجمة عملية في المجتمع المسلم، بحكم أنهم قد تقدموا علينا فكرياً وصناعياً وثقافياً وغيرها من العبارات الساقطة ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ [الكهف: ٥].

١٠ ـ ومن علاماتهم أيضاً: أنهم يستخدمون مصطلحات موهمة، ورموزاً غامضة، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، كلفظ الحرية والمساواة، أو التقدم والرقي، أو التوازن والإنصاف، أو عدم الرجعية والتخلف، والبعد عن الإرهاب والتطرف، ونحو هاتيك العبارات، وذلك لتمرير أفكارهم الرديئة التي لا يستطيعون المجاهرة بها، خوفاً من المجتمع، وهو أسلوب مرحلي مؤقت سرعان ما يتخلون عنه إذا تهيأت الظروف، ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** ﴾ [البقرة: ٩، ١٠].

١١ ـ أنهم يكتبون أحياناً بأسماء نسائية مستعارة ليكون التأثير أبلغ[*]، والصدى في النفوس أكثر، فإذا أرادوا ـ على سبيل المثال ـ: تشجيع المرأة على ارتياد النوادي الرياضية فإن أحدهم يكتب بتأييد فريق كروي أو تحليل رياضي باسم فتاة، أو يكتب في القصائد الشعرية التي كلها سخف وهراء، فتغتر الفتاة المسكينة فتراسلهم في الكتابة، وهم بعد ذلك يطبلون حولها حتى تظن نفسها شاعرة العصر، وفريدة الدهر!! وقد فاقت بشعْرها شعراء الجاهلية والإسلام!! وأحياناً يوظفون بعض الأقلام النسائية الهابطة التي تحررت من أدب الحياء والحشمة والطهر والعفاف، فتطالب

(١) رواه البخاري، ح/ ٤٥٤٧، ومسلم، ح/ ٢٦٦٥، واللفظ له، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) وهو نصيري باطني، واسمه: (أحمد علي)، وكلمة أدونيس تعني: إله الخصب عند الفينيقيين.

(*) ومن أشهرهم الكاتب النصراني (مفيد فوزي) الذي يقدم كتابات نسائية متحررة تحت اسم (نادية عابد). وهناك الكثيرون من أمثاله ممن ينهجون النهج نفسه، فهل نعي هذا الدور الخطير، ولا سيما الفتيات المسلمات — البيان —

وتكتب عما يشتهون ويريدون، وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال - سبحانه -: ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾. [إبراهيم: ٤٦، ٤٧].

١٢ - أنهم يتحينون وجود الأحداث الكبرى في الأمة، وانشغال المصلحين عنهم في مثل تلك الأحداث، فيستثمرون ذلك في ترويج ضلالاتهم في المجتمع.

١٣ - أنهم يشغلون الأمة بمطالبات عدة، وفي وقت واحد، ويضخمون حدثاً معيناً دون آخر، وهو في الحقيقة ليس بشيء عندهم ولكنها التغطية الإعلامية، والخدع الشيطانية؛ فتكتب الأمة رفضاً لهذا الأمر، وتتم الموافقة على رفضها فتتنفس الأمة بملء صدرها فرحة لذلك، وفي أثناء تلك الفترة التي فتر الناس فيها يتم تمرير مطالبة أخرى، ولكن بدون ضجيج ولا هالة إعلامية، فلا يشعر بها أحد، إلا وهي على أرض الواقع.

١٤ - أنهم يُجرون دراسات واستفتاءات حول قضية ما، ومن المفترض أن تكون الشريحة التي تطبق عليها الدراسة متكافئة حتى تكون نتائج الدراسة صحيحة، ولكنهم يسلكون غير هذا المسلك، ولعلي أضرب لكم مثلاً على ذلك:

أُجريت دراسة عن مدى تفوق أبناء العاملات وتفوق أبناء ربات البيوت - هذا إن صح -، فأظهرت الدراسة أن أبناء العاملات أفضل دراسياً من أبناء ربات البيوت، لكن كان من المفترض في مثل هذه الدراسة أن تكون الشريحة التي تم البحث فيها متكافئة في المستوى التعليمي، ولكن الواقع كان خلاف ذلك؛ فغالب ربات البيوت التي تمت الدراسة عليهن أميات لا يعرفن القراءة والكتابة، بخلاف الشريحة الأخرى، وهذا مما لا يشك عاقل منصف أن فيه إجحافاً وشططاً، وهوى في النفوس؛ ولذا فإنه لا بد لأهل الإيمان أن يتنبهوا لمثل هذه الدراسات التي تصدر عن أمثال هؤلاء.

وأحياناً يُجرون استفتاءات مع شريحة معينة توافق أهواءهم، فيشعر القارئ أن المجتمع كله يرغب في مثل هذه القضية، ومما يدل على سذاجتهم أن جميع إجابات المشاركين أو المشاركات تتم وفق رغباتهم!! فيا للعجب! ألا يوجد في الأمة مخالف؟ ألا يوجد فيها معارض؟ وهل طبائع الناس وأفكارهم متوافقة إلى هذا الحد؟ أم أنه الدجل والخداع وتغيير الحقائق والتلبيس بها؟ قال - سبحانه -: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾. [فاطر: ٨].

١٥ - غلبة الفكر الانهزامي عليهم، وعقدة النقص التي ركبها المستعمر الغربي في أذهانهم. يقول أحدهم بمناسبة سقوط بوش الأب في الانتخابات الأمريكية قبل السابقة وتولي كلينتون: «إن الأمريكيين هم الجديرون بالحضارة والحياة منا نحن أهل الشرق»، والسبب في نظره أننا: «أغبياء لا نفهم أو يصعب علينا أن نفهم»[1].

١٦ - الاستهزاء بالنصوص الشرعية، ومحاكاتها وإقحام أجزاء منها في كتاباتهم الغامضة

---

(١) انظر: مجلة اليمامة، عدد: (١٢٣١).

التي يسمونها شعراً وإبداعاً، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

يقول أحدهم: «خذوا زينتكم، واتبعوني، ثمة واد يهيم فيه الشعراء».

إلى أن يقول: «أيها العشاق، أفتوني في رؤى صاحبي، رأسه وكر للوطاويط»[١].

وتقول أخرى: «تمهل حبيبي، وخذ حفنة من رماد الحقول، وخذ راحتي، نقشت فوقها آية للعذاب المبين، إلى أن تقول: «قلت اهبطي من سمائك»[٢]، وتقول ثالثة: «وماذا أريد، وكل الدروب، تقد قميص البراءة»[٣].

هذا ما يتعلق بالقرآن.

أما الأحاديث فلم تسلم من سخريتهم ابتداءاً من الأسانيد، وانتهاءاً بقول النبي ﷺ، وإليك بعض الأمثلة:

يقول أحدهم: «حدثنا الشيخ الإمام، عن صالح ابن عبد الحي عن سيد درويش عن أبيه عن جده، قال: يأتي على هذه البلاد زمان إذا رأيتم فيه الفن»، إلى أن قال ـ قبحه الله وأخزاه ـ: «قالها وهو ينتحب، فتغمده الله برحمته وغفر له ذنوبه»[٤]، فأي استهزاء بعد هذا..!! وتقول إحداهن مستهزئة بقول النبي ﷺ: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرجل الحازم من إحداكن»[٥]، تقول: «يرضع الطفل من ثدي أمه حتى يشبع»، إلى أن تقول: «وعندما يصبح رجلاً، يضع ساقاً فوق ساق في أحد مقاهي المثقفين، ويعقد مؤتمراً صحفياً يقول فيه: إن المرأة بنصف عقل، وبنصف دين، فيصفق له الذباب، وغرسونات المقهى»[٦].

وبعد؛ فهذا غيض من فيض من كتاباتهم وضلالاتهم، وترهاتهم، ومع ذلك نرى من ينخدع بهم ويصفق لهم ويثني عليهم؛ فإلى متى نصفق لأعداء أمتهم؟!!

١٧ - تمجيد الغربيين والثناء عليهم؛ واعتبارهم القدوة والمثل الأعلى في كل شيء، واختيار أرق الألفاظ وأحسن العبارات للاعتذار عن مساويهم، واحتقار الشرق وأهله.

١٨ - أنهم يأخذون بمبدأ خط الرجعة، فإذا وجدوا معارضة قوية لمقالاتهم، قالوا: «نحن لم نقصد ما تقولون؛ ولكن أردنا كذا»، ثم يبدؤون في ليِّ الكلام والعبارات حتى تتسق مع المخرج الذي يخرج به من المأزق الذي وقع فيه.

دورنا في درء هذا الفساد:

ما دورنا تجاه أولئك الساقطين والساقطات؟ وما واجبنا في مواجهة هذا الزَّخْم من الشبهات والضلالات التي تتكاثر يوماً بعد يوم؟ إن دورنا يكمن في أمور:

أولاً: الحذر من هؤلاء الكتّاب وما يدعون إليه من أفكار مضللة، وعدم الثقة بهم.

---

(١) الجزيرة، عدد: (٨٥٨٤)، ص ١٣.

(٢) الجزيرة، عدد: (٨٥٣٨).

(٣) عكاظ، عدد: (١٠٥٤١).

(٤) أخرجه البخاري، ح/ ٣٠٤، ١٤٦٢، وتمامه: «قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل». قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم» قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان دينها».

(٥) مجلة الشرق، عدد: (٣٢٦).

(٦) مجلة اليمامة، عدد: (١٠٧٩).

ثانياً: رصد كتابات أولئك الدخلاء والرد عليهم من قِبَل أهل العلم والاختصاص.

ثالثاً: تحذير الناس من كتاباتهم ومقالاتهم، وفضح مؤامراتهم حتى لا ينخدع فيهم عامة المسلمين.

رابعاً: مراسلة أولئك الكُتّاب وتحذيرهم بالتي هي أحسن من مغبة هذا الطريق الذي يسيرون عليه. يقول الله ـ تعالى ـ لموسى وهارون عندما أرسلهما الله ـ تعالى ـ لفرعون الطاغية: ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** ﴾ [طه: ٤٤].

خامساً: ألا تكون مواقفنا دائماً ردود أفعال فحسب؛ بل لا بد أن تهاجم مبادئهم التي قد تمكنت، وأفكارهم التي قد رسخت، حتى يخر عليهم السقف من فوقهم وهم لا يشعرون.

سادساً: إن من الأمراض التي نعاني منها: تهرُّب كثير من الناس من مسؤولياتهم تجاه دينهم، والاستظلال بظلال التواكل والتسويف، حتى تعطل من جراء ذلك خير كثير؛ ومن العجب أن هذا الخلل يقل أو ينعدم عند أهل الكفر، فبنظرة إلى تكاتف أهل الديانات الباطلة، والمذاهب المنحرفة يرى عجباً من قوة تكاتفهم، وشدة ترابطهم في سبيل نشر مبادئهم، مع اختلافهم المتباين في المكان والزمان والحال، إلا أن العمل لمصلحة مبادئهم هو المحور والمرتكز الذي يؤمه الجميع.

ولذا فليجعل كل مسلم على نفسه مسؤولية العمل للدين بكل ما يستطيع من الوسائل والسبل؛ فإن الجهود إذا تضافرت وتكاتفت، أينعت ثمارها، وآتت أكلها.

سابعاً: على المسلم أن يحذر من دخول اليأس، والتقاعس عن القيام بما يستطيعه، ويتأكد هذا في حق الدعاة والمصلحين؛ فعليهم أن يحذروا من دخول اليأس إلى قلوبهم عند رؤية الباطل قد انتفش، وأن دعوتهم لم تقبل؛ فإن مهمة الداعية هي البلاغ، والنتائج على الله تعالى؛ كما قال القائل:

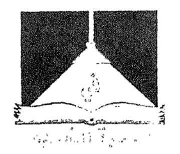
على المرء أن يسعى إلى الخير جهده
وليس عليه أن تتم المقاصد

يقول النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»[1].

فإذا كانت دعوة نبي قد لا يستجيب لها أحد، فأين مقام الدعاة والمصلحين من مقام الأنبياء؟!!

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) رواه البخاري، ح/ ٥٧٠٥، ومسلم، ح/ ٢٢٠، واللفظ له.



بين التوراة كتاب الله والتوراة اليهودية المحرفة

د. صلاح عبد الفتاح الخالدي

الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله ركن من أركان الإيمان الستة، ولا يتحقق هذا الإيمان إلا بالإيمان بالكتب؛ حيث يؤمن كل مؤمن من المسلمين أن الله أنزل كتباً على رسله، وجعل هذه الكتب نوراً وهدى للناس.

ويجب على المؤمن أن يؤمن بالكتب التي ذكرها الله في القرآن، وأخبرنا أنه أنزلها على رسله، وهذا إيمان «تفصيلي» بالكتب.

يجب على المؤمن أن يؤمن أن الله أنزل التوراة على موسى، وأنزل الزبور على داود، وأنزل الإنجيل على عيسى، وأنزل القرآن على محمد عليهم الصلاة والسلام.

هما توراتان اثنتان:

من أنكر نزول التوراة على موسى - عليه السلام - فهو كافر في حكم الإسلام، مخلد في نار جهنم، ومن أنكر نزول الزبور على داود - عليه السلام - فهو كافر، ومن أنكر نزول الإنجيل على عيسى - عليه السلام - فهو كافر.

لكن أي توراة تلك التي نؤمن بها؟ وأي زبور وإنجيل نؤمن بهما؟ إنها ليست التوراة الموجودة الآن بين أيدي اليهود، والتي أدخلوها ضمن ما يسمونه: «العهد القديم»!! وليس هو الزبور الذي جعله اليهود أحد أسفار العهد القديم، وسموه «مزامير داود»!! وليس هو الإنجيل الموجود بين أيدي النصارى الآن، والذي يسمونه: «العهد الجديد»!! وهو أربعة أناجيل منسوبة (للوقا وبطرس ومتى ويوحنا).

إذن: هما توراتان وزبوران وإنجيلان! يجب أن نؤمن بأحدهما أنه كتاب الله، ومن أنكر ذلك فقد كفر، بينما يجب أن نؤمن أن الثاني - الموجود الآن - ليس كتاب الله، وإنما هو محرف مبدل، وهو من ثم منسوخ ملغى، ومن أنكر ذلك فقد كفر!!

ولنفصل القول قليلاً في هذه المسألة المهمة.

إنزال التوراة على موسى:

أنزل الله التوراة على موسى - عليه السلام - ألواحاً نازلة من السماء، وذلك عندما خرج موسى - عليه السلام - ببني إسرائيل من مصر، وبعدما أغرق الله فرعون وجنوده؛ فلما كان موسى - عليه السلام - مع بني إسرائيل في سيناء واعده الله أن

يأتي إلى جبل الطور، فغادر موسى - عليه السلام - بني إسرائيل، واستخلف عليهم أخاه هارون عليه السلام؛ لأنه سيغيب عنهم أربعين يوماً، وبعد انقضاء الأربعين يوماً كلَّم الله موسى على جبل الطور تكليماً، وأنزل عليه التوراة مكتوبة على الألواح، وأمره أن يأخذها إلى قومه بني إسرائيل، ليلتزموا بها، وينفذوا ما فيها.

قال - تعالى - : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

[الأعراف: ١٤٢ - ١٤٥].

والتوراة الربانية التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام - نور وهدى وضياء ورحمة، وفرقان وحق؛ لأنها كتاب الله وشرعه وكلامه وحكمه.

من صفات التوراة في آيات القرآن:

وقد أثنت آيات القرآن على التوراة أحسن الثناء:

قال - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

[الأنبياء: ٤٨، ٤٩].

التوراة في هاتين الآيتين موصوفة بأنها فرقان وضياء وذكر للعالمين، وهي هكذا لأنها كلام الله، وكل كلام الله النازل في كتبه على رسله هو ضياء وذكر للعالمين، سواء كان توراة أو زبوراً أو إنجيلاً أو قرآناً!!

وقال - تعالى - : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١]. التوراة نور وهدى للناس، والمراد بالناس هنا بنو إسرائيل، وليس الناس جميعاً؛ لأن رسالة موسى - عليه السلام - خاصة ببني إسرائيل، وليست للعالمين؛ فمن المعلوم أن كل رسول كان يُبعث إلى قومه، ورسولنا محمد ﷺ هو وحده المبعوث إلى الناس كافة.

وقال - تعالى - : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وأمر الله المؤمنين أن يؤمنوا بهذه التوراة الربانية الصادقة، بهذه الصفات الإيجابية الهادية، ضمن إيمانهم بكتب الله الأخرى التي أنزلها على رسله؛ وذلك في قوله - تعالى - : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

هذه التوراة جعلها الله تشريعاً وهداية لبني إسرائيل، وضمنها مجموعة من الأحكام التشريعية لهم.

وقد أخبرنا الله في القرآن عن بعض ما حرم الله على بني إسرائيل كما في قوله - تعالى - : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ

وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وكما في قوله ـ تعالى ـ خطاباً لليهود: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤].

هذه هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ـ عليه السلام ـ، نؤمن أنها كتاب من كتب الله، كتاب عقيدة وشريعة وأخلاق وتوجيه، كتاب نور وهدى ورحمة وضياء وفرقان، روح وشفاء، ومن لم يؤمن بذلك فقد نقض ركناً من أركان الإيمان كما قررنا.

الأحبار لم يحملوا التوراة فكانوا كالحمار:

لكن ماذا حصل لهذه التوراة النازلة على موسى عليه السلام؟

كلف الله اليهود ـ أحباراً وشعباً ـ العمل بالتوراة، والمحافظة عليها، وأوجب عليهم حفظها وعدم تضييعها أو التفريط فيها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقال ـ تعالى ـ: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومعنى ﴿اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ أوجب الله على الربانيين والأحبار حفظ كتاب الله إليهم التوراة، ونهاهم عن تضييعه والتفريط فيه؛ فالله «أوكل» إلى الأحبار حفظ التوراة، ولم يتكفل ـ سبحانه ـ بحفظ التوراة كما تكفل بحفظ القرآن.

وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

فالله ـ تعالى ـ حكيم في طلبه من الأحبار حفظ التوراة، مع علمه أنهم لن يحفظوها، وأنهم سيضيعونها ويحرفونها، وذلك ليقيم عليهم الحجة، ويُحذر المسلمين كي لا يفعلوا فعلهم، وليس للمسلمين الانحراف الجذري الذي يصيب أحبار اليهود قبل أن يصيب أتباعهم من الشعب!!

كلف الله اليهود حفظ التوراة فضيعوها، وحمَّلهم التوراة فلم يحملوها، ولم ينفذوا ما فيها من أحكام وتشريعات، ولذلك شبههم الله بالحمار الذي يحمل على ظهره أسفار الكتب، قال ـ تعالى ـ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

الأحبار يحرفون التوراة:

لو طبق أحبار اليهود ما في التوراة، وقاموا بالتكاليف والواجبات التي فيها لكانوا علماء ربانيين صالحين؛ ولكنهم بانحرافهم عنها صاروا «حميراً» يحملونها بدون انتفاع بها، كما تحمل الحمير أسفار الكتب على ظهرها، مع عدم انتفاعهم بها!!

ولم يكتف الأحبار بتضييع التوراة ـ وهذا بحد ذاته جريمة عظمى ـ وإنما أقدموا على جريمة أعظم وأبشع، وهي «تحريف» التوراة، وإحداث التغيير والتبديل فيها، ومزج كلام الله الذي فيها بكلامهم هم!

الأحبار إذن حرفوا التوراة، وكتبوها بأيديهم، وأدخلوا فيها كلامهم، وزعموا أن هذا الكتاب الجديد هو كتاب الله، وأن هذا الكلام المختلط الممزوج هو كله كلام الله! وأسموا هذا الخليط: «العهد القديم»، وزعموا أنه هو «الكتاب المقدس» الذي أنزله الله على

موسى - عليه السلام - وغيره من أنبيائهم!

آيات صريحة في تحريف اليهود للتوراة:

وقد أخبرنا الله في آيات القرآن عن تحريف اليهود للتوراة، وذمهم ووبخهم وأوقع بهم غضبه ولعنته، وأعلن كفرهم وخلودهم في نار جهنم.

ومن الآيات الصريحة التي تقرر ذلك قوله - تعالى -: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

ومنها قوله - تعالى -: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩].

ومنها قوله - تعالى -: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾.

[النساء: ٤٦].

ومنها قوله - تعالى -: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: ١٣].

ومنها قوله - تعالى -: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: ٤١].

ومنها قوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

[آل عمران: ٧٨].

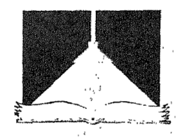
هذه ست آيات صريحة من القرآن تقرر تحريف اليهود للتوراة؛ وهذا معناه أن التوراة الموجودة بين أيدي اليهود محرفة أصابها الكثير من التغيير والتبديل والتزوير، وهي المسماة الآن بأسفار العهد القديم من الكتاب المقدس.

التوفيق بين إيماننا بالتوراة الربانية وكفرنا بالتوراة المحرفة:

وهذا معناه أن «العهد القديم» الذي يؤمن به اليهود، ويزعمون أنه كلام الله، ليس هو كلام الله، وليس هو التوراة التي أنزلها الله على موسى - عليه السلام -، وإنما هو بعض كلام الله النازل على موسى وغيره من أنبياء بني إسرائيل - عليهم الصلاة والسلام -، وأضاف أحبار اليهود إلى هذا البعض «الكثير» من كلامهم وآرائهم، ومزاعمهم وأكاذيبهم وافتراءاتهم وأساطيرهم، وقالوا: هذا من كتاب الله إلينا. وما هو من كتاب الله إليهم، وقالوا: هذا كله من عند الله. وما هو من عند الله.

والخلاصة:

أنه كما يجب علينا أن نؤمن أن التوراة هي كتاب الله النازل على موسى - عليه السلام - فإنه يجب أن نؤمن أن اليهود أضاعوا هذه التوراة، وأقدموا على تحريفها وتبديلها، ومن ثَمَّ نسخها الله، ويجب أن نؤمن أن التوراة الموجودة الآن بين أيدي اليهود محرفة مبدلة، وليست كلام الله، ولا كتاب الله، وأنها مليئة بالأكاذيب، والأباطيل، وأنه لا يجوز الإيمان بها؛ لأن البديل عنها هو القرآن الكريم، الصحيح الثابت المحفوظ، الباقي حتى قيام الساعة.



العرافة والوساطة الروحية

رحلة ما بين أثينا وباريس

معمر فوزي الخليل

مهنة عمرها آلاف السنين:

العرافة : ـ بالفرنسية ـ OARACLE مشتقة من اللفظ اللاتيني ORACULUM بمعنى النبوءة، والمقصود بها هنا إجابة الآلهة عن طريق عراف أو كاهن على أسئلة السائلين فيما يتعلق بمستقبلهم كالزواج والتجارة والسفر والحروب... إلخ.

أما الظهور الأول الذي تشير إليه كتب التاريخ لهذه الطقوس فيعود إلى القرن السادس قبل الميلاد من خلال الحضارة الإغريقية في أثينا التي شكلت التحول الكيفي لمجموعة التحولات الكمية البسيطة التي سبقت نشوء هذه الحضارة في العديد من مناطق العالم.

ولو أننا قارنا بين الظهور الأول لطقوس العرافة وطبيعة الدين المستمد من أساطير ألفها البشر ـ الذي كان سائداً في تلك المرحلة ـ لوجدنا أكثر من خيط متصل بينهما؛ ذلك أن الخرافات من طبيعتها التوالد المستمر، والتخيلات (الأساطير) الساذجة للآلهة في ذلك الزمن لم تجد صعوبة في إظهار العديد من الخرافات المرتبطة بشكل مباشر بالدين الإغريقي؛ فالإغريق كانت لهم ـ دينياً ـ العديد من الآلهة الوظيفية المتخصصة في مجال من مجالات الحياة الاجتماعية والدينية والمالية وحتى السياسية؛ حيث كان لديهم اعتقاد بأن هناك إلهاً للحرب وإلهاً للسلام وآخر للزراعة، وآخر للولادة، وكذلك للموت والزواج والعذاب والحكمة والحب والرعد... إلخ وفي مرحلة متقدمة من هذه الأساطير كان هنالك إيمان بأن بعض البشر كانوا آلهة مثل هرقل المولود من أب إله وأم بشرية بعد العديد من النزاعات بين الآلهة المزعومة والتي كانت في غالبية الوقت تتحارب فيما بينها، وعلى هذا الأساس احتاج الناس لطرق اتصالية مع هؤلاء الآلهة المزعومة المتعددة، وطقوس خاصة لعبادة كل إله على حدة، فكان أن ظهر في المجتمع الإغريقي وظائف هامة وأساسية، كالكهنة والعرافين.

كان دور الكهنة القيام على خدمة الآلهة في معابدهم المنتشرة بكل أرجاء البلاد، فكانوا يقيمون طقوس العبادة والتقديس، ويقدمون القرابين والأضحيات، ويعلّمون الناس كيف يعبدون هذا الإله ويتقون شر ذلك ويستفيدون من آخر، أما دور العرافين فقد كان يقوم على الوساطة المزعومة بين بني البشر والآلهة المتعددة! ولما كان العرّاف بحاجة لخاصيّة مميزة له عن بقية البشر فقد ظهرت الروحانية التمثيلية التي من المفترض أنها حالة انتقالية من التعايش مع البشر إلى التعايش مع الإله لسؤاله والحصول على الأجوبة منه، وكان الناس يصدقون ذلك!

فقد جرت العادة بين الناس أن تكون الاستشارة الدنيوية والدينية من خلال العرّافين والعرّافات الوسطاء الروحيين والمتمتعين بقدرة مميزة من الإله على التعامل معهم واستشارتهم.

كان من أشهر المتنبئات عندهم عرّافة (دلفي) وهي (بثيا Pythia) التي تروح في غيبوبة بسبب التركيز العقلي والروحي الكامل - حسب اعتقاداتهم - ثم تنطق بأصوات مبهمة غير مفهومة، فيقوم عرّاف آخر (لديه قدرة على فك شيفرة الرسالة السحرية) بتحويل هذه الأصوات إلى أنباء مناسبة بلغة الشعر أو النثر يفهمها الناس، ولما كان الناس يجدون الكثير من الاختلاف بين النبوءة والحدث، أي بين كلام العرّاف والواقع؛ فقد كانت الإجابة: بأن معنى الإجابة التنبئية غامض ويحتمل تأويلين أو أكثر؛ ذلك لأن الآلهة لا تخطئ، فإذا حدث ولم تنطبق النبوءة على الواقع؛ فإن ذلك يرجع إلى أن السائل لم يفهم الإجابة التنبئية على وجهها الصحيح، وأنه تأولها بشكل خاطئ.

ولعل من الإجابات التنبئية الغامضة المشهورة - حسب اعتقاداتهم - هي الإجابة التنبئية عن سؤال للملك (كرويسيس) ملك (ليديا) حيث كانت الإجابة: «إذا ما عَبَرَ (كرويسيس) نهر (هلليس) فسوف يدمّر امبراطورية هائلة»!! وحين دمّر امبراطوريته نفسها قالوا بأن النبوءة صحيحة وأن (كرويسيس) فهم أنه سيدمّر امبراطورية أخرى بينما المقصود هنا هي امبراطوريته هو.

ثم مع الأيام تنوعت طرق العرافة وتعددت لتساير ذوق العامة ومطالبهم السريعة والكثيرة فظهرت طريقة الحبوب الملوّنة؛ حيث كان السائل يسحب مجموعة حبوب ملوّنة بألوان مختلفة تعني نعم، أو لا. وهناك أساليب أخرى للعرافة كالأصوات والأشكال والأنواع ... إلخ.

ومن عرّافي هذه الأنواع عرّافة في بلدة (دودونا) التي كانت تفسّر أصوات حفيف أوراق شجرة البلّوط، وعرافة مدينة (ايف) بين شعب (يوربا) التي كانت تستخدم ٢٥٦ تمثالاً صغيراً مرقمة على لوحة الرمل يقوم خبراء التنجيم بتأويلها؛ فإذا حدث خطأ فهو بسببهم لا بسبب النبوءة، وهنالك عرّافة (ديدما)، وعرافة معبد (كلاروس) التي طغت على الأخيرة وكان لها جوقة من المنشدين، وقد وصلت شهرتها إلى مناطق بعيدة مثل ألمانيا ونوميدا وبريطانيا.

كما كان ينظر إلى حذاقة الغريزة الحيوانية ودقتها على أنها دليل قوة أو سر كالذئب والدب والنسر والبوم والخفاش... إلخ، ولم تكن الكهانة بواسطة الينابيع والأشجار والأشياء كالماء والمرآة وغيرها أقل شيوعاً من غيرها.

ولعل من دلائل اهتمام الإغريق بالعرافة وتنوع

أشكالها وأساليبها أنهم كانوا يتفننون بتأويل الكلام، خاصة أسماء العلم، وأية كلمة تلفظ سهواً أو تسمع مصادفة كان يمكن أخذها على محمل الإشارة الإلهية الغيبية، حتى إن سقراط نفسه كان ينصح تلاميذه باستشارة الكهنة والعرافين حين لا يجدون جواباً عن تساؤلاتهم!!

البارابسكيولوجيا.. الوجه الآخر العصري:

على الرغم من أن العالم اليوم يتجه إلى العلوم التطبيقية والاختراعات المذهلة التي تقفز بالإنسان العصري مسافات واسعة نحو التطور والرفاهية، فما يزال وفي كل مكان من العالم أناس يعتقدون بقدرة السحرة والمشعوذين والعرافين على استقراء الغيب واستحضار الأرواح وتحقيق المعجزات، شأنهم في ذلك شأن القدماء الأولين ذوي القدرات العقلية البسيطة والساذجة، بل حتى في الدول التي تعتبر علمانية وملحدة نجد هذا الامتداد الأعمى للعرافة والشعوذة.

ففي أمريكا مثلاً صدر كتاب منذ سنوات بعنوان: (عرّافة البيت الأبيض) يتحدث عن العرافة التي رافقت الرئيس الأمريكي السابق (ريغان) طوال فترة رئاسته، وقامت بدور (المستشار) الخاص بالرئيس، ويقال إن ريغان كان يثق بها ثقة كبيرة، ويأخذ برأيها في كل أموره الخاصة والعامة، كما لم تكن الحال لدى رؤساء الاتحاد السوفييتي السابق أفضل منها في أمريكا؛ إذ إن حياتهم لم تخل يوماً من العرافات، من بريجينيف وصولاً إلى غورباتشوف الرئيس السوفييتي الأخير.

وفي باريس عاصمة فرنسا أكدت دراسة نشرت مرافقة لمعرض وندوة (الطب الطبيعي وفنون التعرف على المستقبل) أن عشرة ملايين فرنسي يترددون على العرَّافات بحثاً عن حلول لمشاكلهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وبينت الدراسة أن (٤٨٠٠) عرافة تتلقى طلبات الفرنسيين إما مباشرة أو عن طريق الهاتف بينما «يتعدى عدد العرافات في فرنسا عدد الأطباء النفسيين البالغ (٤٣٠٠) طبيب!!

وفرنسا اليوم تعتبر موطناً لما يعرف بعلم (البارابسيكيولوجيا) وعلم الفلك (التنجيم)! وسواها، وقد أحصي فيها حسب آخر دراسة (٥٠) ألفاً ممن يمتهنون السحر والشعوذة بالإضافة إلى العرافين، منهم (٤٠) ألفاً مسجلون في دوائر الضرائب.

وقد تعدّدت مجالات عمل هؤلاء الوسطاء الروحيين لتشمل التكهنات بالأرقام السرية لحسابات طغاة مثل رئيس زائير السابق (موبوتو سيسي سيكو) أو نظيره الفلبيني (فرديناند ماركوس). ففي المؤتمر الدولي للوسطاء الروحيين وأصحاب البصيرة الذي عقد في جنيف قبل سنتين تقريباً وحضره (٥٠٠) منهم، قالوا إن خزائن البنوك تنفتح أمامهم ليلقوا نظرة على ما بداخلها؛ وذلك عن طريق أوراق اللعب والبندولات، وأحياناً عبر الحملقة في عيون الزبائن، وقد هتفت الوسيطة الفرنسية إرلين: «أرى خزانة باتجاه لوزان، أرى بنكاً يواجه بحيرة جنيف، يوجد في الداخل سجاد أحمر ومصرفيون قلقون» حملقت في الأفق أكثر بعينيها الزرقاوين وأكملت: «أرى طائرة، وعلى المهبط أرى أناساً كثيرين يأتون إلى هنا ليخرجوا نقود (موبوتو)، أي امرأة زائيرية»، أما الوسيط الفرنسي جوليان فقد حملق

في ورق الجدران وكأنه يبحث عن الإلهام ثم هتف: «الأموال لن تجلب السعادة للبنوك السويسرية».

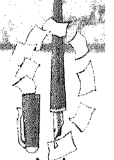
ربما استطعنا إيجاد العذر - الذي ذنبه أقبح منه - لتلك الدول بسبب الفراغ الديني والروحي الذي يعيشه الغالبية منهم، ولكن ماذا سنقول في العالم العربي والإسلامي الذي يتمثل هذه الصورة ويؤمن بهذه السذاجات؛ فالأمور الغيبية الخارجة عما أخبر به الله ورسوله منها ما زالت موجودة بيننا، بل وتتطور في العديد من الأمكنة، العرافات والدجالون هنا وهناك يجوبون القرى والمدن، مكشوفين أحياناً، وأحياناً متسترين، يبصرون بالكف والفنجان، ويضربون بالمندل وينجمون، ومنهم من يقنع زبائنه بلباقة وحنكة بقدرته على استحضار الأرواح ومعالجة الأمراض المستعصية، ورغم المحاولات الهادفة التي تقوم بها بعض وسائل الإعلام في محاربة هذه الظواهر المتخلفة، إلا أنها ما تزال تمارس في كل مكان.

ففي مصر أحصي أكثر من (١٠٠٠) كتاب لتعليم الدجل والشعوذة، يتم ضبطها في القاهرة وضواحيها، كتب حمراء وصفراء... سطورها وطباعتها الركيكة صارت أداة مشتركة لمحترفي النصب؛ لأنها - كما يبدو - أُعِدت وأُلِّفت خصيصاً لمن يرغب في امتهان الجهل.

من هذه الكتب (بحر بارنوخ)، و (السحر الأحمر)، و (الكباريت في إخراج العفاريت)، و (دليل الحيران في إخراج الجان)، والكثير من الكتب الأخرى التي حملت عناوين بعيدة كل البعد عما يدل على السحر والشعوذة خوفاً من الرقابة مثل كتاب (شمس المعارف الكبرى)، و (منبع الحقائق الكونية) وهي في حقيقتها قواميس لحرفيات وطرق التعامل مع العفاريت والسحر وتسخير البشر والسيطرة على إرادتهم.

وتحمل لنا بعض وسائل الإعلام - وللأسف - الأنباء والأخبار عن المنجمين، وكأنهم أبطال قوميون وشخصيات مرموقة في الدولة، وليس غريباً أن تعرض لكتبهم الجديدة في السحر، وقدرتهم المتزايدة على المعرفة وقراءة المستقبل، ناسين أن هؤلاء المدعين ما هم إلا أناس مثلنا، يصيبهم ما يصيبنا، ويمتهنون هذه المهنة من أجل لقمة عيشهم كما يمتهن الممثل التمثيل والمذيع المقابلات، وأنهم لو كانوا يتمتعون بالفعل بما يدعون لاختلفت أوضاعهم ولكانوا في حرز مما يصيب الناس بسبب معرفتهم المسبقة للأحداث، ولاكتفوا بقوتهم وجانِّهم وعفاريتهم عن العمل والتأليف والمقابلات.

ليس غريباً أن نسمع الآن بأن كتاب (الأبراج) لماغي فرح، والذي يصدر كل عام في لبنان يحطم الأرقام القياسية في مبيعات الكتب لمعارض الكتب العربية، ومثله كتاب جديد صدر منذ عام تقريباً يحمل عنوان: (فراسة السماء)، وهذا ربما يكون مؤشراً على أن علم البارابسيكيولوجيا سوف يدخل عالمنا العربي السعيد، ليصبح لدينا في يوم من الأيام مؤتمر عربي للدجل والشعوذة..!!



نقد مقال

قراءة في الذهنية السلفية

د. عبد الله بن صالح العلي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد:

فقد نشرت مجلة البيان في عددها (١٥٦) قضية للمناقشة بعنوان: «قراءة في الذهنية السلفية» للكاتب الأستاذ نواف الجديمي، وقد أحسن الكاتب في اهتمامه بالنقد الذاتي لمناشط السلفيين، فهذا النقد ومحاسبة النفس أمر متقرر شرعاً، والحوار العلمي الجاد وسيلة من وسائل البناء والتصحيح، كما أحسنت مجلة البيان في قبولها لهذا النقد الذي يتوجه إليها ابتداءاً.

وثمة تعقيبات على بعض ما نشره الأخ الكاتب نواف - وفقه الله للصالحات - أسوقها على النحو الآتي:

أولاً: ذكر الكاتب أن هذه المآخذ والإشكاليات تسود غالب الاتجاهات السلفية المعاصرة، وهذا تعميم خاطئ؛ فالكاتب لم يحدد هذه المعاصرة لا زمناً ولا مكاناً ولا حالاً، ولا سيما أن الكاتب أشار إلى قصور استقرائه ومحدودية تجربته.

ثانياً: ذكر الكاتب الفاضل ثلاث ملحوظات رئيسة في قراءته للذهنية السلفية، وأحسب أن هذه الملحوظات توجد بنسب متفاوتة في التيارات الإسلامية الأخرى، وتخصيص السلفيين بها لا يخلو من نقد ومراجعة، وخاصة أنه قد يشعر القارئ بأن الكاتب يرى بأن هذا ممَّا تفرَّد به السلفيون دون غيرهم..!

ثالثاً: قرر الكاتب أن التيار السلفي دائماً ما يركز على دائرة المعلومات ويهمل دائرة الأفكار، وأن السلفيين يهتمون بالحفظ ويهملون الفكر، وأن من حفظ الكتب الستة فله شأن عندهم دون من تضلع في أصول الفقه.

وأحسب أنه لا يخفى على الكاتب الفاضل أهمية حفظ نصوص الوحيين، وأن ذلك مطلوب شرعاً؛ فقد تواتر حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها؛ فرب حامل فقه إلى من هو أفقه

منه»[1] وهذا لفظ الترمذي من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه -، لا سيما أن العرب قد خُصوا بالحفظ، وهذه الأمة موصوفة بأن إنجيلها في صدورها.

وكما قال الخليل بن أحمد - رحمه الله -:

ليس بعلم ما حوى القِمَطْرُ ... ما العلم إلا ما حواه الصدر

ولماذا يفترض الكاتب أن حفظ السلفيين للمعلومات كحفظ الحاسب؟ وهذا قياس مع الفارق لمن له أدنى فكر وتأمل!

وها هو ابن عباس - رضي الله عنهما - وقد طُبع على الحفظ كان يكره كتابة العلم، ومع ذلك فقد كان له من الإشراقات والفتوحات في التفسير ما لا يحصى، كما كان صاحب مناظرات قوية مع الخوارج ونحوهم من أهل الأهواء، فما كان هذا الحفظ إلا سبيلاً لنشر العلم و «المعلومات» الأصيلة، وإفحام المخالفين، وحل المعضلات.

فلا إشكال في حفظ النصوص الشرعية، لكن الإشكالية أن يقتصر على الحفظ مجرداً عن الفهم والفقه، ولو أن الكاتب عني بهذه الإشكالية، وطالب بإيجاد برامج عملية لاستنهاض الفهم وتنمية ملكات التفكير والتجديد والإبداع لكان أليق وأنسب.

ولما هوّن الكاتب من شأن المعلومات هوّل من شأن الأفكار، وأقول للكاتب: لماذا هذه التفرقة والانفصام بين المعلومات والأفكار؟ وهل يمكن أن تتأتى الأفكار إلا بمعلومات، ولا سيما أن كل إنسان حارث ومفكر، كما قال ﷺ: «أصدق الأسماء حارث وهمام»؟[2]. ثم ألا ترى معي أن الأفكار المجردة عن المعلومات الراسخة تؤدي إلى الخلط والاضطراب؟! فالمعلومات والأفكار متلازمة لا ينبغي الفصل بينها. فالمعلومات أساس الأفكار، والأفكار ثمرة المعلومات.

ولعل مقصود الكاتب أن بعض السلفيين أهملوا كتب الفكر واشتغلوا بالكتب الشرعية، وأحسب أن العناية بكتب الفكر كانت في مرحلة سابقة، عندما كانت الاشتراكية والقومية ونحوها من المذاهب المادية التي تشكك في الإسلام وتطعن في الغيبيات رائجة في حقبة زمنية ماضية حيث ظهر - ولله الحمد - من كتابات المفكرين الإسلاميين من يذبّ عن دين الإسلام ويفنّد شبهات الخصوم، كما هو ظاهر في كتب سيد قطب والمودودي - رحمهما الله تعالى - ومحمد قطب ونحوهم.

فكانت كتب الفكر الإسلامي الأصيل ضرورية تجاه تلك الأفكار المنحرفة، وكما فعل من قبل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عندما واجه تلك الأفكار الفلسفية والكلامية والصوفية باللغة والأسلوب الذي يفهمه أولئك، فأظهر الحجة عليهم وكشف ضلالاتهم، ومن المناسب أن نورد ما يقرر ذلك من كلامه - رحمه الله -: «ولا ريب أن الألفاظ في المخاطبات تكون بحسب الحاجات، كالسلاح في المحاربات، فإذا كان عدو المسلمين - في تحصنهم وتسلحهم - على صفة غير الصفة التي كانت عليها فارس والروم، كان جهادهم بحسب ما توجبه الشريعة التي مبناها على تحري ما هو لله أطوع وللعبد أنفع، وهو الأصلح في الدنيا والآخرة ... إلخ»[3].

---

(1) أخرجه أحمد، (٣/٢٢٥)، والترمذي في كتاب العلم، ح/٧.

(2) أخرجه أحمد، ح/ ١٨٢٥٨.

(3) مجموع الفتاوى، ٤/١٠٧.

وأحسب أن هذه الصحوة المباركة قد ارتقت ـ نضجاً وعلماً ـ بدءاً من الكتب الفكرية الأصيلة في تقرير الثقة بالإسلام والرد على أعداء الإسلام إلى الاشتغال بالعلوم الشرعية في تقرير منهج السلف الصالح والرد على المبتدعة إلى غير ذلك؛ فما كان للسلفيين أن يحقروا الكتب الفكرية الإسلامية الأصيلة وهم يقررون قبول الحق من كل شخص ولو كان كافراً، وها هو العلاَّمة ابن باز ـ رحمه الله ـ يقرأ كتاب (النظرية السياسية) للمودودي ـ رحمه الله ـ مقرراً له[1]، وها هو العلاَّمة الألباني ـ رحمه الله ـ يورد كلاماً طويلاً لسيد قطب ـ رحمه الله ـ في مقدمة كتابه (مختصر العلو) للذهبي.

رابعاً: ادعى الكاتب أن السلفيين لا يعرفون جملة من المذاهب الفكرية كالقومية العربية والماركسية والبعث العربي.. وأما آخر النظريات الفكرية فإن غالب النخب السلفية لم يسمعوا بأسمائها فضلاً عن دراستها، هكذا قال الكاتب ـ هداه الله ـ.

ويبدو أن الكاتب كان يتحدث عن هذا المأخذ وقد انقدح في ذهنه نمط محدد من السلفيين، وليس من العدل أن يُحكم على جميع السلفيين أو غالبهم من خلال الحكم على طائفة منسوبة إليهم، وإلا فكيف غاب عن الكاتب جهود الأستاذ محمد رشيد رضا الإصلاحية ضد الأفكار المنحرفة؟ وأين جهود العلاَّمة عبد الرحمن السعدي تجاه الملاحدة كما في رسالتيه: «انتصار الحق في الرد على الملاحدة» و «الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين»؟ بل كتبَ الشيخ السعدي لمحمد رشيد رضا رسالة يؤكد عليه أن تُعنى مجلة المنار بالردّ على الملحدين. وأين إنجازات سيد ومحمد قطب في مواجهة التغريب والمذاهب المادية ومشكلات الحضارة؟ وأين مؤلفات الدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه الله ـ في الرد على المذاهب الأدبية والفكرية كما في مؤلفاته ـ أمثال: (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر)، و (حصوننا مهددة من الداخل)، و (الإسلام والحضارة الغربية)؟ وأين مواقف العلماء تجاه الغزو التشريعي والتشكيك في تحكيم الشريعة مثل ما كتبه الشيخ أحمد شاكر، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والعلاَّمة محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمهم الله؟[2].

وتأمل ما سطره العلاَّمة السعدي (ت ١٣٧٦هـ) في الرد على تلك الدعوى: «قد عُلِمَ من قواعد الدين أن ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب، وأن

---

(١) ذكر الشيخ مسعود الندوي (ت ١٣٧٣هـ) لقاءه بالشيخ ابن باز سنة ١٣٦٨هـ وأن الشيخ ابن باز أفاده بأنه قرأ كتاب (النظرية السياسية) للمودودي، وأبدى الشيخ ابن باز اعتراضه على قول المودودي في الآية الكريمة: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ بأن معنى الحديد هنا القوة السياسية. ثم قال الشيخ: يمكن أن يكون الأصل قوة أساسية ثم جاءت الترجمة «قوة سياسية»، فقال الشيخ مسعود: في الأصل قوة سياسية والمترجم التزم الأصل. فقال ابن باز: حسناً، هذا أمر يسير، لا أثر له على كتابه الأصلي. انظر كتاب (شهور في ديار العرب) لمسعود الندوي، ص٥٠.

(٢) قد يظن بعض القراء أن ثمة تساهلاً في إطلاق السلفية على بعض المذكورين كـ «محمد رشيد رضا، وسيد قطب» ـ رحمة الله عليهم ـ، ولا يخفى أن الأستاذ محمد رشيد رضا لا يخلو من نزعة صوفية سابقة، كما أن عنده لوثة عقلانية، كما أن سيد ـ رحمه الله ـ لا ينفك عن بعض الهنات اليسيرة التي صوبها بعض العلماء ونبهوا عليها ولم يغمطوا للرجل حقه، وفي الجملة فإن المآخذ على هذين العلمين لا تخرجهما عن دائرة أهل السنة، فلم تكن مخالفتهما ـ فيما أحسب ـ لقاعدة أو أصل كلي من قواعد الدين وأصوله، كما حرر هذه المسألة الإمام الشاطبي في الاعتصام.

الوسائل لها أحكام المقاصد ولا يخفى أنه لا يتم التحرز من أضرار الأمم الأجنبية والتوقي لشرورها إلا بالوقوف على مقاصدهم ودرس أحوالهم وسياساتهم، وخصوصاً السياسة الموجهة منهم للمسلمين؛ فإن السياسة الدولية قد أسست على المكر والخداع وعدم الوفاء واستعباد الأمم الضعيفة بكل وسائل الاستعباد؛ فجهل المسلمين بها نقص كبير وضرر خطير، ومعرفتها والوقوف على مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفع عظيم، وفيه دفع للشر أو تخفيفه، وبه يعرف المسلمون كيف يقابلون كل خطر»[(١)].

ولا يزال باحثو أهل السنة وعلماؤها - في هذه السنوات الأخيرة - يسطرون الكتب والرسائل العلمية تجاه جملة من الأفكار الوافدة[(٢)].

لا شك أننا - معشرَ السلفيين - نعترف بتقصير وإهمال تجاه جملة من النوازل الفكرية المستجدة، ولا يخفى أن ثمة فرقاً بين الاعتراف بهذا التقصير وبين أن يظن أن السلفيين إنما تركوها تديناً بهذا الترك والإهمال. وأحسب أن هذا التقصير ليس خاصاً بالسلفيين وحدهم، بل هو مشكلة قائمة عند معظم التيارات الإسلامية!

وأما انتقاد الكاتب السلفيين لعدم دراستهم الديمقراطية، والدراسات البنكية، وعلم النفس..!

فأقول: وهل يتعين على السلفيين أن يدرسوا كل القضايا النازلة ولا سيما أنها قد درسها غيرهم وبطريقة صحيحة[(٣)]، والحق ضالة المؤمن؟ أم يريد الباحث أن تؤلف مؤلفات عن موقف أهل السنة من الديمقراطية؟ وما الفرق بين هذا العنوان وبين: موقف الإسلام من الديمقراطية؟ ولا سيما أن ثمة كتابات ومؤلفات في هذا الصدد، وأما الدراسات البنكية والبدائل الشرعية فهي موجودة، ولكن هل ترك لنا عقيل من دار؟

وعلى كلٍّ فيبدو أن الكاتب يحتاج إلى مراجعة لنتاج أهل السنة قبل أن يصدر هذه الأحكام. كما أن جملة من الإشكالات الواردة جاءت كرد فعل من الكاتب تجاه بعض الممارسات الخاطئة لفصائل من أهل السنة، كما أن بعض إشكالاته قد عالجها بما يقابل تلك الإشكالات؛ والانحراف انحراف على كل حال، والخطأ لا يعالج بالخطأ مثل كلامه عن عداء الكفار للمسلمين ورغبته في تحريره واقعاً دون مجازفة، مع أن من بدهيات هذا الدين أن عداء الكفار للمسلمين أصل ثابت ومحكم، وما قد يقع خلاف الأصل فهو لمصالح وملابسات لا تشكك في هذا الأصل.

وأما عقدة المؤامرة عند السلفيين فقد توجد مبالغة عند بعضهم، لكن هذه «العقدة»، لم تكن ردة فعل تجاه السذاجة وحسن الظن بالأعداء عند الكثير من المسلمين، بل كانت حصيلة أحداث ووقائع، ومع ذلك كله فلا حاجة إلى تهويل المؤامرة أو تهوينها.

ختاماً: ينبغي التأكيد على أن الحوار الجاد والنقد العلمي البناء مطلب مهم من المطالب الشرعية التي يجب التأكيد عليها، والتعاون في إشاعتها، ولهذا أشكر للأخ نواف حرصه على النقد والتصحيح، وأرجو أن يتسع صدره لنقد النقد؛ وهذا هو حسن الظن به إن شاء الله تعالى.

نسأل الله تعالى أن يهدينا وسائر إخواننا صراطه المستقيم.

---

(١) رسالة وجوب التعاون بين المسلمين، ص: ١٣.

(٢) انظر مثلاً: العلمانية، للحوالي، ومصادر المعرفة في الإسلام، لعبد الله القرني، والانحراف العقدي في الأدب العربي المعاصر، لسعيد الغامدي وغيرها كثير.

(٣) درس بعض باحثي أهل السنة الديمقراطية كما في كتاب الثوابت والمتغيرات، للصاوي. وبنود وسراب الديمقراطية، للرحال، وغير ذلك.

قراءة في جداريات محمد الدرة

لمحمد السلام وعلى اليهود السلاح

سليمان بن عبد العزيز الربعي

كانت صورة محمد جمال الدرّة وهو يقضي نحبه بسيل رصاص الحقد اليهودي محتمياً بأبيه والجدار وحاوية النفايات، ناطقة بأكثر من مشهد، مؤكدة على أكثر من معنى، منتجة لما لا يحصى من الدلالات، لقد أسمعتنا تلك الصورة ـ رغم أنا وضعنا أصابعنا في آذاننا ـ صوت صراخه المستغيث يصدع جدار صمتنا الطويل، وعكست على مرآتنا ـ رغم صقلها البديع ـ لميع عينيه بالذعر الرهيب يشرخ صفاء عيشنا الرغيد، واختصرت جغرافيتنا ـ رغم فضائنا الفسيح ـ بتلك المساحة التي ضاقت عن جسمه النحيل، لتبلغ القلوب منا الحناجر، فتضيق علينا الأرض بما رحبت، وتضيق علينا أنفسنا.

كان الأب أمامَ (محمد) الضائع يتحسسه ـ كما تتكلم الصورة ـ بصدى العويل المفزع، والتصاق الجسد بالجسد، وكان في الجدار الذي يستندان إليه حلم الدفء بحضن الوطن المنتهك، ونصرة الأمة المغيَّبة، في حين كانت الحاوية رمزاً لوأد الحقيقة والحلم معاً، فما هي إلا لحظات بمقاييس الزمن، الدهر كله عند محمد، حتى دمدم الرصاص في الجسد الغضّ، ليغفو في حضن والده موتاً، منكفئاً بوجهه إلى الأرض، قد وضع يديه على عينيه كأنه يسترهما عن عارنا، في حين استحال الأب إلى فسيفساء من ذهول، وما سلم الجدار؛ فكأنه الآن يريد أن ينقضّ، وبقيت الحاوية شاهداً غير عدل! لقد كانت صورة معبِّرة بحق، وربما بأكثر مما يحب المهرولون، تراجيدية بأكثر مما يجب بحسب شروط السلام، بل كان في صدقها الذي لم يكن لمحمد فيه اختيار ما يدعو جمعيات الطفولة في العالم الأول للاحتجاج على عرضها خشية تأثيرها على نفسيات الناشئة المتمدنة فتعيق فالهم المنفتح على غد سعيد جديد!!

لقد قيل: إنها قد هزّت ـ لبشاعتها ـ مشاعر العالم! والسؤال الأدنى: وأي صورة لأهل الأرض المباركة في يومياتهم مع يهود تحمل غير البشاعة: إزهاقاً، واستحياءً، إذلالاً؟! كما أن السؤال «الأقصى»: وأين هو ذلك العالم المهزوز بالصورة عن حسّ الواقع لإقرار قيم الإنسانية المجردة في أبسط مظاهرها الفطرية: دفعاً للظلم ونصرة للمظلوم على أرض الأقصى؟ وإذ يدرك المرء ارتباط النصرة بمفهوم أعمق من مجرد عواطف آنية إن وجدت؛ إذ هو متصل بالهويات

العقدية في أخص مضامينها المشتركة، فليس القصد ألا نعي إخفاق مدنية القرن «الجيني» في تطبيق معايير المجتمع المدني الذي تدعو إليه، والتي من أهم بنودها: احترام الإنسان بوصفه قيمة مجردة بحقوق تبدأ ولا تنتهي!! كما أن القصد المراد: لفت نظر هذه الأمة إلى أن طبيعة الصراع مع يهود تتجاوز المحسوس في مداه المهم إلى الأهم شعوراً بالهوية؛ في سبيل إعادة إنتاجها في صور انتمائية إيجابية تسعى إلى تحقيق شروط النصر، سواء كانت شروطاً كونية متعلقة بالاستعداد والقوة، أو شروطاً أخرى شرعية تتعلق بتجديد الصلة بالله - تعالى - وصدق الالتجاء إليه.

فهذه الصورة التي تسابقت لبثها شبكات التلفزة لا تحكي - فقط - قصة القهر المنهج الذي يتعرض له الشعب المُعاني هناك صباح مساء، ولا تعكس - فحسب - صورة ناجزة لهوان أمة كانت تنتصر في سالف الحقب لصيحة عفيفة لُطمت بإحراق الأرض ومَن عليها!! وإنما تكشف - فيما هو أبعد من ذلك وأدل - طرفاً من نتائج تيهنا الطويل أكثر من نصف قرن من الزمان هي عمر قضيتنا المركزية - كما اعتدنا أن نقول، بُعداً عن مصادر التمكين، وخللاً في المناهج، وتغييباً لذاكرة العزة التي لم تزل تلحّ علينا بحقيقة أن ما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بها، وأنه ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا.

وحقاً؛ فأي ذلّ أمكن من هذا الواقع الذي يتفرج فيه مليار مسلم - فيما يقال - على المسرى المحرم، ثالث المسجدين، وأولى القبلتين، وهو نهب لأرجاس إخوان القردة، فلا يملكون من أمرهم سوى الشجب والتنديد؟ أم أي عار أخزى من مقابلة شلالات الدم الزكي بالبيانات المجردة، وزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من إراقة دم مسلم؟!

لقد قضى محمد الدرّة نحبه بثنتي عشرة سنة لم يعشها - كما هم أطفال العالم من حوله - معطرة الأمل، وردية الحلم، وإنما هي ثنتا عشرة سنة «خريفية» الهول «شتوية» الأنين، «صيفية» الهجير، «ربيعية» الوهم!! فما أدري - بعدُ - أقضى جزعاً عليها أم منها؟! غير أنه قضى وما زالت أمه تسترق النظر عبر الباب تنتظره! قضى بالرصاص وما زال قلم الرصاص في مبراته، وفي كراسه بقية من واجبات لم يتمها! قضى ولما يزل أقرانه في المدرسة ينظرون إلى كرسيه الشاغر فيعجبون لجرائته على الغياب! ولئن غيَّبت هذه الصورة الرمز في نفوسنا معنى التراتب المنهجي والعقلي في تناول قضايا أمتنا، فلم يعد لغير العاطفة صوت - وهو أضعف الإيمان - فلا أقل من تأكيد دلائل الشرع، والعقل، والواقع على إخفاق مشاريع «السلام» الطافحة بهوان التنازل حتى عن سلاح الموقف، وكذا تأكيد أنه لا حل إلا بالجهاد الذي هو ذروة سنام الدين، ليقول الحجر والشجر: يا عبد الله! هذا يهودي ورائي تعال فاقتله. لقد طال انتظارنا سيفَ خالد الذي نستمطره في الغدو والرواح:

يا ابن الوليد ألا سيفاً تؤجره
فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا!!

فجاء سيف آخر صقيل، هو سيف صلاح الدين الذي عُرِضَ للبيع - حسب إعلان - في إحدى الصحف بتاريخ ١٤٢١/٥/١٦هـ من هذا العام، فلم نحتج إلا إلى شهرين من هذا التاريخ، كي نعرف أن له أصحاباً هم به أحفل، وهو إليهم أنمى وأقرب، بعد أن تحاشى ثمنه «الغالي» آخرون، حيث استلمه طيب الذكر والنشر محمود أبو هنود مؤكداً به جُبن يهود، وأنهم لا يقاتلون جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جُدُر، بهذا السيف الذي هو سيوف يورق الأمل، ويستعيد محمد ابتسامة شروق، ويبلغ أبناء الحجارة سنيّهم الأشد ليقيموا جدار محمد الذي يريد أن ينقض، ويستخرجوا من تحته كنز الجهاد، والتمكين، والفتح، وهو فال محمد ومدلول اسمه. نعم مدلول «محمد جمال الدرّة»؛ إذ الجهاد إرث النبوة «المحمدية» وفي التمكين سيادة قيم الدين «الأجمل»، وبالفتح تعود القدس «درّة» مطهرة كما أراد الله لها أن تكون. هذه مفاهيم السلام في دين الله، فعلى محمد سلام، وعلى اليهود السلاح.



التنافس في المجال الدعوي

أحمد بن محمد أشرف

العمل الدعوي مجال مفتوح، له طرق ووسائل عدة، الابتكار فيه لا مانع منه، واستخدام بعض الطرق والوسائل التقليدية مشروع أيضاً؛ وذلك وفق ضوابط وأصول متفق عليها من قبل الدعاة بناءً على أسس الشريعة الإسلامية الراسخة، ولكل داعية أسلوبه وطريقته.

لكنه من الملاحظ أن هناك آفة قد استشرت في بعض الصفوف، تلك الصفوف التي يحرص أصحابها على الكسب الذاتي؛ فهم يحرصون على كسب أكبر عدد من المدعوين، وهذا واقع حاصل، والآفة التي يقع فيها هؤلاء كثيراً هي ما أسميه تجاوزاً: (الفوضى الدعوية)؛ حيث يقوم كل واحد منهم بالتوجه إلى شخص واحد، فيتوجهون كلهم إلى الشخص نفسه، ويبدأ كل منهم بسلوك أساليبه وطرقه الدعوية معه، وأسباب توجههم له بهذا الشكل عديدة مثل حرصه على المحافظة على الصلاة، أو حسن أخلاقه، أو أنه في بداية طريق الانتكاسة، فيعملون ـ كما سلف ـ كل بحسب أسلوبه وطريقته، ويحرص كل منهم على أن يكون التزامه واستقامته على يده، ويعمل على أن يضمه لمجموعته، وما إلى ذلك، وبهذا يقومون بالهدم لا البناء، فلا يجد أحدهم غضاضة في التحذير من فلان ولو بطريقة غير مباشرة ليكسبه هو في صفه، ولا مانع عندهم أيضاً من التصادم الذي قد يبدو كله أو شيء منه أمام المدعو، إضافة إلى ما يحصل من هدم بسبب الاختلاف في الطرق والوسائل الدعوية تبعاً لاختلاف وجهات النظر، وفي هذه الحالة فإما أن يكون المدعو ذكياً ويصادمهم بعضهم ببعض، وإما أن يأخذ كلامهم ويضرب به عرض الحائط، وإما أن يجامل الجميع فيصبح مذبذباً، وإما.. وإما..؛ وعندئذ يكونون كالمنبتِّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، حرصوا على الكسب لحساباتهم الذاتية، فهدموا، أو جعلوا أساس البناء هشاً إن لم يهدموه.

وهذه الآفة علاجها سهل يسير، وهو أن يحرص كل من يعمل في المجال الدعوي على نقاء النية وإخلاصها لله، إضافة إلى الوعي بأهمية العمل المنظم المنسق، وهذا جانب مهم في العمل الدعوي، وهو أن هذا المجال يحتاج إلى تنظيم وتنسيق وتضافر وتعاون، لئلا يحصل الهدم دون شعور، ونكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

بناء جيل

حمود بن عبد الرحمن الصايل

لكي تقوم الأمة الإسلامية من رقدتها وتعود إلى مجدها وعزتها لا بد من بناء جيل جديد بعد تجديد بناء جيل حالي، جيل أهدافه محددة واضحة، جيل يتجدد في فكره وعواطفه، جيل لا يخرج بمنهجه من إطار هذا الشرع القويم، جيل يتجدد عند كل خطأ. وهمته لا تتغير في هذه الحياة مع مرور الأيام وعند التعثر بالعقبات، لا يعرف الرضى بالعجز ولا يقع نهبة لليأس، جيل لا ينخدع بالمظاهر ولا بالمناصب، يعرف متى يتكلم وفي أي شيء يتكلم، وما فائدة هذا التكلم، ويعرف متى يسكت وما فائدة سكوته وما ضرره؟ ويكون معيار سكوته هذا الدين القويم. لا يكون خاوي الجعبة من العلوم، يعرف من أين يصعد؟ جيل يعرف كيف يتعامل مع النصوص وإذا كان لا يعرف فإنه يتعلم، جيل يؤمن بهذه الآية حقيقة الإيمان: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] يعرف ما هو الإيمان؟ يضع نصب عينه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. جيل يوظف طاقاته كلها بلا استثناء باختلافها من شخص لآخر ومن جماعة عن جماعة ومن طبقة عن طبقة في خدمة هذا الدين الشامل لجميع شؤون الحياة، لا بد لهذا الجيل باختلاف أشخاصه وطبقاته وجنسه أن يعرف من أين يبدأ، وأي طريق يسلك؟ عندها وعندها فقط يصبح كل فرد في هذا المجتمع له دور فاعل، عندئذ نعرف أخطاءنا السابقة التي نعتقد أن بعضاً منها نفعله على صواب، في هذه الأثناء نجد أننا وضعنا بعض أخطائنا طويلاً على شماعة اسمها الغرب. عندها نسترجع مجدنا وعزتنا بإذن الله.

النثر الجديد

محمد بن سعيد حجاب

في غمار هذه الفتن والمحن المتلاطمة وما يُلاقيه المسلمون من ألوان العذاب والنكال في كل بقاع الأرض لا ترى مسلماً إلا ويذوب قلبه ويتفطر مما يرى من تسلط الأعداء من حوله، ومما يرى من تخاذل المسلمين ونكوصهم عن نصرة إخوانهم؛ ففي هذا العقد خصوصاً ظهرت أبشع العداوات السافرة والحروب الضارية التي اصطلى المسلمون بنارها في كل مكان، ولك أن تنظر إلى هؤلاء اللاجئين والمشردين لترى في وجه كل واحد منهم صفحة تقرأ في سطورها كل معاني الفقر والفاقة والجوع والحرمان؛ فلكل مهاجر قصة، ولكل لاجئ حكاية، ولكل أسرة ألف حكاية وحكاية.

نعم! فلقد أصبح جسدُ هذه الأمة جسداً مُثخناً بالجراح؛ فعن أي شيء أتحدث يا أمتي؟ أأتحدث عن مستنقعات الدماء وكأنك ترى مذبحاً بشرياً؟ أم أتحدث عن مصيبة هذه الأمة حين فارقت دينها وجهلت حدود ما أنزل الله على نبيها ﷺ؟ أم أتحدث عن مُصابها الفادح حينما حاربت دُعاة الإسلام ووصفتهم بالتطرف والإرهاب والشطط الفكري؟ وهنا قد يتساءل سائل: ولكن أما لهذا الليل من فجر قريب؟ فأقول: نعم فعما قريب إن شاء الله يبزغ فجر، وتعلو رايات أمتنا، ويشهد الكون نصر دعوتنا وقيام دولتنا. قال ـ تعالى ـ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. نعم! فإن ما نراه من حولنا يوحي بأن هناك جولة جديدة للإسلام بإذن الله يغير الله بها هذا الواقع المرير الذي يحكم الأرض، ويستبدل به صفحة مشرقة يعيش الناس في ظلها، ولسوف تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، والله الفعال لما يريد، وبالرغم من وجود كثير من المعوقات إلا أن المبشرات أقوى منها وأجدر أن تكون هي صاحبة الكلمة الأخيرة.

فنحن نرى أن الحرب التي خاضها الأعداء ضد الدعوة الإسلامية لم تكن لتوقف هذا المد الإسلامي الذي يثبت جذوره في كل أنحاء المعمورة؛ فنحن أمة يحركها قدر الله، ويقودها كتاب الله، ويجدد معالم طريقها رسول الله ﷺ، والمبشرات بنصر هذا الدين كثيرة تجيء في مقدمتها آيات الذكر الحكيم، وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ فمن ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون»(١)، وغيرها من الآيات والأحاديث الصحيحة التي تبشر بنصرة هذا الدين، ولكن ينبغي للدعاة ألا يركنوا، وعليهم أن يتوقعوا مزيداً من المحاربة والبطش؛ فعليهم التسلح بالإيمان، وعلى الصحوة كذلك أن تحاول كسب قلوب الناس لمناصرة الدعوة، وأن تكون قادرة على الالتحام بالمجتمع، وعليها أيضاً أن تكون قادرة على التفكير الإيماني. وعلى التيارات الإسلامية أن تحذر من مغبة التشرذم والتفرق، ولتتعلم كيف تختلف دون أن تفترق وتتخاصم، وعلى المسلمين أن يستيقظوا من سباتهم العميق، وليعملوا على تغيير ما بأنفسهم حتى يُمكِّن الله لهم دينهم، ويُعيد إليهم دورهم السالف؛ مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين»(٢).

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة (٦/٢٦١).

(٢) رواه أحمد في المسند عن تميم الداري، (٤/١٠٣) والألباني في السلسلة الصحيحة، (١/٧).

حتى تعلن الجهاد

محمد فال بن سيدي

تَأمَّلْ أخي هَديَ الرَّسُولِ المُعَظَّمِ ... وَلا تَكُ فِي نَهْجِ الضَّلالِ المذمَّمِ

أترضَى بأنْ تبقَى رُبُوعُ بلادنا ... أسيرَةَ حُكْم ضَارِبٍ وَمُخَيِّمِ

يسَومُ جُمُوعَ المُسلمين مَذلَّةً ... ويُدْخِلهُمْ في الكُفرِ بالنَّار والدَّمِ

فغابَت عَن الأوطان شرْعةُ رَبِّنا ... ليَحكُمَ شَرْعُ الكفر باسْم التَّقدمِ

وأصبَحَ أهلُ الحق يَشكُونَ غُرْبَةً ... تَداعَى عَليْهِم كل وغد وَمُجْرِمِ

سَنَرْفَع عنا العَارَ بالسَّيْفِ جَانباً ... ونمضي على نهج الرسول المعُظمِ

يَقُولُ لَنَا إنَّ الجِهَادَ سَبِيلُنَا ... لعز وإنْ حدنَا فَذل التشَرْذُمِ

عَشقْنا رَصَاصَ العز يشْدُو بالحُن ... تُزيلُ طغاة الأرض عن كل مسلمِ

سيَشْهد هذا الكون فجرَ خلافَة ... تحكم دين الهاشميٍّ المُعلِّمِ

تُجاهدُ أعْداءَ الإلَه تُذيقُهُمْ ... لَدَى مَعْمَعَان الحَرْب كأسَ التَّحطُّمِ

وَيَغْدُو كِتَاب الله نَهجاً مُحَكَّما ... وَتَحْيَا رُبوع بالعقِيدة تَحْتمِي

أزيز الحقد زاد

مبارك عبد الله المحيميد

كلمات من وحي صورة الفتى محمد جمال الدرة وهو في حضن والده.. لم يسعفه الوقت لكتابتها..

حكاياتي حكاياتٌ ... من الألمِ.. ومأساةُ

تكدَّرتْ الحياةُ وكـ ... ـان ملء النفس ضحكاتُ

وكان لديَّ في الآمـ ... ـال حاجاتٌ وحاجاتُ

وجاء عليَّ يومٌ كلُّـ ... ـهُ غضبٌ وويلاتُ

جنودٌ ها هنا صفُّوا ... وخلف الصفِّ قوَّاتُ

كلابٌ من بني صهيـ ... ـونَ تلحقني وتفتاتُ

إلى أن صدَّني وأبي ... سدودٌ أو بناياتُ

أصيحُ: .. أبي وماذا قد ... تفيدُ اليومَ صيحاتُ

أبي: .. ويضمني فزعاً ... وملءُ الصدر آهاتُ

أزيزُ الحقدِ زادَ وسُدّ ... دتْ فيَّ الرصاصاتُ

أرى عمرَي يمرُّ وخلـ ... ـفهُ تعدو النهاياتُ

سلامُ الزُّور تحفظهُ ... لدى الصمت القراراتُ

وتفضحهُ مجازر كُلُّـ ... ـها حقدٌ وثاراتُ

سلامُ الحقد معناهُ ... حروبٌ أو صراعاتُ

بَني قومي ألا حسٌّ ... يَهيجُ .. ألا انْفعالاتُ

ألا خَيْلٌ تُثيرُ النقـ ... ـعَ مُورِيَةٌ مُغيراتُ

بَنِي قومي لقد تَعِبَتْ ... من الرَّكضِ الَرياِلاتُ

ودِينُ الله يا قومي ... أمانٌ وأماناتُ

سَلامُ الله أبعثُهُ ... تعطِّرُهُ التحيَّاتُ

سلامٌ إنَّ موعدنا ... بفضلِ الله جنَّاتُ

المبادئ الأساسية للدعوة الإسلامية

عبد السلام سعيد كريم

بالبحث والتأمل يتجلى لنا أن الدعوة الإسلامية دعوة فطرية، ومبادئها النظرية والعلمية تناسب كل طاقة، وليس فيها إتعاب للفكر ولا قهر للذهن ولا إرهاق للتصور. سئل أحد الحكماء: لماذا أسلمت؟ فقال: نظرت في الإسلام فلم أجد فيه أمراً يقول فيه: افعل، ويقول فيه العقل: لا تفعل، وكذلك لم أجد فيه أمراً يقول فيه: لا تفعل، ويقول فيه العقل: افعل، ولكن وجدت كل ما جاء به من أوامر ونواه يوافق العقل والشرع، أما مبادئه المحورية الأساسية فهي:

١ - الدعوة إلى عقيدة التوحيد: وهو أن يفرد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات الواردة في القرآن والسنة النبوية من غير تمثيل أو تكييف أو تعطيل، أو تحريف، تلك العقيدة السهلة التي لا تركيب فيها ولا تعقيد، ولا غموض ولا إبهام، قال الله - تعالى -: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]،. وجميع الرسل - عليهم السلام - دعوا قومهم إلى التوحيد الخالص كما جاء في القرآن: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢ - الدعوة إلى عقيدة البعث والإيمان باليوم الآخر؛ وهي ترتبط بعقيدة التوحيد بأوثق الروابط؛ فالإيمان بإله واحد يستجمع جميع صفات الكمال ويستلزم الإيمان بحكمته البالغة، ومن الحكمة ألا يسوى بين مؤمن وكافر، وبرّ وفاجر، ومحسن ومسيء؛ فلا بد من يوم تجزى فيه كل نفس بما كسبت، قال الله - تعالى -: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

٣ - الدعوة إلى الإيمان برسل الله: وبينها وبين العقيدتين السابقتين أقوى الأواصر وأمتن الروابط، والإيمان بالرسل يقتضي الإيمان بما جاؤوا به من العقائد والأحكام والكتب، وما جاؤوا إلا بما يصل العبد بربه ويحدد طبيعة علاقة الفرد بالخلق، ويجلب له الهناءة في دنياه وآخرته: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

فيجدر بالدعاة أن يشرحوا الأصول الثلاثة المتقدمة على غرار منهج السلف الصالح في القرون المفضلة؛ أما بعد تلك العصور المشهود لها فقد نشأت أنواع من البدع الخلافية والجدل الكلامي والأفكار المتنوعة، ولن يصلح حال آخر الأمة إلا بما صلح به حال أولها.

شيشان البطولة والصمود

أيمن إبراهيم شحاته

الدين يأسى وصرح الكفر يزدان ... وابحر الشعر أتراح وأحزان
بينا نذيع على الأسماع شقوتنا ... جاءت إلينا تحث السير شيشان
جاءت إلينا وقالت عند رؤيتنا: ... أفيكم اليوم أبطال وشجعان؟
ألا ترون صمودي؟ قلت: نشهده ... لكننا اليوم في الأحزان إخوان
أبطال (شامل) باتوا فخر أمتنا ... ومجد دولتنا يبنيه (أصلان)
(خطاب) يحمي حمى الأوطان مصطبراً ... أجناد ربك في الآفاق أعوان
رأيت في عينها شكوى مخبأة ... وطرفها في شعاب الأرض حيران
قالت: وأنتم، فقلت: اليوم عزتنا ... بعد الضياع لها في النفس سلوان
من بعد ما كمموا أفواهنا وسرى ... فينا الهوان وجفن الشرق وسنان
قالت: محال! ففكوا القيد وانطلقوا ... من قبل أن تصطلي بالنار أوطان

التمرد

زاهر بن محمد الشهري

ما أجمل أن ترتبط الحياة بخالقها!! وما أروع أن تهفو القلوب إلى بارئها!! وما أبدع أن ينتظم الوجود كحبات اللؤلؤ في عقد يطبق حقيقة ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] في السياسة والحكم.. وفي الاقتصاد.. وفي العلاقات الاجتماعية.. وفي كل صغيرة وكبيرة لتكون حتمية النتيجة ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فإلى دعاة التحرر من الدين والقيم والأخلاق، وإلى أصحاب الفكر المستنير ـ زعموا ـ وهل تمارس الخفافيش عملها في رابعة النهار وفي وضح الشمس؟!

مثل النهار يزيد أبصار الورى   نوراً ويعمي أعين الخفاش

أو كما قال الآخر:

خفافيش أعماها النهار بضوئه   ووافقها قطع من الليل مظلم

فإلى هؤلاء وهؤلاء نقول: عودوا إلى جحوركم، ودعوا الخلق للخالق ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فقد كشفت أستاركم وهتكت عوراتكم، وفضح الفكر المستميت المنهزم تحت ضربات الواقع ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا   بما قد رأوا مالوا جميعاً إلى السلم

ولكن لا سلم حتى تُكسر الأقلام المفسدة، ويكفّ كل متمرد عن «التمرد».

ردود

* الأخ: صالح بن محمد باشاقيب: أرسل يقول: إنني أتابع مجلة البيان من أول عدد صدر ولله الحمد، وكنت أرى فيها المنهج الوسط (الاعتدال)، ولكني من خمس سنين أو أكثر ألاحظ أن هذا المنهج تلاشى، وبعدت عنه المجلة كثيراً، فأطلب منكم إعادة النظر في الاعتدال، والعدل.. العدل.. العدل، وجزاكم الله خيراً.

ومجلة البيان تقدر رأيك، ولكن نتمنى أن تذكر ملحوظاتك حتى نستفيد منها؛ فنحن لا نبرئ أنفسنا من الخطأ، ونسعد بالتقويم والمناصحة.

* الإخوة: الذين أرسلوا مشاركات عن شهر رمضان، نشكر لك تواصلكم الكريم، ونفيدكم بأن المشاركات جاءت متأخرة، فلم نتمكن من نشر المناسب منها. آملين دوام التواصل.

* الأخت: أم صهيب من الرياض: أرسلت تطلب كتابة بعض القضايا التي تتعلق بالأرض المباركة ـ فلسطين ـ ونشكر الأخت على تواصلها مع مجلة البيان، ويمكنها مراجعة الكتاب الذي صدر مؤخراً عن المنتدى الإسلامي بعنوان: قبل الكارثة.. نذير ونفير.

* الأخ: سعود بن سليمان اليوسف: قصيدتك «نغم في أذن الصمت» مجازة للنشر، مع رجاء أن تقوم باختيار عشرين بيتاً فقط، حسب المساحة المخصصة للنشر، وجزاكم الله خيراً.

* الإخوة: خميس بن عاشور، عبد الله بن شبيب الدوسري، رياض بن عقيل بونمي، فيصل عبد العزيز المخايطة، محمد عبد العزيز المبرد، ياسر جياكتا، ممدوح القديري، سليمان عز الدين سليمان، عبد الخالق القحطاني، طلال الجابري، عثمان بن عطية المزمومي: نشكر لكم مشاركاتكم الطيبة، ونفيدكم بأنها مجازة للنشر، آملين دوام التواصل.

* الإخوة: أحمد عزيز كنعان، عبد الله موسى بيلا، محمد إبراهيم العلوي: وصلتنا مشاركاتكم، جزاكم الله خيراً، ونفيدكم بأنها ستعد للنشر في المنتدى بإذن الله.

دعوة إلى وقف النقائد

د. محمد بن صامل السلمي (*)

إن أشرف ما تنفق فيه الأموال نشر العلم وتعليمه للناس، وأشرف العلوم علم الشريعة، وأعلاها كتاب الله ووحيه القرآن الكريم، وقد نبّه النبي ﷺ إلى أهمية تعلم كتاب الله وتعليمه فقال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(1). وإن من رحمة الله بعباده ولطفه بهم أن هيأ لهم أسباباً ووسائل تجعل أجورهم وحسناتهم مستمرة ولا تنقطع بعد وفاتهم ومفارقتهم الحياة الدنيا.

وإن مما ينتفع به المسلم بعد وفاته أموراً منها(2):

١ – دعاء إخوانه المسلمين له إذا توفرت فيه شروط القبول.

٢ – قضاء الدَّين عنه من أي مسلم كان ولياً له أم غير ولي.

٣ – ما يفعله الولد الصالح من الأعمال الصالحة؛ فإن للوالد مثل أجر الولد دون أن ينقص من أجره شيء.

٤ – ما يعمله الولد الصالح من الدعاء والصدقات عن والديه. ويدل على ذلك أحاديث من أشهرها:

أ – حديث أبي هريرة في صحيح مسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(3).

ب – حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ في الصحيحين: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن أمي افتُلتت نفسها ـ أي ماتت فجأة ـ ولم توصِ، وأظنها لو تكلمَتْ تصدقَتْ؛ فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها؟ قال: نعم!»(4).

ج – حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في صحيح البخاري: «أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فقال: يا رسول الله! إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، أينفعها شيء إن تصدقتُ به عنها؟ قال: نعم! قال: فإني أشهدك أن حائطي المِخْرَاف صدقة عليها»(5).

قال ابن المبارك: ليس في الصدقة اختلاف. كما حكى ابن تيمية الاتفاق على ذلك(6).

٥ – ما خلفه بعده من آثار صالحة وصدقات جارية لقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

قال الحافظ ابن كثير(7) قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ أي من الأعمال. وفي قوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ قولان:

أحدهما: نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم، وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضاً، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. قال: وهذا القول هو اختيار الإمام البغوي.

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك، جامعة أم القرى.
(1) رواه البخاري، ح/ ٥٠٢٧.
(2) راجع أحكام الجنائز، للشيخ ناصر الدين الألباني، وانتفاع الموتى بأعمال الأحياء، لابن تيمية وابن القيم، جمع مروان كجك.
(3) رواه مسلم، ح/ ١٦٣١.
(4) رواه البخاري، ح/ ١٣٨٨، مسلم، ح/١٠٠٤، واللفظ له.
(5) رواه البخاري، ح/٢٧٥٦.
(6) مجموع الفتاوى، ٣٠٩/٢٤.
(7) تفسير ابن كثير، ٥٥١/٦.

القول الثاني: أن المراد بذلك خُطَاهم إلى الطاعة أو المعصية. ثم قال: وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول؛ بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأَوْلى والأحرى؛ فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب؛ فلأن تكتب التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأَوْلى.

وقال العلامة عبد الرحمن بن سعدي: «قوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ هي آثار الخير، وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم. فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد، وتعليمه أو نصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيه عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب يُنْتَفعُ بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة، أو صدقة، أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك؛ فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيئاً.

وهذا الموضع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك. ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة وأشدهم جرماً وأعظمهم إثماً»(١) ا. هـ.

ويدل على هذا أيضاً عدد من الأحاديث منها:

أ - قوله ﷺ في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٢).

ب - حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علّمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه بعد موته»(٣).

قوله في الحديث الأول: «أو علم ينتفع به» دليل على فضيلة وقف العلم والترغيب في ذلك. ووقف العلم يكون بتاليف الكتب ونشرها بين الناس، وإيقافها في المكتبات العامة والمساجد والمدارس والأماكن التي ينتفع بها، كما يكون بتعليم العلم ونشره وإيداعه عند طلابه الذين يحفظونه ويبلغونه لغيرهم.

كما أن وقف العلم قد يكون من غير العالم؛ وهذا من سعة فضل الله على عباده؛ إذ يستطيع غير العالم مشاركة العالم في وقف العلم واستمرار أجره، وذلك بالنفقة على شراء كتب العلم النافعة وطباعتها وتوزيعها على المحتاجين لها، ووقفها على المكتبات والمدارس الخيرية بدليل قوله ﷺ في حديث ابن ماجه: «ومصحفاً ورّثه» فإن المصحف ليس من تاليفه، وإنما ورّثه بالإنفاق على طباعته أو شرائه ثم يجعله وقفاً، وهكذا كتب العلم إذا أنفق على طباعتها ووقفها؛ فإنه يشارك العالم في نشر العلم، وكذا الإنفاق على المعلمين والمتعلمين وتجهيز أماكن التعليم وأدواته ووسائله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإن إعانة المسلمين بأنفسهم وأموالهم على تعلم القرآن وقراءته وتعليمه من أفضل الأعمال»(٤).

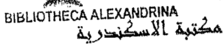
أخي المسلم: إن مشاركتك في نشر العلم وإيجاد الأوقاف الثابتة للإنفاق على تعلم القرآن والعلوم الشرعية من أعظم الوسائل لاستمرار عملك وحسناتك سنيناً ودهوراً بعد وفاتك، وهي من أعظم البر لوالديك، وأقاربك، وأصدقائك، فاحرص على نفع نفسك ونفع إخوانك المسلمين، بنشر الشريط الإسلامي، والكتب النافعة، ودعم حلقات تحفيظ القرآن الكريم والتعاون في ذلك مع أهل الخير والفضل، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي، ص ٦٣٩. (٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه في مقدمة السنن، باب ثواب معلم الناس الخير، وهو حديث حسن، وقد صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع، وفي أحكام الجنائز، ص ١٧٦.

(٤) مجموع الفتاوى، ٢٤/٣١٦.





Printed in Egypt

مطابع الأهرام بكورنيش النيل


الآن في الأسواق
قبل الكارثة نذير.. ونفير
تاليف / عبد العزيز بن مصطفى كامل
كيف تنمي أموالك
تاليف
فيصل بن علي البعداني
تأملات في العمل الإسلامي
تاليف
محمد بن عبد الله الدويش
مكتب مجلة البيان . الرياض . ت ٤٦٤١٢٢٢ فاكس ٤٦٤١٤٤٦ الرمز البريدي ١١٤٩٦ ص.ب ٢٦٩٧٠